رواية

قبلات نيتشه

لانس أولسن

ترجمة: نادين نصرالله



لانس أولسن

قُبُلات نِيتْشه

ترجمة

نادين نصرالله



لانس أولسن

قُبُلات نِيتْشه

الكتاب: قُبُلات نِيتْشه
تأليف: لانس أولسن
ترجمة: نادين نصرالله
عدد الصفحات: 256 صفحة

الترقيم الدولي:978-9953-582-86-3

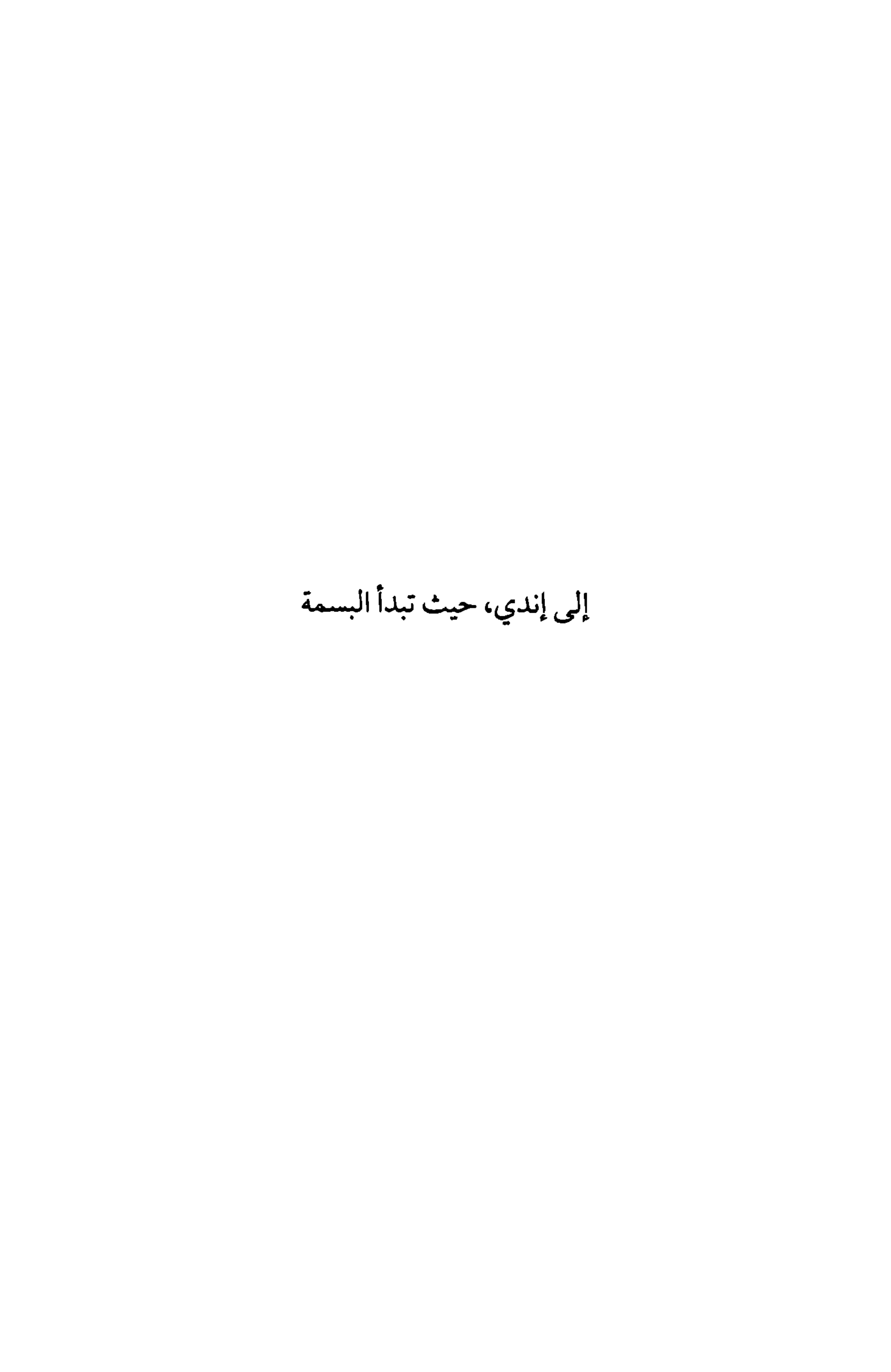
الطبعة الأولى: 2017

هذه ترجمة مرخصة لكتاب:
Nietzsche's Kisses by Lance Olsen

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة-جاردن سيتي - 2 شارع فؤاد سراج الدين (السراي الكبرى) -الدور الأرضي- شقة رقم 2.
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar - altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar - altanweer.com



إلى إندي، حيث تبدأ البسمة

يجب على المرء أن يسدّد ثمن الخلود؛ يجب على المرء أن يموت مرّات عدّة بينما لا يزال حيًّا يرزق.

- نيتشه، «هذا هو الإنسان».

وحده اليوم الذي يلي الغد ملكي. بعضهم يولد غداة وفاته.

- نيتشه، «عدوّ المسيح».

القسم الأول

في ازدراء الجسد

الخامسة عصرًا

كلّ جملة قبلة بحدّ ذاتها.

نعم، هذا ما في الأمر؛ أخذت أبحث عنها مرارًا وتكرارًا في عقر دار ذاكرتي - إلى أن قرّرَت على حين غرّة أن تشاركني الحوار.

أصوات التاريخ كلّها.

أصوات التاريخ كلّها تكلّمني.

ها هو الأمير بسمارك[1] تلميذ مجتهد. اعلم أنّه ليس بالطفل المعجزة أو العبقري، بل مجرّد عامل رصين ليس إلّا.

كلّ جملة قبلة بحدّ ذاتها، وكلّ مقطع مشروع احتضان.

---

(1) **أوتو إدوارد ليوبولد فون بسمارك**: Otto von Bismarc من مواليد 1 أبريل 1815، وتوفي بتاريخ 30 يوليو 1898، رجل دولة وسياسي بروسي - ألماني شغل منصب رئيس وزراء مملكة بروسيا بين عامي 1862 و1890، وأشرف على توحيد الولايات الألمانية وتأسيس **الإمبراطورية الألمانية** أو ما يسمى بـ«الرايخ الألماني الثاني»، وأصبح أول مستشار لها بعد قيامها في عام 1871، حتى عزله فيلهلم الثاني عام 1890، ولدوره الهام خلال مستشاريته للرايخ الألماني أثرت أفكاره على السياسة الداخلية والخارجية لألمانيا في نهاية القرن التاسع عشر، لذا عرف بسمارك بلقب «المستشار الحديدي» (الهوامش من الناشر).

وها هي البشرة تتحسّسه.

إلّا بطبيعة الحال، إذا أثبتت ثرثرات التاريخ أنّها على ضلال.

يبقى ذاك الاحتمال واردًا.

يبقى ذاك الاحتمال واردًا بين احتمالات عدّة.

على كلّ الأحوال، سيفضي هذا الصباح المثالي الذي لا تشوبه شائبة إلى نهار أمثل لا تشوبه شائبة. أنا متأكّد من ذلك. إن كان حقًّا صباحًا، وليس شفقًا. فالشفق وجه آخر لما قد يكونه.

حسنًا، إليكم ما سأقوله: الترَف.

فلنسمّه فتح العينين.

ثانية واحدة.

ثانية واحدة.

المزيد من الضوء.

يبدو أنني لم أعد أقوى على تحسّس أصابعي.

أستطيع أن أتنشّق عبق الوقت، لكنّني لم أعد أقوى على تحسّس أصابعي ولم أعد أشعر بقدميّ. مخاوف هزيلة في خضمّ يوم حافل بمثل هذه الوعود، لكن يبدو أنّه... ماذا؟ يبدو أن أطرافي تتلاشى في الهواء وهي تتمدّد بعيدًا عنّي.

بالأمس القريب كان الأمير يشب ويمرح، وها هو الآن يرقد تحت هذه الملاءات الدافئة في هذا اليوم الأمثل الذي لا تشوبه شائبة، يتعرّق ويتعرّق ويفكّر ويسعى جاهدًا للتفكّر، إلى أن يشرع بفتح عينيه، كي يلقي بناظريه من حولي.

هنا تبدأ حركة في الجزء الأسفل من وجهي، كتلة لحميّة تلقي بثقلها على أرضيّة فمي.

متى كانت آخر مرّة توقظ فيها أحشائي نفسها في مسعى لتقديم هيئة مقبولة تبقى مجرّد تخمين.

لربّما كان ذلك، على ما أستطيع تذكّره، في منتصف الليل.

ليس ثمّة ما يحول دونه.

إلا إذا أزاحت عيناي رداء جفنيها.

تبقى هذه الإمكانيّة قائمة.

إلا إذا أزاحت عيناي رداء جفنيها وحافظت على وضعيّتها هذه لِنَقُلْ لساعاتٍ أو أيامٍ، إلى أن ينتهي بي المطاف ضريرًا.

قد تطرأ مثل هذه الحالة بلا أي مفاجأة فعليّة.

استمع جيدًا: يمكنك أن تنصت إلى ملابسي.

رداء المستشفى الذي أضعه عليّ يتنفّس.

لربّما يجدر بي أن أغتنم هذه الفرصة لأشير إلى أنّه حريّ بي أن أكون أستاذًا في بازل على أن أكون الله، لكن للأسف، يبقى الإنسان ما هو عليه - إلى أن لا يعود الإنسان إلى ما هو عليه، عندما يطرق القلب خفقاته بطبيعة الحال في جسد إنسان آخر.

يخالجني انطباع عام ألا وهو أنّني أنزلق في ضباب على ضفاف بحيرة لوسيرن.

في إحدى العطل التي قضيتها مرة في تريبسين[1]، انطلقت من مرسى فاغنر على حافّة حقل الأزهار البريّة الصفراء؛ أبراج المدينة، ونوافيرها، وأجراس الكنائس تتناهى إلى مسامعي من أقصى أقاصي المياه، فيما تسارع شمس الربيع إلى تلمّس كتفيّ.

جذّفت شرقًا نحو الأفق الصخريّ، وكيس الشوكولاته يرقد على المقعد بجانبي، حتى أنهك الألم ذراعيّ، فسحبت المجذافين واستلقيت في حضن قاربي لأسلم الروح للسكّريّات والتأمّل.

لا بدّ من أن النعاس قد غلبني لهنيهة من الزمن إذ حينما فتحت عينيّ مجددًا، كان كلّ ما حولي غارقًا في سحابة من ظلام، فجلست لأكتشف أن الكون قد اندثر.

بالكاد استطعت إيجاد سبيل لي خارج مياه البحيرة معتمدًا على حنكتي.

رفعت مجذافيّ واستكملت التجذيف. أخذت أمخر عباب الوشاح الرماديّ، في حين يتراءى لي أنّي لن أبلغ اليابسة قبل انقضاء اللّيل. لذا عدّلت مساري، لأشرع في القلق من تعديله نحو ما هو أسوأ، إذ كنت أجذّف قبل هذا التعديل بالاتجاه الصحيح نوعًا ما.

تخيّل: تلك اللحظة المباغتة لدى ملامسة الشاطئ لا تأتي أبدًا.

بدا الأمر وكأني أجذّف وأجذّف إلى ما لا نهاية في ذاك العدم.

---

(1) تريبسين: هي منطقة تابعة لمدينة لوسيرن في وسط سويسرا، أهم ما يميزها أنها كانت موطن المؤلف الألماني ريتشارد فاغنر من مارس 1866 إلى أبريل 1872. عندما كان فاغنر مجبرا على مغادرة ميونخ في مارس 1866 انتقل إلى ڤيلا واسعة في تريبسين تطل على بحيرة لوسيرن. وقد قام بتأليف الفصل الثالث من أوبرا سيغفريد وبداية جوتيردامبرونج خلال إقامته هناك.

أريد أن أقول الآن، وأنا ممدّد تحت هذه الملاءات الحارّة، أتعرّق وأتعرّق وأسعى جاهدًا للتفكر، إنه الإحساس نفسه، في الوقت ليس إلّا.

يبدو أنّني لم أعد أقوى على التذكّر ما إن كنت أتذكّر أو أعتقد أني أتذكّر في حين أنا لست بمتذكّر البتة.

أودّ أن أقول إنّي قضيت العطلة في تريبسين.

أودّ أن أقول إنّي لم أفعل.

كلّ يوم يطالعني الناس بأكثر ما يلفت في حياتي.

يستعيدون، عبر الصور، الأمسيات الهادئة التي قضيتها مع هذا الصديق أو ذاك.

وأتساءل، هل يعقل أنّي كنت أستمتع بوقتي؟ أتَرى، يهمني الأمر.

إذًا، ما عليّ القيام به هو التالي: عليّ أن أشرع بفتح عينيّ... هكذا... أجل... هكذا... ها هي تفتح... الترف العظيم... ثمة ظلّ قاتم يرفرف ذهابًا وإيابًا أمامي، حشرة سوداء ضخمة مقابل النافذة البيضاء المشرقة.

هي امرأة، كليّ ثقة بذلك.

امرأة منمنمة تتحرّك.

تتقدّم خطوات لتخرج من دائرة الضوء، تقترب من سريري، فتنزع عنّي الملاءات الرطبة وتضع يديها بين رجليّ.

تعمل بجدّ، مع أن إحساسي باللمس لم يعد كما في السابق.

عمليّة تدليك، ربّما، أو لربّما تنظيف.

أجل، هذا ما في الأمر: تدندن لنفسها، لحنًا ألمانيًا ثقيلًا لشوبيرت.

تبدو مألوفة. لا بل هي مألوفة بشعرها الرمادي الطويل الذي عقدته في كعكة مجعّدة، وبالخيوط البنفسجية التي ترتسم فوق خدّيها العذراوين، وتمارس التنظيف.

أسألها بفمي الرخو كاسرًا حاجز الصمت. هل يعقل أن تكوني أمّي؟

فلا ترميني بأي نظرة.

وإذا بهذا المخلوق المنطوي على نفسه يسحب مبولة ممّا يبدو أنه ثقب لا بأس بحجمه في الفراش بين رجليّ، ويستنبط محتواه السائل قبل أن يعاجلني بابتسامة صغيرة مجنّحة وسط الرطوبة.

قالت مبتسمة: أنا ألفين يا فريتز. هل تعرفني؟

فرددت عليها بتباطؤ جليّ وأنا أتفحّص معالمها، بالطبع أعرفك. لقد كنت معنا... كنت مع العائلة... منذ أن كنت فيتوريو.

فيتوريو؟

فيتوريو إيمانويل. نعم، بطبيعة الحال.

أخذت تخفض المبولة.

وتسأل، هل هذا يعني أنهم عادوا؟

قليلًا.

وماذا قالوا لك؟

آه... حسنًا. كما تعلمين. بعضًا من هذا وذاك.

شرعت تسرح بنظرها في النافذة القاسية والباب القاسي.

عندئذٍ أطرقت قائلًا: أعلم، أنا آسف.

فاستدارت قائلة: اسمعني. أنت فريتز عند هذه الظهيرة، فريتز. كنت فريتز البارحة بعد الظهر. وماذا عن غد بعد الظهر؟ الغد بعد الظهر ستكون فريتز أيضًا. أجائع أنت؟ ستمرّ أختك وقد أحضرت معها زوّارًا. عليك أن تأكل. هل أحضر لك الحساء؟ الحساء وشريحة من الخبز؟ لقد أعددت بعض الخبز الطازج.

أتأمّل السؤال وقد خطر في بالي أن ثمّة امرأة واقفة في الغرفة.

أستميحك عذرًا، لكنك قلت إنّ اسمك هو...

ألفين، فريتز. ألفين.

هل تودّين أن أبوح لك بسرّ يا ألفين - فريتز - ألفين؟

إن لم تأكل هل تعلم ما ستقوم به أختك؟

أشيح بنظري إلى السقف.

ستتّهم ألفين بأنها لا تطعم أخاها فريتز. هل تريد أن تقحم ألفين في المتاعب؟

أحدّق بالسقف مجددًا ثم أخفض ناظريّ إلى ذاك الشخص الذي يبدو لي، لسبب ما، مصدر ثقة.

أهمس لها قائلًا:

كلّ جملة قبلة بحدّ ذاتها.

ماذا؟

فأكرّر بصوت أعلى، كلّ جملة قبلة بحدّ ذاتها، وكلّ مقطع مشروع احتضان.

تقف هناك تشاهد العرض المدعوّ فريدريك، ثم ترفع المبولة كأنما طبق الأحد على صينية التقديم، وتستدير متّجهة بعناية نحو الباب، كي لا تسقط قطرة واحدة.

تناديني: فريتز، ما نحن فاعلين بك؟

سؤال وجيه.

يفتح الباب. يتوقّف الكون في استراحة. ثم يغلق الباب بإحكام.

الريح تعصف أينما كان فترتقي إدراكًا.

الضجيج أينما كان بلا نهاية.

ذيل

ثم تجد نفسك على ظهر المركب تصارع كي تبقى عائمًا. كنت تقف في قاربك تتأرجح بحذر محاولًا أن تستعيد بوصلتك. مجذافك عصًا ثم رجلاك تنطلقان من تحتك والآن يذوب قاربك في الضباب. في حين أن المساء يلوّث الرطوبة، ولا بدّ للمجذاف من أن يكون قد أصابك إذ ضربتك صاعقة على قصبة أنفك. يتجمّع الصقيع على أنسجة قلبك وقد ضربتك صاعقة على قصبة أنفك، وتحاول أنت أن تمدّ حذاءك الأيسر كي تتلمسّ القعر لكن لا شيء تحتك، لا شيء من أي اتجاه كان، فتطيح بك تلك الخاطرة إلى ما دون الأمواج في مدّ وجزر من الرعب المتكرّر كأنّك بالون بشريّ عائم يختنق بمخاطه والدماء تتدفّق عبر شاربيك. تنحني كي تحلّ وثاق حذائك وتتخلّص من ثقله، لكنك تدرك بذعر أنّك عاجز عن الشعور بيديك، وكأنما قدماك قضيبان مزرقّان يترنّحان ألمًا. ما قد يكون أصابعك يلامس ما قد يكون شريط حذائك، وحدها مفاصلك لا تلتوي، وثمة مياه عذبة في فمك صعودًا إلى سيلان أنفك، وتفكّر: ما لا يقتلني يجعلني أكثر غربة. لقد مارست السباحة وأنت صغير في مدرسة بفورتا، وكان عدد كبير من التلامذة يفوقونك اجتهادًا، فانكببت على القراءة حتى أعشى بصرك ليلًا محاولًا أن تعوّض عن تقصيرك في السباحة، وأخذت تسبح وتتزلّج مع الصبية الآخرين مستمتعًا بتلك

السباحة التي جعلت منك بَطريقًا يجنح سريعًا نحو البحيرة. كانوا يوقظونك عند الرابعة فجر كل صباح ما خلا يوم الأحد كي تستعدّ للصفّ بحلول الساعة السادسة، ثم تحظى بفترة استراحة عند الرابعة عصرًا قبل أن يحين موعد العشاء، يليه المزيد من الصفوف إلى لحظة الخلود إلى النوم عند التاسعة مساء، وإذا ما حالفك الحظ فلربّما تحظى بساعة واحدة لنفسك في اليوم. عندما كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرك اشتعلت النيران للمرة الأولى في رأسك، وقد استعرت النيران نتيجة مياه البحيرة، وها أنت تفقد إحساسك في حين تتصلّب عضلاتك بسرعة فائقة. كنت لتدفع بالمركب لو أدركت أيّ اتجاه تسلك، لكن المجذاف قضى على نظّارتيك، والضباب يغشى المحيط وأنت تنزلق للمرة الثانية تحت الأمواج. قد تنال منك المفاجأة حتى تنتفض تلقائيًا وتثب خارج المياه وأنت تختنق وتتخبّط، وتنزف مفكّرًا أن السعادة ظاهرة معقّدة، إذ لا مكان تذهب إليه، ولا شيء تقوم به باستثناء ما أنت فاعله. لا مكان تذهب إليه ولا شيء تقوم به، وقد تحسب أنّك كنت هنا على الأرجح في السابق، وستكون على الأرجح هنا مجددًا، إذ إن اللامتناهي حافل بالعديد من الأمور وبالعديد من العوالم حتى تشرع تكرّر نفسها، فالترجيحات كلّها تشير إلى أنك قد مررت من هنا من قبل وقد غرقت في بعض الأرجحيات وأنقذت نفسك في بعضها الآخر. وقد يحصل أنك لم تستأجر القارب البتّة لكنّك جلست في ظلّ شجرة وارفة على مقعد في ميناء تريبسين، وأكلت كيس الشوكولاته المحشوّ بعجينة المرصبان، ولهذا السبب داروين قرد يفكّر. فالتطوّر لا يأخذنا إلى أي مكان لأن التقدّم حلقة، وقد كانت لنا ذيول وستنبت لنا ذيول مرّة أخرى، وجلّ ما نستطيع فعله هو ابتلاعها. لو تعيّن عليك حلّ المسألة التالية: ثلاثة آلاف ضرب أربعة آلاف وعشرة، فهل تملك ما يكفي من الشجاعة

وأيّ نوع من الشجاعة هو المثال الذي يحتذى لو اضطررت مرّة واحدة أن تمرّ بذلك، وأن تعي وسط هذه الفكرة أن قاربك يتهادى بلا عجلة خارج الضباب إلى الملأ، فتنظر شزرًا غير قادر على أن تستوعب حظّك السعيد، لأنّ ذاك الشيء لم يعد يبعد عنك أكثر من مترين وهو لم يتلاشَ، وجلّ ما عليك فعله هو السباحة وانتشال نفسك. وهكذا تصوغ المسألة الراهنة روايتها، وهذه هي الأطر التي ستتّخذها باستثناء. باستثناء. باستثناء أن المسألة الراهنة لن تصوغ روايتها على هذا النحو، لأنه عندما تحاول رفع ذراعيك كي تسبح لن ترتفع، وعندما تسعى إلى الدفع بنفسك قدمًا ستنزلق إلى ما دون الأمواج وقد هالك الصقيع. الاستنشاق الأول يطرق طرقًا على رئتيك فتشعر وكأنك عائم فوق نفسك وجسدك يتداعى ثم تبتسم. نعم، بينما تبدأ بالغوص نزولًا تحاول أن تبتسم، تحاول أن تبتسم وتفشل بطبيعة الحال.

موسيقى بلا مستقبل

رأسي مسكون بفريدريك، فريدريك الذي لم يخبر أحدًا، بل خرج من منزل أمه الكائن عند الرقم 18 فاينغارتن وتوقّف عند العتبة.

طلبَتْ منه أن ينتظرها لترافقه إلى السوق.

إنها مدينة ناومبورغ[1]. إنه العام 1890. ذهب بيسمارك، وزنجبار ذاهبة، ووجهة القيصر الجديدة هي اللاوجهة.

ومع ذلك، فالشهر مايو وسيكون اليوم يومًا مثاليًا لا تشوبه شائبة. لا شكّ في ذلك.

يقصّ فريدريك هذه الوقائع ويضيف إليها صفاء الصباح بصوت عالٍ، وذلك لمصلحته الشخصيّة. فهذا يساعده على ترتيب التفافات الأمور.

كيف أمكن لزرقة سماء الصباح الصافية أن تصطبغ تلألؤًا ذهبيًا فوق المنازل العاجيّة وفوق أسقفها القرميديّة. كيف لهذا البرد أن يَعِد بشمس مشرقة لحظة يخرج من الظلّ، وكيف يبدو أن كلّ شيء في حيوات

(1) نامبورغ: مدينة في مقاطعة بورغنلاندكريس، ولاية ساكسوني - آنهلت، أمضى فيها نيتشه معظم طفولته.

هؤلاء الناس الذين يؤدّون شعائر الصباح في الشارع أمام ناظريه قد استعاد مجدّدًا الحياة.

يأخذ فريدريك نفسًا عميقًا.

نسيم أخضر. جلد حصان. آخر جمرات هذا الموسم.

هذا ما تبدو عليه رائحة الزمان.

في الجهة المقابلة، تطلّ صبيّة بشعرها الداكن الذي تشدّه إلى وراء رأسها من نافذة الطابق الثاني لتثبت إناء زرعت فيها حديثًا وردًا، فتعيد إلى ذاكرة فريدريك شخصًا عرفه في ما مضى ليصبح على يقين أن الأمور ستكون سهلة اليوم.

سينجح كل شيء.

يا له من إبهار بسيط أن تقف هنا على شفير يوم كهذا.

يتلفّظ بالكلمات المكتومة تحت نفَسه، قائلًا في قرارة ذاته إن لا شكّ في أن أهم ما في الأمر أن تكون المسألة الراهنة صحيحة.

يكاد نقاء مهمّته المذهل يجتاحه.

رأسه مسكون بفريدريك، طافح به، لتغدو الجدوى من العيش في اكتشاف كيفية التعبير عن هذا الامتلاء بأساليب مفاجئة. هو متيّم برفقة نفسه لأنه لم يحدث له أن التقى بما هو أفضل منها. وبطبيعة الحال، لن يفصح عن مثل هذه الفكرة لأيّ شخص آخر، مهما كانت الأسباب، (باستثناء، وهذا من نافل القول، في كتاباته التي لا يقرأها إنسان) مخافة أن يجرح شعورهم، لكنّ الحقيقة أن الآخرين يشعرونه بالوحدة القاهرة.

يجعلونه محرَجًا في مواجهة إحراجهم الفكريّ. فعقولهم لا ترقص. بل تتصلّب. وآراؤهم العامة انعكاس لكسلهم الخاص.

كلّا: هو يفضّل أن يتكلّم مع معادله.

يعشق ذلك التشويق الذي يعتريه وهو يتجوّل في شوارع بلدة كبيرة، أو أفضل من ذلك بينما يتمشى في أرجاء الريف المعشوشب، تطالعه أطياف الأشجار التي تداعب قمم التلال، فيناقش نفسه ويناقض نفسه، ويحاول أن يقبض على نفسه بالجرم المشهود، فيضحك على ما يتراءى له من مخيّلته بلا أي سابق إنذار.

وبعد. ما الذي سيفكّر به تاليًا؟

لا يسعه الانتظار لاكتشاف ذلك.

ضلّ في إحدى المرّات سبيله بينما كان يقوم بنزهة في الجبال المحيطة بسيلز - ماريا، لأنّه كان مأخوذًا بعمق في حديث أنيق مع نفسه، ففاته أن يتنبّه للنقاط المرجعيّة. وعندما أرخى الليل سدوله ولمّا يعد بعد، قامت أخته التي كانت تزوره في تلك الفترة بالاتّصال بالسلطات. فوصلت الشرطة سريعًا وطلبت منها وصفًا للرجل الذي يفترض بهم أن يجروا بحثًا عنه.

أخبرتهم ليزبيث قائلة، لو كان واعيًا لتكلّم.

يا له من شريط جميل لمثل هذا اليوم الجميل.

يبحث في الجيب الداخلي من سترة بزّته الرماديّة الداكنة، فيخرج دفتر الملاحظات الصغير وقلم الرصاص القصير الذي لا يفارقه.

يتردّد.

ينظر إلى الأعلى.

يسوّي نظّارتيه بإبهامه.

ها هو يضع أقوى نظارتين لديه، زوج العدسات المحرّفة، ومع ذلك، يدركه الوجود عبر حمّام من البخار.

التلألؤ الذهبي المحيط يغمر زرقة السماء البيضاء فوق المنازل وفوق أسطحها الطينيّة القرميديّة، لتنتقل إلى تلألؤ فضّي محيط، فيضحى مع كلّ دقيقة لونًا جديدًا.

يدوّن بخطّ أفقيّ صغير لكأنّه خربشة عربيّة، لقد أصبت في الخريف المنصرم بشيء من العمى عندما شهدت مرّتين جنازتي الشخصية.

يتأمّل السطر، ويشعر بالرضى، فيغلق الدفتر ويردّه إلى مكانه مع القلم.

أحيانًا يشعر فريدريك بالحرج أمام كمّ الفرح الذي قد يملأ صدر فريدريك.

لم يخبر فريدريك أحدًا، لا بل نسي بالتحديد لماذا هو واقف ينتظر هنا واليوم المجيد يومئ له برأسه، فدفع الباب الأماميّ الثقيل برفق مغلقًا إيّاه، وألقى نظرة خاطفة على جدار القرون الوسطى الذي يشرف عليه منزل أمّه، وسوّى معطفه الخفيف ثم انطلق إلى ذاك الاحتمال البرّاق الذي يسمّى المستقبل.

خطا خطواته داخل الحارة، واضعًا يديه حول رأسه كما الطيور البيض الرقيقة، بما يساعده أن يشرح لنفسه ما الذي يفكّر به الآن، بِمَ يفكّر الآن، ماذا الآن؟

إنه تلك السعادة، ذلك الانبهار البسيط الذي أحسّ به قبل ثمانية أعوام تقريبًا في ما بعد ظهر أحد الأيّام في روما.

كان ذلك في وقت متأخر من شهر أبريل عام 1882. كان فريدريك يقوم بزيارة لعمّته المشاكسة القصيرة الطول، البدينة المظهر مالفيدا فون مايسينباغ، تلك الرحّالة صاحبة الفكر الحر والناطقة بلسان ألمانيّ. أخذ يتجوّل في غرفة المعيشة بعد نزهة طويلة قام بها في شوارع المدينة القذرة، إلى أن وقع على شابّة جميلة تشدّ شعرها الداكن إلى الوراء وتقرأ أحد كتبه على الأريكة.

تمكّن فريدريك من قراءة الغلاف من حيث كان واقفًا: إنسان، مفرط في إنسانيّته.

لقد كتب جزءًا كبيرًا منه بينما كان يقضي فصل الشتاء في فيلّا ملفيدا على الساحل بالقرب من سورنتو قبل بضعة أعوام. قطن هناك في غرفة فسيحة وعالية تطلّ على شرفة خارجيّة، فيتلاشى كلّ ما يصرف انتباهه عن عمله، باستثناء تلك الحدائق المنتشرة في كل حدب وصوب، وجلسات الشاي الفاخرة بعد الظهر مع الضيوف الآخرين، والمشهديّة الرائعة التي تفتح على البحر في نابولي وعلى جبل فيزوف الذي يشهق بمنحدره عن بعد.

قدّم إلى ملفيدا نسخة من الكتاب لدى طباعته كعربون شكر. لكن يبدو أن الكتاب قد لحقها إلى الشمال.

لطالما خبر فريدريك نوعًا من الصدمة لدى رؤيته أحدهم يقرأ ما كتبه. فكتبه موجودة له، وهي متجذّرة في عمق أعماقه. هي نفحة من التعدّي ممزوجة بطفرة من الافتتان تعتريه كلّما حمل أحدهم قطعة منه بين يديه. فكما لو كانت تحمل رئتيه.

ومع ذلك، ارتقت روحه فنظرت المرأة على الأريكة إلى الأعلى ولمعت عيناها لدى تعرّفها إليه.

أدخلت شرّابة حريريّة (بعد منتصف الكتاب)، وأغلقت الكتاب ثم قالت بلكنة روسيّة شفّافة من دون أن تتحرّك من مقعدها.

سيّد نيتشه. إنه لمن بالغ سروري أن أتعرّف إليك وإلى إرادتك للقوة.

كان في الثامنة والثلاثين من عمره وكانت في الحادية والعشرين. ومع ذلك، خانته لغته، فتركته بلا أيّ سلاح، يخدش وجنته.

لم يكن ضليعًا في مواقف تتطلب منه التحرّك. فالتفكير وهو واقف على قدميه يريعه.

وأردفت قائلة، هل صحيح إذًا أنه حتّى أعمالنا ومشاعرنا التي لا ترتبط على نحو جليّ برغبة بالسيطرة، هي مع ذلك مدفوعة بتلك الرغبة؟ لم يسبق أن تأمّلت تسامح المسيح وصبره من هذا المنطلق. فأنا وبعض رجال الدين والعالم نقف مستنيرين.

أخذ فريدريك يستمتع كيف أنها اتّخذت قرارًا واعيًا بعدم التحرّك عن أريكتها لدى دخوله. وأخذ يستمتع بفستانها الأسود النحيل الخصر ويتأمل الشرائط البيض الأنيقة التي تتدلّى من كمّيه ويعجب بياقته العالية. والأهمّ من ذلك كلّه، أخذ يستمتع بالطريقة التي انتشر فيها شعرها الداكن الذي شدّته إلى الوراء، وفاض سحر بشرتها الشاحبة، وانتشر ذكاؤها الحاد في أرجاء الغرفة كشحنة كهرباء متفجّرة.

في تلك اللحظة تحديدًا وهو يخربش ويستمتع، بات فريدريك على يقين أنه أصبح مجددًا على يقين من أمره.

لا سبيل له لغير ذلك. فذهنه كالفأرة الحائرة في متاهة. أعادت اللغة ترتيب رأسه لفظًا لفظًا.

جعل يده تستسلم فتقع إلى جنبه، وسعى إلى استواء ظهره في ما يوحي بالوقار.

ردّ قائلًا: برأيي إن هذا ما دفعني في المقام الأوّل إلى كتابة ما كتبت.

وبينما قال ما قاله راضيًا قنوعًا، ظهرت امرأة طاعنة في السنّ لم تكن إلا لتذكّره بممحاة اللوح الأسود مع قبّعة الريش التي تعلو رأسها فوقفت عند مدخل الباب وشرعت تزن أهمّية هذا الجوار وأهمّية الشخصين المتواجدين فيه.

كانت تحدّق بإمعان حتى بدا لفريدريك أنها مسحت بناظريها كلّ تفصيل، إلّا ربما تمثال شيفا العاجي الصغير القابع على رفّ المدفأة المحموم.

بادرت المرأة الشابّة الجالسة على الأريكة إلى القول وقد استدارت نصف استدارة وأشارت براحة يدها باتّجاه المرأة الطاعنة في السنّ من دون أن تلتقي العينان. وقالت:

حسنًا، هذه أمي، السيّدة سالومي.

اتّشح صوتها ببعض التعب، كما لو أنّها تلفّظت بهذه الكلمات في الآونة الأخيرة مرّات متكرّرة تتخطّى رغبتها بذلك.

فعاجلتها الممحاة من دون أيّ نبرة تُذكر:

وهذه ابنتي التي أخالها لم تسنح لها الفرصة للتراجع عن التعبير عن آرائها والتعريف بنفسها. الآنسة سالومي. لويز.

حاولت أن أردف قائلًا:

أنا... فريدريك،

لكن بدا أن الممحاة لم تنتهِ بعد.

... مع أنه يبدو أن الجميع لا يتوانون عن تسميتها بكلّ حريّة لو، وأنا صراحة لا أفهم سبب ذلك. أستاذ نيتشه، إنّ لقاءك لشرف عظيم. لقد تكلّمت مالفيدا بما يعادل مجلّدات من الإطراء عنك. لويز تعالي. لقد تأخّرنا على لقائنا مع بعض الآثار. يا إلهي، لم يسبق لي أن رأيت في حياتي صخورًا تتهاوى أكثر من تلك التي رأيتها في رحلتنا هذه. وأفترض أن هذا ما يشير إليه الإيطاليّون بـ«الثقافة»؟ حسنًا إذا. حسنًا. فلنقتلع أحجارنا...

وجاء إعلان فريدريك ويداه ترفرفان على مقربة من أذنيه: إنه لصبيانيّ.

إنّه لصبيانيّ، وإنّه لساذج ويفتقد للحكمة، ومع ذلك إنّها الحقيقة. لقد أحبّ لو من النظرة الأولى، وتشرّب قلبه حبّها.

انعطف باتّجاه ممرّ مرصوف بالحصى تصطفّ على جانبيه المحلّات الملوّنة أمامه، وترتفع قبّة سان ڤينزل الغوطيّة حاجبة الرؤية. يتنحّى المشاة بعيدًا عن مساره. يدّعون أنّهم لا يسمعونه، ولا يستطيعون رؤيته، لكنّه يشعر بأنهم يقتربون أكثر من واجهات المحلات بحضوره.

فريدريك مسرور.

لقد حان وقت أن يبدأ من حوله يلاحظون وجوده.

لطالما تفاجأ لسنوات عدة، كم هو قليل عدد الذين يلاحظونه. إنّها

لضربة متواصلة يسدّدونها لكيانه. كيف أن أحدًا في أوروبا، في سائر أنحاء أوروبا، لا يفكّر به في أيّ لحظة كانت وفي أيّ يوم كان. كيف يمكن لمثل هذا الأمر أن يمرّ مرور الكرام؟

فلنسلّم جدلًا: اعتادت حفنة من الأصدقاء على قراءة كتبه بلهفة وإعجاب. كانوا يراسلونه ويخبرونه بذلك. ويتجادلون عبر البريد وفي الصحف فتكتسب الجدالات لذّة مضاعفة. ثم بدأوا يتلاشون، الواحد تلو الآخر. وتحوّلت رسائلهم إلى رسائل فارغة، مبجِّلة، متصدِّقة ونائية - أقلّ من لوائح التسوّق الخاصّة بأنشطة مضنية ومشاعر سطحيّة مغلّفة بنثر أرعن - إلى أن توقّفت كلّها.

لقد اعتاد لأكثر من عقد من الزمن حتى الآن أن يصدر بما معدّله كتابًا كلّ عام، وفي الآونة الأخيرة بات يقوم بذلك على نفقته الخاصة. لم يتمّ بيع أكثر من ستّين أو سبعين نسخة من كلّ جزء من أجزاء زرادشت الثلاثة الأولى. وهو لا يسعه أن يتحمّل تكلفة طباعة أكثر من أربعين نسخة من الجزء الرابع. وقد انتهى به الأمر إلى تقديم سبع نسخ هدايا، لمجرّد أن يتأكّد من أن أحدهم سيلقي بنظرة على كتابه، ومع ذلك، هو لا يملك أيّ دليل على ذلك.

معًا، لا أحد تقريبًا يهتم، إلّا إذا كان أحد النقّاد الأغبياء الذي يستعدّ لإطلاق هجومه الغبيّ، أو صديق عرضيّ يتفوّه بالسوء عنه ومن وراء ظهره أمام بعض أنصار فاغنر.

أو أسوأ من ذلك، لا ناقد ولا صديق عرضيًّا ولا هجوم من أيّ نوع كان، بل مجرّد ركود وسكون غداة ظهور عمل جديد... وليس هناك ما هو أسوأ من الركود والسكون غداة ظهور عمل جديد.

يشعر بإيجابيّة، أو يكاد، يتذكّر ليزبيث، أو ربما أوفربيك أو بيركهارت

- شخص قريب منه، وفي كلّ الأحوال، نعم هو واثق من ذلك - يراسله ليخبره أنّ ناقدًا قدّم سلسلة محاضرات تختصر فلسفته في مكان ما في الشمال قبل سنتين أو ثلاث.

ثانية واحدة.

ثانية واحدة.

نعم إنه جورج براندز: ذلك الدانماركيّ الرائع بعقله النيّر في جامعة كوبنهاغن.

ما يعني... ماذا؟

السماء الصافية لا تترك مجالاً لأيّ سؤال.

عندما يمشي في الشارع، يتنبّه له المشاة. عندما يدخل أحد هذه المحلات، يتغيّر كلّ وجه. تحدّق به النساء بينما يختبر نضارة الخضار، وهو على يقين من أن أولئك الشابات المثيرات في السوق يحتفظن بأفضل عناقيد العنب له.

أحيانًا، كنّ يخفّضن أسعار السمك على شرفه.

في تلك الأمسية، في المدينة الأثريّة، وصل إلى العشاء عند ملفيدا قبل خمس عشرة دقيقة، مرتديًا أفضل بزّة لديه.

في الواقع، هي البزّة نفسها التي ارتداها صباحًا: بنيّة داكنة سترتها ملائمة، وساعة جيب ذهبيّة، وقميص ليلكيّ اللون وربطة عنق عريضة مطبّعة بالنرجس الأصفر حتى ليكاد يسمع المرء طنين النحل من نافذة نهار صيفيّ إذا ما أقبل عليه بسمعه.

ترك فريدريك قبّعته الداكنة في غرفته، حيث قضى قرابة الساعة

يشذّب شاربيه، بينما تتسلّل من وراء حاجبيه رؤية مريعة تتمثّل في أن يتشابك فيهما شيء ما (وغالب الظن وأكثره روعاً حساء بالجبن وصلصات مرقّطة) بينما يتناول العشاء. لذا يضطرّ سائر المدعوّين إلى تأمّله وهو يعالج أموره الهضميّة، وبقايا الأكل تتدلى منه، لساعات وساعات. الصورة لا تُحتمل.

وقف بكلّ صبر وراء كرسيّه، ينتظر في غرفة الطعام الفارغة، يساوره القلق، فيرفع أصابعه ليتأكّد من وضعيّة شاربيه الراهنة ثم يخفّضها ويرفعها مجدّدًا ليتأكّد تأكدًا مطلقاً أنه لم يفته عرضيًّا أيّ أمر، وأن انتظام سبلاته يسلك اتجاهًا أفقيًا أمثل.

لقد أبكر فريدريك في المجيء لأن لا طاقة له على احتمال التأخّر.

ففعل التأخّر يعني أحد الموقفين الفلسفيّين الواهيَيْن: إمّا إيمان بغياب مطلق للإرادة الحرّة، وإمّا السيطرة المحسوبة التي يمارسها إنسان على آخر من دون أي سبب يذكر. فحسب المتأخّر أن يدّعي بتصرّفاته أو تصرّفاتها: وقتي أهمّ من وقتك. ولا شكّ أنك ستنتظرني.

وهكذا، يغدو التبكير ضربًا من ضروب الاحترام، ونوعًا من أنواع المساواة الزمنية، مما حمل فريدريك على الانتظار خلف كرسيّه، بلا أي أفكار تراوده، ليقف بثبات الحارس لدى انتصابه عند بوابة قصر.

كانت مالفيدا[1] وخادمتها أول من كسر الصمت المخيّم على القاعة. وإذ انطلقت الأولى في ضوضاء من العناق والقبلات الهوائيّة، التزمت

---

(1) مالفيدا: 1816 - 1903 كاتبة ألمانية من أهم أعمالها (مذكرات شخص مثالي) نشرت المجلد الأول منها عام 1869 تحت اسم مستعار، كانت صديقة لنيتشه وفاغنر، كما التقت بالمؤلف الفرنسي رومان رولاند في روما.

الثانية بمظهر من الكآبة والمواساة. لحق بهما زوج بولنديّ عجوز مريع، وقد أوحيا لفريدريك بمدرّعتَيْن حسنتَي الهندام تسيران على رجليهما الخلفيّتين، وتلقيان لبعضهما البعض أبياتاً من قصائد هولدرلين الغاضبة الحزينة بأصواتهما المسرحيّة الجهورة، ثم تغنّيان بكل ثقة في مسعى لإبهار من حولهما بثقافتهما الفذّة.

خالهما فريدريك في البداية فرنسيّين. لا بدّ أنهما فرنسيّان. ثم ارتأى أنهما صقلّيان.

صقلّيان أو ربما إسبانيان.

لكن لا: كانا بولنديّيْن.

أخيرًا، تجلّت لو وأمّها. يرافقهما، على نحو مفاجئ، صديق فريدريك المقرّب بول راي[1]، الذي قضى فريدريك معه فبراير ومارس الماضيين في جنوى. تميّز راي بأنفه العريض وفمه الصغير، وقد ارتدى بزة سوداء اللون وعقد ربطة عنقه.

لطالما اعتبره فريدريك الرائد في المقاربة النفسيّة لمشكلات الفلسفة. أمّا راي الذي يصغره بخمسة أعوام، فيصرّ على أنّ الدين هو لا شيء، ما خلا تشكيلة من الحكايات المملّة وقصص الأشباح الواهية، إضافة إلى الأخلاقيات وسلسلة العادات السيّئة. وقد كتب «أصل الأحاسيس الأخلاقية» في سورنتو في الوقت نفسه الذي كان فريدريك منكبًّا فيه على كتابة إنسان مفرط في إنسانيته، وحريّ القول إن ما جعل كتاب

(1) بول لودفينغ كارل هينريتش راي: 1849 - 1901 مؤلف وفيلسوف ألماني، كان صديقًا لنيتشه الذي انتقد في مقدمة كتابه (جينالوجيا الأخلاق) كتاب راي (أصول المشاعر الأخلاقية). وقد انهارت صداقة راي ونيتشه بسبب تعقيدات علاقتهما مع لو سالوميه.

فريدريك ممكنًا مخطوطة راي الجريئة ومحادثاتهما الطويلة الممتعة حول فنجان شاي على الشرفة.

استقرّ راي على مقعده وسط المناديل المنفوشة وتنحنح شارحًا كيف استسلم للسكون وتركه يجوب به جنوبًا من بلدة إيطاليّة جميلة إلى أخرى تفوقها جمالًا. إلى أن وجد نفسه هنا قبل أسبوع، حيث حالفه الحظ والتقى أفراد عائلة سالومي، الذين قرر أن يشاركهم معًا عملية استكشاف مختلف المواقع المحلّية حتى يأذن فصل الربيع بقدومه. ومع هذه الرواية، كان دور والدة لُو[1] التي اختارت أن تقصّ، لدى تناول المقبّلات، التفاصيل المملّة للركام الذي زاروه حتى الآن. فأخذت تسرد، من حجارة وحجارة وحجارة إلى معبد وكاتدرائية ثم قبّة. ومع أنّها سارعت إلى الاعتراف بأنّها ليست بالخبيرة العظيمة والضليعة بالموضوع، إلا أنها لم تقوَ، بكلّ بساطة وفي كل ساعة تقريبًا، إلّا على التعبير عن صدق افتتانها بحضارة لم يخالطها أي تواضع في أن تثبت وتعيد، في كل لحظة، أن أكثر أيّامها خصوبة على المستوى الثقافيّ والسياسيّ والفنيّ يعود إلى نحو ألفي سنة خلت. فهل من معين يعاونها؟

يبدو أن لا معين: وتوقّفت عقارب الساعة عند الطاولة، يخترقها بين الفينة والأخرى طرق الملاعق على الأواني الصينيّة، والزوج البولنديّ المِقدام الذي يبدو أنه نسي أنّه يتناول العشاء مع آخرين.

---

(1) لو سالوميه 1861 – 1937: كاتبة ومحللة نفسية ذات أصول روسية وألمانية، اشتهرت من خلال علاقاتها مع أبرز كتاب ومفكري عصرها مثل نيتشه وفرويد وريلكه وراي. تميزت بشخصيتها الحيوية وثقافتها الرفيعة. ومن المعروف أن نيتشه أحبها وحاول الزواج منها.

أخذت لُو تحدّق بحساء البصل الموضوع أمامها، والأوتار في فكّيها تتلوّى.

رفع فريدريك ناظريه عن زبديّته وقد عمل على توجيه محتواها إلى فمه ببالغ دراية، باحثًا عن فرصة قد تسنح له. استجمع قواه، والتقط منديله المنشّى ماسحًا به شاربيه ثم سألها عن السبب الذي حملها مع أمّها إلى روما. سرحت عينا لو بعيدا عن فريدريك لتحطّا في زاوية نائية من الغرفة في محاولة لكسب لحظات تساعدها على لملمة بنات أفكارها. أخذ الخدم زبديّات الحساء وقدموا صحونًا ازدانت بشرائح رقيقة من لحم البقر المشوي النادر والبطاطس المهروسة واللوبياء المسلوقة.

افترّ ثغر لُو عن محاولة إجابة، لكنّ السيدة سالومي عاجلتها بالإجابة بدلًا عنها.

استفاضت في خطاب عن ولادة لُو في سان بطرسبرغ، من أب هو أحد الجنرالات الهوغونيتيّين[1] وكيف أنّ لُو أعلنت منذ سنتين بعبارات لا لبس فيها، وفي ما يعتبر مخالفة صريحة لرغبة أهلها، أنها تنوي الإمساك بزمام حياتها الخاصة.

لفظت السيدة سالومي الصفة والموصوف كما لو تحصرهما بين مزدوجين.

عقدت لُو العزم، وقرّرت أن تغادر روسيا لتلتحق بالجامعة في زوريخ، وهي بالكاد بلغت التاسعة عشرة من عمرها. لكنّ السيدة

---

(1) الهوغونيتيين: أعضاء كنيسة فرنسا الإصلاحية البروتستانتية، تأثروا بكتابات جون كالفن، كان عدد كبير منهم من المتعلمين والبرجوازيين وعملوا في إنشاء البنوك وتجارة الذهب.

سالومي أصرّت على مرافقتها. وفي أواخر العام الماضي، أثخن لو مرض أصاب رئتيها. فما كان من صديق لها إلا أن أرسل معها رسالة إلى ملفيدا، حيث سافرت إلى منزلها الذي يقع في روما كي تتعافى.

وصلت في شهر يناير.

ثلاثة أشهر، وظهر راي.

أمّا الآن، فكلّ ما في الأمر هذا الحمّام وهذه المقبرة وتلك القنطرة، وكلّ منها في مراحل مختلفة من التصدّع.

سعى فريدريك جاهدًا للتركيز على ما تقوله السيدة سالومي، لكنّ انتباهه لم ينفك يجنح باتجاه لو. وكلّما ازداد سكونها وهي تلتقط بكآبة الطعام من صحنها، ازداد ولهه بها.

أراد لو يقوم ويستدير حول الطاولة ويعانقها.

أراد لو أن يخرجها من هذا المنزل المتشنّج في هذه المدينة المتشنّجة ويأخذها شمالاً، إلى سويسرا، حيث يمكنهما استقبال الربيع معًا وسط البحيرات والجبال.

لكنه، عوضًا من ذلك، جلس بكلّ تهذيب مركّزًا على كيفيّة توجيه البطاطا أسفل شاربيه ومتحيّنًا فرصته.

لاحقًا، عندما انسحب الجميع للخلود إلى النوم، كتب جملة موجزة دسّها تحت باب غرفة لُو وفيها:

أي كواكب هي تلك التي جمعتنا معًا؟

أخذ يذرع غرفة نومه بخطاه ذهابًا وإيابًا حتى بدأ يساوره القلق من استيقاظ المنزل كلّه بسببه، ثم جلس وراء مكتبه أمام النافذة وشرع يتأمّل

الأنوار تذوي في الشارع واحدًا تلو الآخر مع انبلاج حمرة فجر يوم جديد.

إلى مائدة الفطور التي جمعت بين البيض المسلوق وشرائح اللحم المقدّد والخبز والمربى الانكليزي، اعتبر فريدريك غياب أيّ ردّ من لُو علامةً ميمونة: فعلى الرغم من فائض الحديث عن الاستقلاليّة، والفطنة الملموسة، إلا أنها كانت لا تزال على براءة وخفر.

تظاهرت باللامبالاة تجاهه، وحين خالته يشيح بنظره بعيدًا عنها، خطفت بضع نظرات باتجاهه.

كان فريدريك قد وقع قبل ستّ سنوات بغرام امرأة أخرى خجولة ومستقلّة تدعى ماتيلد، التقاها في منزل سائق من معارفه يدعى هيوغو فون سينغرفي جنيف.

كان ذاك في شهر أبريل أيضًا. وكما لُو، كانت ماتيلد[1] حادّة الذكاء ملفتة المظهر وهي في سنتها الحادية والعشرين. بعد خمسة أيّام على لقائهما، قضيا سهرة ممتعة معًا يتسامران فيها حول الشعر والموسيقى. وإذ شعر بعجزه عن إثارة موضوع الزواج وجهًا لوجه، عاد فريدريك إلى الفندق وأعدّ طلب زواج مقتضَب وواضح أرسله لها عبر البريد. لكنّ ماتيلد رفضت طلبه عبر البريد صبيحة اليوم التالي، وسرعان ما تزوجت سينغر.

بات فريدريك على قناعة بعد تلك الواقعة أنّ المشكلة في الرسالة.

لقد جاءت مغالية في برودتها العاطفية، مزايدة في بعدها الأكاديميّ.

(1) تقدَّم نيتشه بطلب الزواج منها في عام 1876 بعد فترة قصيرة من التعارف ولكنها رفضت طلبه على الفور.

وفي أوّل فرصة تتكرّر فيها مثل هذه الحالة، سيعمد إلى انتهاج نهج صريح مباشر.

بمعنى آخر، سيطلق العنان لروحه كي تتكلّم بكل حرّية.

انتظر بعد ظهر ذاك اليوم في روما حتى انسحبت السيدة والآنسة إلى غرفتيهما وقت القيلولة، ثم فاجأ راي في الردهة السفليّة بينما كان يهمّ بالخروج من المكتبة. بعد تجاذب أطراف كلام لا مناصّ منها، انتقل فريدريك إلى مرحلة تنفيذ استراتيجيّته. فسأل صديقه لو أنه يتفضّل ويتقدّم طالبًا يد لُو له حالما يجد راي الفرصة للقيام بذلك.

وأضاف فريدريك سائلًا: «هل يبدو هذا المساء ممكنًا؟

بدا صوت حذاؤه وكأنه صوت أعمال صنفرة وسط الساحة، فتوقّف ونزعه. كم توجد جلبة في هذا العالم. أطبق عينيه فأحسّ النظام الشمسيّ يغزل لولبًا من حوله. وعندما فتحهما، وجد نفسه واقفًا أمام مبنى البلديّة المزخرف. في الجهة المقابلة من الساحة إلى يساره، يقف تمثال للقدّيس ڤينزل يشرف على النافورة بقبّعته المصمّمة على شكل صَدَفة، ووراءه عند الطرف الشرقي، بوّابة البلدة التي تعود إلى العام 1680.

كيف وصل إلى هنا، في مجرى حياته هذا؟

بدا في لحظة من اللحظات كما لو أنّ ثمّة أماكن عدّة أخرى يمكنه الذهاب إليها.

تتهادى قلّة قليلة من الناس عبر الساحة أو تجلس حول الطاولات الخارجية تحت مظلّات حمر وبيض، تقرأ الصحف وترتشف قهوة الصّباح وتتناول المعجّنات.

طرفت عينا فريدريك فشرع يدفعهما نحو مزيد من التركيز، حتى بات

مدركًا لصداع يلمع في مكان ما وراء عينيه. بدا له فحمًا متوهجًا مائلًا إلى الزرقة.

أحسّ بربطة عنقه تخنقه. فأرخاها وأزاحها عن ياقته. خلع فريدريك سترته وتركها تهوي أمام قدميه، وفي حين أطرفت عيناه الحصان المسرَج المربوط لجامه بعربة خشبيّة قديمة والرابض أمام التمثال. عَجِبَ لخيوط الشمس التي تومض ألوانًا على جنبات الحصان الجرباء. ثم راح يسرح بنظره في الحمام الذي يرفرف حول المرأة المنحنية الملتحفة شالًا أسود، بينما تمدّ ذراعيها كفزّاعة حاملة فتات الخبز في راحة يديها. وشرع يعبق برائحة كعكة القرفة ومخلّفات الأحصنة التي تتناثر في الهواء، وأجراس الكنيسة تصدح فوق تلك المباني. فكيف لدفء هذا اليوم أن يجتاح ذاك الجسد؟

فكّ أزرار صداريّته وخلعها. ثم فكّ أزرار قميصه وخلعه. وعندما بلغ المشبك المعدنيّ في حزامه، بدأ يقدّر صفاء ناومبورغ وهدوءها، إحساسها بالغرض المخفيّ منها، كيف تبلغ ألمانيا الغاية منها في مواقع كتلك.

الكثير بالنسبة إليه يعتمد على السماء.

خلع سرواله وخلع جواربه ثم خلع ملابسه الداخليّة وراح يغتبط للرجلين بالبدلة اللذين يخطّان طريقهما نحوه من القهوة المقابلة للساحة، وأكواب القهوة في أيديهما.

وراءهما، يخال أمّه ملوّحة بيدها.

نعم، فرنشيسكا: إنها تهرول للّحاق به.

من أين أتت؟

نظر إلى الأمام باحثًا عن إجابة.

وبينما هو في وقفته تلك، بادرها بابتسامة حنونة، وشرع يمدّ ذراعيه العاريتين، مقلّدًا امرأة الحمام.

أطبق عينيه مجددًا وأحنى وجهه مستقبلًا الأشعة الساطعة.

حصر تركيزه في إغداق عشقه على كلّ كائن حيّ تناساه في تلك المساحة الخاصّة.

السادسة مساءً

عندما تتراجع العاصفة، أفتح عينيّ مرة أخرى... نعم... هكذا... لقد تغيّر الضوء.

الضوء الأبيض الساطع يحتوي الآن على آثار لون مشمشيّ.

لربّما هو الغد مرة أخرى، أو المزيد من اليوم، لكن في وقت متأخّر. أما أنا، فأتعرّق.

أتعرّق بغزارة، بينما أتمدّد تحت هذه الملاءات الحارّة في هذا اليوم الجديد، أو هذا اليوم القديم، أو تكملة اليوم نفسه، أتعرّق وأفكّر، أتعرّق وأسعى جاهدًا للتفكّر... إلّا إذا، من نافل القول إنّي بلّلت نفسي.

اشترت لي أمّي بيانو عندما كنت في السادسة من عمري، لكن لا أحد يقرأ لي.

أستلقي هنا، في كلّ مساء، بانتظار من يمنحني الإذن لأنام. تمتدّ الرطوبة إلى أسفل ظهري، وأردافي، ثم قفا فخذيَّ وساقيّ.

أودّ أن أشير إلى أنّ الانطباع العام هو انطباع دوار البحر.

استعدّ لمواجهة الظروف الصعبة فثبّتّ العارضة، وأمّن الشراع. صمّ أذنيك وأطلق عناني في الضباب.

وهكذا. هكذا.

هكذا: أؤلّف في رأسي فأتخطّى الخلود.

عزيزي المتألق

أرجو منك أن تأتي وتأخذني. لا أعلم أين أنا، لكن أرجوك أن تأتي وتأخذني. غدًا سيأتي ابني بترونيوس لزيارتي مع حبيبته أريادني[1] وعليّ أن أستقبلهما على سجيّتي. لكنّ الفكرة ترعبني. في غضون ذلك، يوشك الأطبّاء على صلبي مطوّلًا. عليك أن ترى ربطات عنقهم.

(1) Ariadne: في الأساطير اليونانية كانت ابنة مينوس ملك كريت ابن زيوس والملكة باسيفيه ابنة هيليوس، وهي شخصية مرتبطة عادة بالمتاهات في أساطير المينوتور وثيوس. جعلها أبوها مسؤولة عن المتاهات في المكان الذي يتم فيه أداء القرابين، وبحسب نسخة الأسطورة ساعدت أريادني ثيسوس الذي وقعت في حبه من النظرة الأولى لينتصر على المينوتور وينقذ ضحايا القربان المحتملين بأن أعطته سيفا وكرة من الخيطان لكي يقتل المينوتور ويخرج من المتاهة، وفي قصص أخرى أصبحت زوجة الإله ديونيسوس ومن غير المعروف في ما لو كانت شخصيتها فانية أو أنها من الآلهة حيث تختلف الإجابة وفقا للأسطورة. من ضمن آخر رسائل يمكن فهمها لنيتشه رسائله لكوزيما فاغنر (أرملة فاغنر) حيث كان نيتشه يسميها الأميرة أريادني، قال نيتشه إن مؤلف تلك الرسائل ليس إلا الإله ديونيسوس. وكان المؤلف كولر - وهو مؤلف سيرة نيتشه الكاملة - قد بدأ سيرة «نيتشه وفاغنر» بهذه الرسائل. وعندما بدأ نيتشه بالاقتراب من الجنون كتب كولر أنه أصبح يرى نفسه في ذوات متعددة مختلفة. وكما كان ديونيسيوس الذي كان مَثَل نيتشه الأعلى يستبدل شخصيته بشخصيات أخرى، كان نيتشه يرى نفسه أحيانا في شكسبير وأحيانا في يوليوس قيصر وفي ملك إيطاليا أحياناً، وفاغنر في أحيان أخرى حيث كان فاغنر هو العدو الأكبر الذي يسعى وراءه نيتشه.. كل هذه الرموز ظهرت كتجليات مختلفة للإله نفسه الذي عرف أنه توأمه.

لسنا ملزمين بأي واجبات مهنيّة جدّيّة، وهذا ما سينقذنا.

مع مودّتي،

عبدك المخلوق

ملاحظة: لا تنسَ السلك.

في مسرح أفكاري، أتفرّج على لُو وهي تقرأ ما كتَبْت. أتفرّج علينا نتجوّل في الشوارع الرومانية التي بالكاد تطأ الأنوار أبوابها بعد هبوط اللّيل، فنتكلّم عن إرادة القوّة. ثمّة لحظة متّقدة أتأمل فيها كيف أصل إليها وآخذ بيدها بين راحتيّ.

ويمضي الوقت.

عندما أفتح عينيّ من جديد، تعود المرأة المنطوية على نفسها، لكنّها تحمل بين يديها صينيّة تعلوها أشياء مريعة. وعاء من الحساء. شريحة خبز.

وغيرها من الأشياء.

تهمهم فتنبعث رائحة تجشّؤ ألماني سليم.

أنا مخطئ.

أنت مخطئة.

هي مخطئة.

فتردّ بأنّي المخطئ الوحيد.

تضع الصينيّة على الطاولة بجانب السرير، وتعبر الغرفة، ثم تعود حاملة كرسيّاً خشبيًا.

تلقي بثقلها عليه.

الأرداف مرتاحة في استقرارها.

أسألها: أين أخي؟

توفيّ جوزيف عندما كان في الثالثة من عمره يا فريتز، وأنت... أنت كنت في السادسة. في الخامسة أو السادسة من عمرك. كنت صبيًّا صغيرًا. هل تذكر؟

ترفع زبديّة الحساء وملعقتي المطليّة المفضّلة.

أخي الآخر... هو. الآخر. بيتر.

بيتر؟ بيتر... بيتر غاست؟ كان شابًّا لطيفًا لا يبدو عليه أنّه يهودي، أليس كذلك؟ كنتما تعزفان على البيانو معًا.

هل كنت تفكّر فيه لتوّك؟

وتغمس الملعقة في ما يشبه القشدة الخضراء.

ألن يقرأ لي أحد؟

نأكل أولًا، ثم ربّما نقرأ. لدينا زوّار هذا المساء. يعتقدون بأنك تفكّر بأمور عدة ممتعة.

تتقدّم الملعقة.

سترافقهم ليزبيث. كلّهم يريدون أن يروا ما يبدو عليه رجل عظيم. أليس ذلك سارًّا؟ لكن قبل أن نريهم، علينا أن نأكل ونغتسل. افتح فمك.

أخبرني واحدة من تلك الأفكار النيّرة.

تطرق الملعقة الأسنان التي أكشفها لها.

سأبدأ بالتظلّم، الوحش الأشقر في السرير الهزّاز.

فتنسحب الملعقة.

تنظر إليّ برفق، وتشرع بدراسة خياراتها.

فأستجمع قواي وأرميها بنظراتي مجدّدًا.

وأعيد الكرّة.

فتسألني: هل تريد أن تسبّب لألفين المشكلات؟ هل هذا ما تريده؟ سيكون حفلًا ضخمًا.

هل تريدني أن أقول لهم إن فريدريك نيتشه الشهير لا يريد أن يتناول حساءه؟

تغوص الملعقة مجدّدًا، ثم تعوم وتطفو باتّجاهي.

هنيهة من الزمن قبل أن تصبح على تماسّ مع أسناني مجدّدًا، تتّجه قدمًا بكلّ ثقة فتقرص خياشيمي.

سبق وعشنا تلك اللحظة.

وسنعيشها مرّة أخرى.

يتوقّف الكون من حولنا.

تنتظر. أنتظر. تنتظر. أنتظر.

تنتظر فترة أطول.

تدخل الملعقة وتخرج من غير أن أدري، وتصبح القشدة الخضراء في فمي وعلى ذقني قبل أن تلطّخ صدري.

توجّه ثلاث ضربات إضافيّة قبل أن أتمكّن من إدارة وجهي نحو الحائط.

هو الأمل يشقّ طريقه خطوة خطوة.

هو الأمل قادر على صنع المستحيل.

أسنان

ثم تطوف أرجاء مكتبة تبيع كتبًا مستعملة. تبلغ الحادية والعشرين من عمرك وتدرس فقه اللغة التاريخي والمقارن، وقد شققت طريقك خارج صقيع لايبزغ في ظهيرة يوم كئيب من أيام أكتوبر، ولا شكّ في أن هذا الكوكب يعجّ بالكتب. تلك التي يتعيّن عليك قراءتها لكنك لن تقوم بذلك قطّ. وتلك التي تعتقد بأنه لا بدّ من قراءتها لكنّك تكتشف في خضمّ قراءتها أنّك كنت على ضلال. وتلك التي تقرأها على خلاف حسن تقديرك، إنما رفاقك قد أوصوك بذلك، إلّا أنّ رفاقك هؤلاء لم يعودوا رفاقك، لكنّ المجاملة التي ترافقت والفعل الأساسيّ قد أضحت مع الأيام فعل استنزاف. تذكّرك الرائحة المربكة بالرطوبة وبِروتين المكتبات الفارغة في الأمسيات الشتويّة، عندما تكون الكائن الوحيد الذي يزورها فتقرأ لنفسك وأنت جالس إلى طاولة كبيرة، بينما الشخص القابع وراء مكتب الاستقبال يبذل قصارى جهده كي يبدو منهمكًا بمهمة ما. وأمّا الزبائن الآخرون، والطلاب المفلسون، والعوانس المصلحات، ومالك المتجر بسترته البنّيّة النتنة، فتشعر أنّ كلًا منهم يبحلق بك تتنقّل عبر الممرّات الخانقة محاولًا أن تُدخل بعض حرارة إلى يديك ومتسائلًا في سرّك ما إذا كنت هنا للتّسوّق، أو لسرقة أحد الكتب، أو لمجرّد استعراضها، أو للقاء أحدهم، أو لتكوين آراء محدّدة حولك استنادًا إلى

الممرّ الذي تتوقّف عنده، والكتاب الذي تختاره، والمدّة التي تستغرقها وأنت تتفحّصه قبل أن تعيده إلى رفّه. وتخالهم يجهدون لتحويلك إلى كتاب. فليذهبوا إلى الجحيم لأنّك راشد وقد أقلعت عن حضور قدّاس الفصح، وستبقى راسخاً في مكانك. تمدّ يدك وتسحب مجلّدًا من الرف أمامك عشوائيّاً ثم تشرع تقلّب صفحاته، فتتغيّر حياتك بلا سابق إنذار. تقف هنا، بين تلك المجلّدات وهؤلاء الناس فتصبح كائنًا لم تكنه عندما استيقظت هذا الصباح. جلّ ما طمحت إلى فعله هو النفاذ من صقيع لايبزغ، لكن إذ بك تقرأ «العالم إرادة وتمثّلاً» لشوبنهاور في مكتبة تبيع الكتب المستعملة. جمله ليست جافّة كجمل الفلاسفة الآخرين، كلّا إنما هي جمل مكتوبة بالبارود بدل الحبر. بل هي ليست جُملاً على الإطلاق، إذ إن لفظة (الجُمل) تفوق بنعومتها بأشواط ما هي عليه، هي أسنان. ويتحوّل تقليب الصفحات إلى اختبار صفحة هنا وصفحة هناك، قبل أن يتحوّل إلى قرار الشراء، فهرولة عند المساء إلى شقّتك الصغيرة فتسارع عقارب الساعة لتبلغ الثانية فجرًا فيصيبك وجع في الرأس ووجع في العينين لكنك لا تنفكّ تقرأ. هنا الذاكرة اللاإرادية لطالب سابق في كليّة الطب نام بعد أن وضع مسدّسًا محشوًّا تحت وسادته، مؤكّدًا أن الموت هو علاج للحياة، ومؤكّدًا أن لا بدّ لك من اليقظة في غياب اليقظة، ولا بدّ لك من القلق عند انعدام القلق فاشمئِزّ من بشرتك، وأحِط نفسك عوضًا عن ذلك بالبصيرة، دعِ البصيرة تستخدمك إذ هكذا تضحي قدّيسًا، أو شخصًا يعيش خارج الزمان وخارج المكان والحاجة. عش ما تعيشه حتى يأتيك الخلاص فينجّيك من الصخب الإرادي. هذه عصارة الرجل الذي لم تفارقه المرارة طيلة أيّامه، بل عاش خائب الأمل غير معروف حتى سنواته الثلاث الأخيرة، لأن السفسطائيين الهيغليين قد استنفدوا طاقة جيلهم على التفكير، منتهجين خطاباً وحشيًا غامضًا،

ثم نأوا به بعيدًا عن كيان الفلسفة. هذه عصارة الرجل الذي سأل ناشره بعد ستة عشر عامًا على نشر عمله: كم نسخة متبقّية من كتابه؟ فجاء الرد القليل منها. لم يكن الناشر بالمنافق لأن الأعداد متدنّية، لكن ليس لأن القرّاء قد اشتروها بل لأنّ الناشر باع الكمّية الأكبر من الطبعة كورق للنفايات. عش ما تعيشه حتى يأتيك الخلاص فينجّيك من الصخب الإرادي. هذا حصرًا ما تمكّن شوبنهاور من قوله مرارًا وتكرارًا آملًا أن ينجح أحدهم في سماعه يكلّم نفسه في فرانكفورت، وها أنت تستمع إليه في تلك الشقّة الصغيرة التي تصلها بعد صعودك سلالم قاتمة والفجر ينبلج خارج نافذتك، فتشرع تقدّر نُطَفًا من طبيعة الفكر. تشرع تقدّر أن أخطاء العظماء من الرجال جديرة بالاحترام والتقدير، لأنها أكثر إدراكاً من حقائق الصغار من الرجال، ولهذا لن تنفكّ تعشق شوبنهاور، ولهذا كلّما قرأته اختبرت قلبًا في خفقانه المحموم.

الحلم وسوء تفسيره

الغشاوة بيضاء تنساق سرابًا عبر أحلام فريدريك ليل نهار.

تتدفق أمواج ضبابيّة من الجبال العارية حول سيلز ماريا لتتفجّر عواصف في الوديان عبر بحيرة زوريخ وبحيرة كونستانس، فتتوجه شمالًا إلى ألمانيا عبر بافاريا لتكمل صعودًا باتجاه نهر إلم في فايمار، فتعبر السرداب الذي يسهر على رفات غوته[1] وشيللر[2]، لتجتاز الباب الأماميّ عند المبنى 18 - فاينغارتن، فتسافر صعودًا عبر السلالم، لتغوص عميقًا في رأس فريدريك.

تتكوّن من ذاك النوع من الضباب الذي ينضح نورًا يجتاح كل ما حوله

---

(1) يوهان فولفغانغ فون غوته 1749 - 1832 هو أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين، والذي ترك إرثاً أدبياً وثقافياً ضخماً للمكتبة الألمانية والعالمية، وكان له بالغ الأثر في الحياة الشعرية والأدبية والفلسفية، وما زال التاريخ الأدبي يتذكره بأعماله الخالدة، وقد تنوع أدب غوته ما بين الرواية والكتابة المسرحية والشعر وأبدع في كل منها، واهتم بالثقافة والأدب الشرقيّيْن واطلع على العديد من الكتب فكان واسع الأفق مقبلاً على العلم، متعمقاً في دراساته.

(2) يوهان كريستوف فريدريش فون شيللر: هو شاعر ومسرحي كلاسيكي وفيلسوف ومؤرخ ألماني ولد عام 1759 في مارباخ في ألمانيا وتوفي عام 1805 في مدينة فايمار وكان عمره 45 عاماً. يعتبر هو وغوته مؤسسي الحركة الكلاسيكية في الأدب الألماني، ويعتبر من الشخصيات الرئيسية في التاريخ الأدبي الألماني.

في أَلَقٍ ذهبيّ أبيض يدفع فريدريك خارج سريره في اندفاعةٍ واحدةٍ مرتبكة.

يستلقي على ظهره، في حالة تتأرجح ما بين اليقظة والنوم، وإذ به يقف عند النافذة، وقد أنهك الوهن عينيه واشتدّ الضباب تكتّلًا حتى لبات يعجز عن رؤية الجانب الآخر من الشارع. يحوم الكون من حوله في ضبابيّة متوهّجة. لا يسعه أن يتعرّف إلى البلدة التي هو فيها. لا يسعه أن يتذكّر في أيّ شهر هو. يودّ أن يقول إن اليوم هو الثلاثاء، لكنه غير متأكد من ذلك.

الثابت الوحيد الذي يدركه على وجه اليقين هو أن رداء المستشفى الرطب يتشبّث بأردافه الرطبة على نحو شنيع. يشدّه بعيدًا ثم يستدير باتجاه الغرفة. ما من قطعة أثاث في المكان الذي يُفترض بها أن تحتلّه. فالأريكة الهجينة التي تميل إلى أحمر مصفرّ تتربّع في وسط الغرفة، مع أنّه يذكر أنها كانت تستريح بالقرب من النافذة، أما الكرسيّ الخشب ذا الرسومات الزهريّة على مسند الظهر، فيقع إلى جانب السرير بدل أن يكون مقابل المكتب، في حين أنّ مكتبه الذي يجلس عليه للكتابة قد اختفى تماما.

يدلف فريدريك باتجاه الباب الذي سيقوده خارج هذه الفوضى وهو يخدش عصعوصه، ثم يخطو خطوة إلى الخارج، ليكتشف نفسه داخل خزانة ملابس.

يخطّط لبرهة من الزمن ثم يعود أدراجه ليجد نفسه يحدّق بسريره المجعّد. يجري بنظره مسحًا للمكان فيحدّد بابًا في الزاوية البعيدة من الغرفة، يرفع المزلاج ويخطو خارجًا ليجد نفسه واقفًا في بقعة تشرق إشراقًا.

لا يسعه أن يتذكّر البتّة أنه سبق ووقف ههنا.

ثمة طاولة صغيرة يعلوها إناء أزرق وأبيض وُضع على غطاء أزرق وأبيض، وقد امتلأ بأزهار زرق وبيض. يتدلّى صليب بنّي اللون داكن من الجدار الأبيض فوقها. بالقرب من الصليب مرآة.

أعمدة السلالم مريعة. فوقها مباشرة، في السقف المنخفض، سلّم قابل للسحب.

المرايا كثيرة كثيرة في العالم. أمّا فريدريك، فيرفض من حيث المبدأ استخدامها. فما يثير الريبة في حقيقتها أنها تعمد إلى مضاعفة أعداد البشر، كما فِعل الجُماع.

يرفع ناظريه إلى السلّم، وإلى يديه الشاحبتين الممدودتين نحو الحبل المعلّق بالسقيفة. ينخفض بسهولة العارف بمبدأ جاذبية نيوتن. يحدّق فريدريك بالمعيّن فوقه فيختبر إحساس الكون قد انقلب رأساً على عقب:

ها هو يحدّق في قبر مقلوب.

يخطر في باله أن يكون في واقع الأمر اليوم ثلاثاء.

في كل الأحوال، ليس هنالك ما يحول دون ذلك.

ويدرك فريدريك نيتشه أنه ليس متيّمًا على وجه التحديد بأيّام الثلاثاء.

عملية الصعود تتطلب جهدًا.

تحدث ركبتاه المتصلّبتان خشخشة رطبة.

يختلّ توازنه.

يبدو جسده وكأنّه يترنّح كثيرًا كثيرًا نحو اليمين، ثم كثيرًا كثيرًا نحو اليسار.

وترمش عيناه. يبدو مؤخرًا وكأنّ كلّ ما حوله يهيم في ضباب. ترمش عيناه بلا كلل في مسعى لاستيضاح ما يتجلّى له شريطًا مصوّرًا لزجًا حول الوجود.

لو ركّز بصره على رجل واحدة تترنّح ثم الثانية، وعلى يد واحدة ترتعش ثم الثانية، لكان اكتشف أن الأمور بدأت تحدث.

تنهار الأرضيّة تحت قدميه. ويزداد المعيّن الأسود اتّساعًا.

تتناهى إلى مسامعه همهمة يصدرها فيخلص إلى أنه لا بدّ وأنه سعيد.

النغمة مألوفة.

ثانية واحدة.

ثانية واحدة.

نعم: المقطوعة الموسيقيّة التي ألّفها للجوقة والأوركسترا بنفسه - ترنيمة الحياة، تلك التي أراد منها أن تُنشَد يومًا ما تخليدًا لإنجازاته، فيحزن الجمهور الغفير على الخسارة التي تكبّدها. ولا بدّ لفريديريك من أن يقرّ بأنه في كلّ مرة يستمع فيها إلى المقطوعة الموسيقيّة، تسري القشعريرة في عروقه. كيف أن النوطة الحادّة بنهايتها تخفّف عنه، وتشكّل جسرًا للصوت يمدّه برضى حاسم يترافق مع التعبير النهائيّ.

لطالما دفعه التناقض الأخلاقيّ الذي يصبغ هذه النوطة إلى ذرف دمعة في أكثر من مناسبة.

في العلّيّة، الاحتمالات كلّها على ضلال.

توقّع فريدريك مساحة ضيّقة للزحف. عِوَضًا عن ذلك، خلق الظلام شعورًا بالاتّساع، حتى بعد أن منح نفسه بعض الوقت للتكيّف مع النقص الهائل في الضوء. لا يسعه أن يميّز أيًا من الجدران، ولا يسعه أن يميّز صندوق تخزين واحد أو قفص. لربّما هو واقف في مراعٍ خضر شاسعة تظلّلها ليلة ليلاء، إلا أن عبق الغبار الدافئ والعفن الجرثومي يحومان في الفضاء.

على كلّ الأحوال، قد يكون اليوم يوم أربعاء، وهو يفضّله على يوم الثلاثاء.

يخطّط لبرهة من الزمن. يمرّر بتردّد قدمه اليسرى من أمامه ثم يتلمّس ما حوله بطرف إصبعه. ولمّا لم يصادف أي عائق، يعمد إلى مدّ يده اليمنى - إلى الأمام في البداية، ثم في الفراغ الذي يعلو رأسه.

لا شيء.

لا شيء

يستجمع قواه، ويتقدّم خطوة لا تتعدى نصف المتر. على ما يتذكّر، فإن المصطلح الذي يفسّر ما يقوم به هو تلمّس الطريق. إنّه يتلمّس طريقه عبر العلّيّة.

تبدو ألواح الأرضية على قدرٍ من الصلابة، في حين أن الجوّ ليس أكثر حَرًّا من تحت.

يتألّف هذا المكان من ظلال تتراوح بين الرمادي الداكن والرمادي الأكثر دكنة كما الرسم الثلاثي الأبعاد بقلم الرصاص.

إن لم يكن اليوم أربعاء، فلا شكّ في أنه الخميس. الجمعة على أبعد تقدير.

الجمعة، أو السبت أو الأحد.

يرفع كلتي يديه إلى الأمام فوقه كما المنوّم المغناطيسي يفتن مساعده، ثم يخطو إلى الأمام بقدمين متباعدتين، ليذكّره صوت حفيفها بمكنسة قش تمسح برتابة الألواح تحت قدميه.

وتمرّ خاطرة في باله مهمهمًا في قرارة ذاته، من دون الموسيقى، الحياة مجرّد غلطة. فلطالما مكّنته الموسيقى من تعديل مزاجه من دون عناء تفكير. فتركيبتها تختلف عن تركيبة الكلمات المكتوبة. لكلّ مفتاح مشاعر مختلفة، ولكل نغمة أسلوبها في اختبار الاختبار بتعمّد أقل.

يجلس أمام البيانو، فيؤلّف، لكنّ المقطوعة الوحيدة التي يمكن له أن يحفظها في ذهنه هي الوحدة الزمنية الأخيرة التي عزفها.

النوطات عصافير جميلة تتأرجح على أنغام عاصفة ثلجيّة.

والمثير في هذا المكان الراهن هو ذاك الإحساس بـ - الانفتاح. هي الكلمة: الإحساس بالانفتاح الذي يترافق معه. يتلمّس فريدريك طريقه لما يبدو وكأنّه دقيقتان أو ثلاث من دون أن يصطدم بأي عائق واحد.

ما الفائدة من العلّيّة إن لم تكن تعجّ بالأشياء؟

وإذا بالملل يتملّكه على حين غرّة فيعقد العزم على تقفّي آثار خطواته.

المشكلة أنه عندما يستدير لا يسعه أن يحدّد أين يفترض بالسّلّم أن يكون: يتوقّع فيضًا من نور يجتاح الغرفة من الأرضيّة، غير أنّ كلّ ما حوله يبقى غارقًا في ظلمة رماديّة كالحة وفي رماد يسابق الظلمة في ظلامه.

يتوقّف بينما تخفت همهماته ويعمل على تحديد اتجاهاته، ثم يستدير حول نفسه ويعقد العزم على مسار جديد. يمضي قدمًا، يتلمّس طريقه،

وهو على يقين أنه في مثل هذه الأوقات تستعدّ مثانته لأن تمتلئ بلا هوّادة وبلا توجّس، في هذه اللحظة تستعدّ مثانته لأن تمتلئ بلا توجّس. وتتحوّل الحاجة إلى التبوّل إلى واقع بحدّ ذاته، واقع عنيد.

يتوقّف مرة أخرى، مرتجفاً، مذعِنًا، فيقف ههنا وكلّه ثقة بأنّه يستطيع أن يستشفّ بصيص نور أمامه. وإذ به يدلف مرّة أخرى بخطى سريعة.

لقد وجّه فريدريك ضربة إلى التاريخ فقسمه نصفين.

يستطيع بالطبع أن يحتفظ بالسوائل داخله لبضع ثوانٍ إضافيّة.

لكن.

لكنّه ليس السلّم على الإطلاق.

يبدو أن الضوء ينبعث ممّا يبدو شقًّا في الجدار يفصل هذا الجزء من العلّيّة عن جزء آخر، أو لربّما يفصل هذا الجزء من العلّيّة عن خارج المبنى. كلّا: إنها حدود باب.

باب؟

باب.

وهكذا، يصل فريدريك إليه ويمدّ يدًا بيضاء هشّة يتحسّس بها المزلاج.

إنه في مقصورة قطار وعبر النافذة يتأمّل الريف الإيطاليّ الشماليّ يندفع في لوحة يمتزج البنّيّ فيها بالأخضر النديّ.

قبالته، تضع لو رأسها على كتف أمّها. تأخذ قيلولة. تستعرض السيّدة

سالومي التلال متأرجحة تحت قبّعة الريش التي تعلو رأسها. أمّا بالقرب منه، فيجلس راي يقرأ صحيفة سويسريّة.

إنّها بداية شهر مايو العام 1882. وعلى بساطة الأمر وسذاجته، إلّا أن الواقع يبقى أن فريدريك قد أحبّ لو من النظرة الأولى وأُشرِب قلبه حبّها.

عندما التقى راي في الردهة وطلب منه أن يطلب له يدها تردّد راي، لكنّ فريدريك أصرّ على إلحاحه. رضخ راي في نهاية المطاف، ووعد فريدريك أنه سيفاتح الآنسة سالومي بعد العشاء في تلك الأمسية.

كانت بقيّة فترة بعد الظهر طويلة، لا تنضب فيها الدقائق. جلس فريدريك على مكتبه وأخذ يتأمّل الضباب النحاسيّ يتجمّع فوق سماء روما. نهض وارتدى أفضل حلّة لديه. ثم جلس مرّة ثانية. ألقى نظرة على الساعة المعلّقة في طرف جيبه. نهض وأخذ يذرع الغرفة بخطاه. جلس مرّة أخرى. نهض وراح يمشّط شاربيه. ثم نزل إلى غرفة الطعام ليحتلّ موقعه وراء كرسيّه.

خلال العشاء، لم يتمكّن لا من استراق نظرة إلى لو ولا من تجاذب أطراف الحديث، وما إن انتهت الجلسة حتى سارع إلى غرفته وبدأ يحزم أمتعته.

لقد جعل من نفسه أحمق.

سيغادر في صبيحة اليوم التالي. سيعتذر لملفيدا على رحيله المفاجئ وسيغادر في صبيحة اليوم التالي.

طرقٌ على الباب.

رفع فريدريك رأسه. لربّما من الأفضل ألا يردّ. لقد تسبّب بما يكفي

من الضّرر حتى الآن. سيحتاج إلى سنوات وسنوات حتى يمحو ذلك من باله. عندما ينتهي من حزم أمتعته، سيعتذر لملفيدا على رحيله المفاجئ، ويعتذر لراي على وضعه في هذا الموقف الحرج، وسيغادر في صبيحة اليوم التالي.

طرق آخر على الباب.

وفي المقلب الآخر.

في المقلب الآخر، لا بدّ للمرء من أن يستشفّ الأمور. لا بدّ للمرء من أن يخوض كلّ حرب حتى النهاية، أياً تكن النهاية. في النتيجة، ذلك هو تعريف النبل والفلسفة.

طرق ثالث على الباب، أكثر قوّة مما سبق، لم يكن فريدريك يمشي باتجاه الباب بقدر ما كان يمشي بخفة مجانبا له، فتوجه فريدريك إلى الباب بطريقة هي أبعد عن المشي من السير محاذرًا باتّجاهه كما لو أنه يخشى أن يطير المزلاج فيفتح الباب على مصراعيه أمامه.

كانت لُو تنتظر في الردهة وقد وضعت يديها على ذراعَيْها وارتدت قناعاً فوق تعابير وجهها.

سألت هل يمكن لها أن تدخل لبرهة من الزمن؟

تفحّص فريدريك حذاءه. بالتأكيد لا مانع من ضربة تلميع. ثم تفحّص حذاء لُو. يا لصغر قدميها. جعلت قدميه تبدوان كما لو انتزعتا جراحيًّا من جثّة فيل وخيطتا عند مفصل كاحليه.

تراجع عن مدخل الغرفة واقترح عليها أن تجلس على مكتبه. هكذا فعلت. أمّا هو، فبقي واقفًا. لاحظ أن لو تتكلّم. كانت تتكلّم وكانت تخبره شيئًا. كانت تتكلّم وكانت تخبره كم شعرت فعلًا بالإطراء لأنه

طلب يدها. فهي تكنّ له، وهي على يقين أنّه يدرك ذلك، كلّ احترام وتقدير.

إن لم تكن ضربة تلميع شاملة، فأقلّه خرقة رطبة تسوّي الوضع. فهذا من شأنه أن يزيل بعض الأوساخ أو حتى بعض الخدوش.

وماذا عسى الناس يفكرون به؟

ومع ذلك، ها هي لُو تقول، وصوتها العذب يقطر ثقة، إنها تخشى أنها ستضطر للاعتراف بأنها لا ترى في فريدريك زوجًا لها. لا بل لا ترى في أيّ كان زوجًا لها. بل لطالما عقدت العزم على أن تحيا حياة مستقلة، حياة لا تثقل أيامها قيود الزواج.

لكنّ فريدريك خال نفسه قادرًا على رميه، أو التصدّق به لشحاذ قذر في حيّ قذر، لو أمكن لفريدريك أن يجد على أرض الواقع شحاذًا قذرًا في حيّ قذر مستعدًا لتلقّف تلك الفظاعة الجلديّة من بين يديه.

ومع ذلك، ها هي لُو تقول إنها تود أن تردّ على عرضه السخيّ بعرض آخر تقدّمه هي: هل من أمل أن يفكّر بملاقاتها مع راي في فيينا؟

رمى فريدريك نظرة باتجاهها.

قالت إن المخطّط أن يعيشوا معًا ويدرسوا معًا، ويألف الواحد منهما رفقة الآخر. لقد أدركت لو لحظة وضعت يدها على بحث فريدريك حول القوّة كم تحتاج لتنهل من علمه. فهل يتفضل ويمنح فكرتها حيزًّا من التفكير الجديّ؟ لا داعي للإجابة في تلك اللحظة تحديدًا، لكن لو يوافق أقلّه على إعطاء تلك الخاطرة نصيبها من التفكير، بحسب راحته، فستكون له ممتنة.

وهكذا انطلقوا في رحلتهم عبر قطار يعبر القرى الإيطالية: لو تأخذ

قسطًا من الراحة، بينما تجلس أمّها عاقدة الحاجبين. راي يقرأ. أمّا فريدريك فيتفرّج.

لقد اتفقوا على قضاء العطلة في شمال إيطاليا ثم جنوب سويسرا لأسبوع إضافيّ أو لعشرة أيام، ينعشون فيها الروح، قبل أن يتوجّهوا إلى العاصمة النمساوية، حيث يبحثون عن منزل يستقرّون فيه.

خارج النافذة تتلألأ بحيرة كصفيحة قصدير.

يتوقّف غلام نحيل يركب درّاجة على الطريق المغبر الموازي لسكّة الحديد. يترجل عن درّاجته ويتركها تهوي جانبًا، وكأنّه أدرك للتو مشهدًا غريبًا يزيّن السماء الشاحبة فوق رأسه. تدلّت ذراعاه على جانبيه. وفتح فاه.

إنّه هناك.

إنّه ليس هناك.

أحنى فريدريك رأسه يحاول أن يرى ما ينظر إليه الغلام بكلّ هذا التركيز، لكن عبثًا. فعاد إلى مقصورته وقد أحسّ برغبة ملحّة لقضاء حاجة...

وقف، وانسحب معتذرًا بحشمة، ثمّ شرع يمدّ يده البيضاء الرقيقة ليدفع بها مزلاج الباب الذي يفتح على ممر ضيق.

تر ذّ سماء الخريف من حوله في فناء تفترش الحصى أرضه.

ثمّة ما يحمله بيده اليمنى.

أطرق نظره ليتفاجأ بسيف مسلول يحمله بيده. وفي مواجهته شاب

يفتقر إلى الوسامة. له شفتان بالغتا الصغر، وأذنان بالغتا الكبر، ويمسك بيده سيفًا أيضًا. وسرعان ما لاحظ فريدريك أنّه قد أخرج السيف من غمده.

يعلن صديقه دوسن الواقف بكل هدوء إلى جانبه \استعد\ا، فيندفع الشاب الذي يفتقر إلى الوسامة بطعنة إلى الأمام.

إنها بون. إنّه العام 1864. التحق فريدريك بالجامعة قبل أقلّ من شهر، وقد عقد العزم مذ وطأت قدماه أن يكون أحد هؤلاء الصبية. فيكفيه تفكيرًا، وتكفيه عزلة. كان طالبًا مجتهدًا في بفورتا، لكنه لم يكن يومًا ذلك الفطن، أو ذاك الذي قد يبقي أساتذته عينًا ساهرة عليه، إذ قد يفاجئنا يومًا ما، لذا جلّ ما يسعى إليه الآن هو أن يصبح جزءًا من المجموعة. فهو يريد أن يحظى بإقامة متوسّطة في جامعة متوسّطة قبل أن ينتقل إلى العالم المتوسّط، ليصبح... متوسّطًا. ماذا على وجه التحديد؟

لربّما أستاذ متوسّط. فالتعليم مهنة مشرّفة.

غير أنّه ومنذ البداية، لم يختبر ظروفًا سهلة على وجه التحديد، إذ لم يكن يدري ما هي الفرحة المتوسّطة. بل راح يدرس مَنْ هم حوله، حتى إنّه حاول التودّد لأخت دوسن لفترة خمسة أيام حتى سألت أخاها أن يطلب من فريدريك البقاء بمنأى عنها. كم يفضّل قوالب حلوى الكريما على الجعة. وهو قادر على تناول كميات غير معدودة من تلك القوالب.

فاتحه دوسن الأسبوع الماضي بموضوع الالتحاق بأحد الاتّحادات الطالبية، فوافق فريدريك على مضض، وها هم الليلة قد خرجوا لاحتساء المشروب على نيّة بعض الإخوة الرفاق.

وفي طريق عودتهم مترنّحين، التقت المجموعة بمجموعة أخرى من

أخويّة منافسة، فأخذوا يتبادلون أطراف الحديث. إلى أن اقترح أحدهم أن الوقت قد حان للمبارزات الفعليّة، فسمع فريدريك نفسه يوافق. وبدأت السماء ترذّ.

سبعة أو ثمانية منهم يقفون الآن في الفناء، في حين يندفع الشابّ غير الوسيم بشفتين بالغتي الصغر، وبأذنين بالغتي الكبر يسدّد طعنة باتّجاه فريدريك. يعاجله فريدريك بطعنة مقابلة لكنّه ينسى في خضم اندفاعته أن يشهر سلاحه.

وتدوم المعركة أربع ثوانٍ كاملة قبل أن يضرب وميض صاعق قصبة أنفه. فريدريك ممدّد على ظهره في بركة من طين داخل معطف الصوف الطويل الذي قدّمته إليه أمّه قبل سفره، ويذوي كخرقة بشريّة. عيناه مغمضتان والناس يقرقرون من حوله. أما دوسن، فيقف فوقه سائلًا:

فريتز؟ فريتز؟

هل تسمعني يا فريتز؟

تومض كاميرا في وجهه، ويغصّ الاستديو بظلال لا ظلّ لها.

يفقد فريدريك بصره لهنيهات.

إنّه منتصف مايو. إنّه العام 1882. إنها لوسيرن. لقد قرّر فريدريك وراي ولو توثيق إقامتهم بزيارة المصوّر السويسريّ الشهير جول بونيه، بينما فضّلت السيدة سالومي أن تلازم غرفتها في الفندق نتيجة الطقس.

يتناهى إليه صوت من وراء الضوء سائلًا: «ماذا عن واحدة أخرى؟».

ويردّ صوت لو بكل حماسة: «نعم! أخرى! أخرى!

ويقع خيار انتقاء الديكور على فريدريك: فيختار صورة عملاقة تبرز

جبال الألب المهيبة تحت سماء كالحة، وأمامها عربة خشب تصلح للفلّاحين. وتشرع لو تتولى مهمّة توزيع الفريق داخل العربة. يقف كلّ من راي وفريدريك مكان البغال.

يعتذر راي وينسحب خارجًا ليلفّ سيجارة سريعًا، في حين يستعدّ بونيه والقبّعة تغطي رأسه مع مساعده الشاحب للّقطة التالية.

وإذا بغبطة موقّتة تغمر فريدريك نتيجة المستجدات الطارئة، فيقتنص فرصة له ويسأل لو إن كان بإمكانه أن يكلّمها بإيجاز على انفراد. فيلجآن إلى غرفة الجلوس المجاورة، حيث تتداخل الجدران الخمريّة بصور التقطها بونيه. أما الكنبة الجلديّة، فكانت كبيرة بمقدار الضعف. ومن دون أيّ تأخير، يلتمس فريدريك فرصة ثانية فيطلب يدها مرّة أخرى.

فقد قضيا بعضًا من أسابيع عدّة معًا ساعدت الواحد منهما على التعرف عن كثب على شخصيّة الآخر، كما اقترح.

فهل ما زالت لو مقتنعة بما لا يحمل الشكّ أن قلبها لم يختبر أيّ تغيير يدغدغه؟

ومرّة أخرى ترفضه لو بمنتهى الرفق ومنتهى البساطة.

ويتّسع حجم غرفة الجلوس الصغيرة أضعافًا مضاعفة.

ويحدّق فريدريك ولو الواحد بالآخر لجزئيات ثلاث من التشاؤم، ساعيين وراء اقتفاء أثر لا يستطيع كلاهما إيجاده، ثم يقدّم فريدريك اعتذاره عمّ سبّبه لها من إزعاج.

لا يدري ببساطة ما الذي حمله على ذلك. لقد تحوّل إلى مهرّج. هل يعقل، أو هل يمكن أن يأمل في أقصى أقاصي أحلامه أن تجد يومًا ما في قرارة نفسها ما يساعدها على مغفرة تلك الفظاظة التي ارتكبها؟

لو تتكلّم معه. لو تقول شيئًا. لو تطلب منه ألّا يعير الأمر الكثير من التفكير. فهي تتطلّع إلى صداقة تجمع بينهما وتكنّ لها قدرًا كبيرًا من الاحترام.

قد يشكّك في الكثير من الأمور في الحياة، لكن فليمتنع عن التشكيك بصداقتهما.

ويعتذر فريدريك عن اعتذاره. فكم خاب ظنّه بنفسه. كان يفترض به أن يكون على معرفة أوسع. الخطأ خطأه كاملًا.

سيغادر بعد ظهر هذا اليوم.

لُو تتكلّم معه. لُو تقول شيئًا. لُو تخبره أنه يفترض بهما أن يتخطّيا الأمر. فليكملا في مخطّطاتهما. فليواصلا رحلتهما الاستكشافية. فها هم جميعًا يقضون في النهاية وقتًا ممتعًا، أليس كذلك؟

خانته كلماته، وخانته طاقته، فأغمض فريدريك عينيه وشرع ينتظر في الغرفة الفسيحة أن ينتقل هذا الحادث إلى صيغة الماضي.

اقتربت لُو منه ووضعت يدها على خدّه قبل أن تستدير وتختفي وراء الباب الذي يؤدّي إلى الأستديو.

وبقي فريدريك في الخلف.

قرّر أن يستجمع قواه، فقد كان يمكن للأمر أن يكون أكثر سوءًا. كان يمكن أن تسخر منه. كان يمكن أن تقبّله. كان يمكن أن تخرج متذمّرة. استجمع فريدريك فتات نفسه من غير أن يفتح عينيه بعد أن أدركه العار.

وعندما نجح بالعودة إلى الأستديو، وجد لُو وراي بانتظاره. لم يسعه

أن يقرّر إن بدا جليًّا أنهما يتشاطران سرًّا، أو يبدو جليًّا أنهما يتشاطران سرًّا.

وإذا ببونيه يعلن، والقبّعة تغطي رأسه: قفوا في أماكنكم لو سمحتم.

تقدّمت لُو إلى داخل العربة وجثت على ركبتيها. كانت تكشف خصرها النحيل تحت فستانها الأسود الأنيق بشرائطه البيض. وجّهت ناظريها إلى العدسة من غير أن تطرف لها عين. وقف راي أمام العربة مواجهًا الكاميرا أيضًا، وواضعًا يده اليمنى تحت سترته ذات الطراز النابوليونيّ، من غير أن تفارق التكشيرة محيّاه. أمّا فريدريك، فوقف بسترته المشقوقة الذيل في الخلف إلى يسار راي، محنيًا ظهره قرابة الدرجات الخمس إلى الوراء، ومحدّقًا بنقطة ما إلى يسار المنصّة، كما لو تملّكه شيء من الذهول، أو اعتراه شيء من الحيرة مما يراه. وفي اللحظة الأخيرة المتاحة، خطرت في باله خاطرة فشرع قائلًا:

لحظة، وخرج من إطار الصورة. لحظة لو سمحت...

أخرج بونيه رأسه من وراء تجهيزاته بينما أخذ مساعده الشاحب نفَسًا عميقًا. وراح فريدريك ينبش في الصندوق الخلفيّ إلى أن وجد ما يبحث عنه وعاد حاملًا ما يشبه السوط وبعض حبال وبراعم ليلج اصطناعية. دخل إطار الصورة مجدّدًا وقدّم هديّته إلى لُو.

تتزايد حشرجة الأنفاس.

راي ينظر إلى فريدريك الذي ينظر إلى بونيه الذي ينظر إلى مساعده الذي ينظر إلى لو التي ترفع السوط بيدها اليمنى، وقد راق لها على ما يبدو ذاك التعدّي، فاتّقدت عيناها وتحوّل وجهها كتلة صلبة على حين غرّة.

وتتسع تكشيرة راي على نحو مبطن.

يستدير فريدريك ويواجه الاحتمال المربك.

ويأمر بونيه، قولوا «دوتشلاند، دوتشلاند فايبر أيس»، ويعود مجدّدًا إلى وراء تجهيزاته ويضغط على كبسة الكاميرا.

فلاش.

السابعة عصرًا

باستثناء أنّي لست هنا.

أنا هنا.

أنا هنا وأشعر ببعض من أمان باستلقائي على ظهري في سرير رطب، ورأسي يتأرجح في حضن امرأة عجوز.

لقد أمرض القيصر فريدريكوس نفسه مجددًا.

أما هزال اعتلاله فيبرز كالتالي: أقلّه، يثبت أن الجسد البشري يتفتّق عن حسّ فكاهة.

هذه الأنثى التي تشاركني الأوكسجين تفوح منها رائحة الجدّات اللواتي لا يخرجن كثيرًا. بل هي منهمكة باستخدام الأصوات. ونفسي يعبق بروث كلاب.

تنظّف البراز المتخثّر عن جسد القيصر بواسطة خرقة مبللة.

إليكم هذا السر: هي تستمتع بفائق القوّة والحنكة.

عندما تخالني لا أنظر، غالبًا ما تضيف قارورة من ماء السلوك على طعامي وفي مشروبي وتنثره فوق أعضائي التناسليّة خلال نومي. وهكذا يعجز القيصر عن الغناء. ويذهب ثيسيوس في عطلة.

الرياضيّات غير واردة على الإطلاق.

أين نحن مجدداً؟ تجدني أسمع الأصوات كلّها تتساءل.

وتحاكي الخادمة. جارية تصطنع التعاطف فتربّت على ذقني ووجنتي وتشغل نفسها باستخدام الأصوات[1].

وتخبرني أنّني في مدينة اسمها فايمار، في مبنى اسمه أرشيف نيتشه على أبواب قرن جديد. تحفل الطوابق السفلى بمذكّرات عنّي، ومخطوطات لي، وصور عنّي وعن عصا المشي الأفعواني. أما الطابق العلويّ فيعجّ بي أيضًا. لا بدّ من غرفة كاملة وشرفة لإيواء آخر الآلهة.

على فكرة، عذرًا على اختراعي الجنس البشري.

يميل مشهد الغرفة. وتتدافع الأثقال من وراء جبهتي. يا للذهول، ها أنا أطفو وقد دُفعت من نهديها الكبيرين القذرَيْن. أكافح للحظة، أسعى لأكافح، لكنّها تتمسّك بقوة فتزيدني اختناقًا، فأقرّر عوضًا عن ذلك أن أركّز على نفسي.

ثمّة محاولة لإغراقي بصابون الحلاقة.

ثمة محاولة لإحراقي بالمياه المغليّة.

وتصل شفرة الحلاقة لتدبّ الرعب في زوايا رؤياي.

ويتقيأ فريدريكوس مجدّدًا، وهذه المرّة على ظهر معصمها. وتضرب خرقة أخرى رطبة. مشط من أسنان. فرشاة من أسلاك شائكة. تعبث يد تحت رداء المستشفى وتستأصل قضيبي كما لو كان قابس الرصاص أسفل حبل الجرس.

---

(1) بمعنى أنها تتكلم.

فريدريكوس يذهب بعيدًا.

يقوم بزيارة إلى لا يبزغ صبيحة يوم من أيّام أكتوبر.

لو وراي وهو في طريقهم إلى باريس. الليلة الماضية سهروا حتى الساعة الثانية صباحًا في غرفة في الفندق، يشربون النبيذ المتحجّر، ويضحكون، ويستفزّ الواحد منهم الآخر إلى أن يدفع بتفكيره إلى الشفير. أخذ فريدريكوس يستعرض أمامهم ذهابًا وإيابًا بينما يتكاسلان على السرير الذي لا تزال ملاءاته موضّبة وقد أسكرتهما سكرة العشيرة[1].

عندما استيقظ في اليوم التالي، كانت لو وراي قد غادرا.

وكان فريدريكوس مستلقيًا على الأرض وألف فكرة وفكرة تعصف في رأسه الراقد تحت أريكة مائلة.

نهض بحذر، ارتدى كساءه، وخرج إلى الردهة وطرق على باب غرفة لو وأمّها.

لا إجابة.

استدار في الممر وحاول مع غرفة راي.

لا ردّ أيضًا.

نزل إلى مكتب الاستقبال للاستفسار عن أصدقائه، فأخبره رجل اكتسب عادة مزعجة بإخراج لسانه السمين من فمه إذا لم يكن يتكلّم، أخبره أنهم غادروا عند الفجر. ردّ فريدريكوس أنّه مخطئ. لو وراي والسيدة سالومي يتناولون فطورهم أو خرجوا في نزهة قريبة.

---

(1) بمعنى أنهما متحمسين بغباء لفكرة «الانتماء للجماعة» بحسب تعبير نيتشه.

كلّا، أطرق الرجل صاحب اللسان المتثاقل. لقد استدعوا عربة وغادروا إلى المحطة مصطحبين أمتعتهم. لم تكن الشمس قد بزغت عندما اختفوا عند مدخل الفندق.

صعد فريدريكوس السلالم نحو غرفته، ارتدى ملابسه، وسارع إلى الشارع حيث قضى صباحه وظهره يتسكّع في وسط المدينة الرماديّة كقط مرميّ وسط عاصفة ثلجية.

ولدى عودته إلى الفندق عند لحظات الغسق الأولى، توقّف في محطة القطار واشترى بطاقة إلى بازل، ثم من بازل إلى جنوى. ومن جنوى، سيأخذ عربة إلى رابالو. وفي رابالو، سيتلاشى.

وفي طريق عودته إلى الفندق عند لحظات الغسق الأولى، دلف إلى صيدلانيّ واشترى مقدارًا من الأفيون. تلك الليلة أمسى نومه سباتًا شتويًّا.

هل يعقل أن يقضي نحبه بفعل الذاكرة؟

نعم، كلّ شيء معقول.

وهكذا، أمارس فيض الإسراف، فأفتح عينيّ هكذا... نعم... وأجدني مسنودًا بالوسائد متدثّرًا برداء حريريّ خمريّ مشذّب الأطراف بالمخمل الأسود. تفوح من فريدريكوس روائح الصابون والنعناع والملاءات النظيفة. وعند قدم سريري العملاق، تقف أختي واضعة يديها الغليظتين على وسطها الممتلئ.

تُجري تقييمًا للوضع كما القائد وسط ساحة المعركة. أمّا شعرها القصير الأشعث الذي فقد نكهة الألوان، فيكتسب هيئة باروكة ذكوريّة مقيتة. وشفتاها ضامرتان ضمور إبرة مغناطيسية.

يلجأ فريدريكوس إلى ذاكرته ليعبر الغرفة ويزحف وراء وجهها، وكأنّه يحدق في قناع زهريّ اللون. وأوّل ما ينجح في إدراكه أنها تخال التبسّم علامة من علامات وهن العضلات، وثاني ما ينجح في إدراكه أن الغول المندفع إلى السرير أمامها قد انقضّ على روحه واختطفها.

وانهمكت المرأتان تستخدمان الأصوات. انهمكتا بمعزل عنه.

فسأل بكلّ ما أوتي من كمال اللحظة: هل هذا يعني أنني ربّما سأعود إلى المنزل قريبًا؟

لأنه لم يعد هنا لأنه بات هناك.

يستخدم عقله ليقف أمام النافذة. لقد أزيحت الستائر. تتدلّى أربع شموس ضخمة برتقاليّة اللون من السماء فوق الأشجار.

آخر ومضات النهار فوق المدينة.

ثم تشرع في رحلة الاضمحلال.

وإلى مزيد من الاضمحلال.

وتضمحلّ فتموت.

لسان

لقد ضربتك صاعقة على قصبة أنفك، وصديقك دوسن يتكلّم فوق رأسك، وقد فقدت أيّ اهتمام بما يقوله. بل جلّ ما تفكّر به كيف لهذا اللسان الدامي ألّا يكون لسانك. لطالما شككت بالأمر لسنوات خلت. إنه لسان غريب، لسان حيوان، وتذكر أنك استيقظت منتصف الليل لتستمع إليه يتدرّب على محاكاة الصوائت التي سمعها، بينما كنت صاحيًا وجلّ ما يهمك ألّا يُشار إليه كـلسان، بل كالخطأ الموجود تحت سقف الحلق. وتخال نفسك في يوم من أيّام المستقبل تستيقظ لتجده متخثّرًا في الوسادة الدامية بالقرب من رأسك، وعضلة رقراقة نضرة تزهو وسط هيكل أسنانك البيض. يومًا ما، ستجلس على مكتبك في شقّتك أسفل الشارع الذي يقود إلى بوّابة بازل القديمة، وستتأمّل صفحات المخطوط الذي تنكبّ عليه، وتدرك بخيبة مجلجلة أن هندسة كلّ جملة خاطئة، وأن بيت الإشارات ركامٌ لا ما تقوله بل كيف تقوله. وستنظر إلى الورقة أمامك وجلّ ما ستراه كيف أن كتلة المقاطع باتت بلون الرماد، جملة أخرى تضاف إلى لغة حافلة بها. وكأنّك كنت تؤلّف من هواء. إذ أضحى كلّ كاتب في بلادك صحافيًّا، وباتت الكلمات لهم صفائح زجاجية يرون من خلالها كيف تتحرّك الأبقار بتناغم عندما تصفّق يداك، ومع النفس

التالي الذي تزفره تدرك أن فعل الكتابة ليس امتدادًا بل فعل انضغاط، نسج جزئيات تعبّر في جمل سبع ما لايقوله الجميع في كتاب، فتستخدم الحِكَم لأنك لا تريد أن تُقرأ لا بل أن تُحفظ غيباً، وهكذا تشيد شذرة فلسفية لعالم جزيئيّ فتجمع ما بين الكسرة واللغز والفرصة تهندسها من لحمك، ومذّاك اليوم هذا ما تعنيه عندما تتلفّظ بـل

مؤشّر الفرح

يستجمع فريدريك فتات ذاكرته فيخلص إلى أن المصطلح لما يقوم به هو التلمّس.

يتلمّس طريقه في العلّية، مترنّحًا، حافي القدمين، ساعياً بين الفينة والأخرى إلى تمديد أطرافه ليحكّ عصعوصه من تحت رداء المستشفى، مع أنّ الحكّة قد شفيت منذ زمن.

تخطّى في مسعاه الساعة على ما يعتقد. بشرته باتت دهنيّة محرورة. أمّا سبلات شعره الغليظ فتلتصق بجبينه ووجنتيه، كما الصّيّاد الإيطالي يضع أخطبوطًا أسود صغيرًا فوق يأفوخه. إنّه ضائع. إنّه وحيد. وكأنّ المساحة القاتمة تتكشّف بلا هوّادة.

لا بدّ وأنّ هذا ما يتخيّله المسيحيّون عندما يتخيّلون الحياة من دون تخمينهم العظيم: شيء كثيف قائم صعب القياس، مهمل.

فريدريك متفائل يتلمّس طريقه ولا يعني له يوم الجمعة أكثر مما يعنيه يوم الخميس أو الأربعاء أو الثلاثاء أو السبت أو الأحد أو الاثنين، مع أنّه على يقين بديهيّ أنّ لا بدّ وأنّه ولد في أحد تلك الأيام.

لحظة.

لحظة.

نعم: هذا ما في الأمر. الخامس عشر من أكتوبر.

هو متأكّد عمليًّا من ذلك، هو متأكّد عمليًّا، إذ يبدو أنّه يتذكّر أنه يشترك في التاريخ نفسه مع سميّه، ملك بروسيا، نعم، ونظّام الشعر الرومانيّ بوبليوس فرجيليوس مارو المولود في... المولود في... اليوم نفسه في حوالي الألف وسبعمائة وكذا؛ هذا الإدوارد غيبون القابع بين آثار الكابيتول الروماني قد أعدّ مخطّطًا لكتابة كتابه الكبير حول الضرر والثقافة؛ وتوماس هاستينغر، ذاك الأميركي الأمهق الحسير، المولع بالأناشيد الأخّاذة، وقد ولد في حوالى الألف وسبعمئة وكذا...

في صبيحة اليوم نفسه لكن من عام آخر مختلف، بدأ نابوليون رحلة منفاه إلى صخرة اسمها القديسة هيلانة في جنوب... العاصف و...

أنامل فريدريك تمسّ طوبًا فيسارع إلى انتشالها.

طوب أو صخر أو خشب خام. يصعب القول أيّ مادةٍ منها في ظلّ الخسوف. على كلّ حال، هي مادّة جلفة قريبة من الفحم. ها هو يشرّع ذراعيه أمامه، يختبر اندثار الضوء بيديه، وهنا طوب أو صخر أو خشب خام... ماذا؟

يمرّر فريدريك إحدى الراحتين على السطح.

جدار.

نعم. هذا ما هو عليه الأمر: إنه جدار.

يشرع فريدريك يمشي بمحاذاته، يتحسّسه.

يمتدّ الطوب أو الصخر أو الخشب الخام لمتر إضافيّ. ومترين. وثلاثة.

يتقدّم، فينشرح صدره تفاؤلًا: ليتبع الجدار من حوله، وكلّه ثقة أنه سيصل في النهاية إلى البداية.

في البعيد، معلّقًا في سحابة شاحبة، يستعيد نفسه شابًّا لم يتخطَّ الثانية والعشرين، يجلس قبالة أمّه وأخته على الشرفة بعد عشاء ذات مساء، يسأل من حيث لا يدري:

ما الجدوى، ما الجدوى تحديدًا من مقاربة الكتاب المقدّس بنظرة دنيئة، بينما يتمّ تحميل النصوص اليونانيّة والرومانيّة مسؤوليّة كامل الكتابات النقديّة، أكاديميّة كانت أم تاريخيّة؟ أنا فضوليّ لا أكثر.

إنه العام 1866. إنه شهر أبريل. إنها ناومبورغ.

فريدريك يعود أدراجه من الجامعة لقضاء عطلة الفصح.

ويواصل متسائلًا بفضول لا أكثر: لماذا، في الأولى، اختيار دراسة الديانة المسيحيّة، عندما يجد المرء نفسه أمام كوكبة من الأديان الأخرى التي يمكنه أن يختار دراستها؟ أليس في النهاية كلّ من هذه الديانات على القدر نفسه من الجاذبيّة، وعلى القدر نفسه من الانتماء الذي يشعر به أتباعها، وعلى القدر نفسه من الرياء في طفولة المرء كما ديانة البعبع الإلهي الذي حمّل سلاح قوس النشاب للصليبيّين وأعدّ لهم محاكم التفتيش؟ إنّه مجرّد سؤال ليس إلّا. أنا أتساءل وحسب.

تبتسم له أمّه برفق وحنان. وتفترّ شفتا ليزبيث عن استعداد لجدال.

ويضغط فريدريك أرعن بلا هوادة.

ويواصل فريدريك متسائلًا بفضول لا أكثر، صحّحوا لي إن كنت على ضلال، ألم يكن المسيح الأصيل الوحيد الذي عاش. ذاك اليهوديّ صاحب النظام العصبيّ المعتلّ المهتاج الذي أُرسل إلى الأرض ليخلّص البشريّة؟ وألم تكن المحصّلة التلوّث الفكري والروحيّ لمئات الأجيال القادمة؟ لا شكّ في أن المسيح قد يكون خطأ أفلاطون، لكن أليس ديكارت ولوك وكانط والبقيّة الباقية خطأ المسيح؟ انظروا إلى رونيه المشكّك يقف في زاوية الطريق في استوكهولم، يقسم على التشكيك بكلّ شيء ثم يقدّم الأدلّة على وجود الله.

انظروا إلى أوكسفورد جون يذكر فصولًا وآيات ليثبت مذهبه التجريبيّ. انظروا إلى ضابطَيْ إيقاع كونيغسبرغ يترجمان المخلّص المنتظر إلى هذرات المثاليّة الألمانية.

تبتسم أمّ فريدريك فتوسّع ما بين وجنتيها، إلى أن يعلن أنّه لن يشارك في مراسم عيد الفصح في المؤسّسة التي تنشر الخرافات. وإذا بيديّ فرنشيسكا البيضاوين الناعمتين ترتفعان لتتغلغلا في شعر فرنشيسكا المعقود كعكة في مؤخّرة رأسها، بينما تطلق ليزبيث هجومها المحموم على ارتداد أخيها، فيشعر فريدريك بتفوّقه وانحشاره في آن. يقول لهما إنّ السبيل إلى النظام هو في غياب النزاهة. يقول لهما إنّ الحياة، الحياة الحقيقية هي في رفض الخضوع. يقول لهما إنّ الحل في المشاكسة والتكاثر. يرتفع صوت ليزبيث ويرتفع صوت فريدريك، فتروح فرنشيسكا تدور وتدور في أرجاء المنزل ويداها البيضاوان الناعمتان تتغلغلان في شعرها.

بعد انقضاء ساعة من الزمن، يجد فريدريك نفسه محدودبًا في عربة

يجرّها حصان في طريق عودته إلى محطّة القطار الذي يقوده عائدًا إلى الجامعة، والألم يعتصر معدته والشرر الأزرق يتطاير من عينيه.

وتتلاشى بقايا عائلته رويدًا رويدًا وراءه.

أطياف بيض صغيرة على مسار قطار عند لحظات الغسق تتساقط في الماضي البعيد عاجزة عن اللحاق بالركب مهما سعت إلى العدو.

تتلمّس راحة يده الطوب أو الصخر أو الخشب الخام، ثم تتلمّس الهواء.

يتوقّف فريدريك.

الجدار هنا.

الجدار ليس هنا.

يتراجع خطوة إلى الوراء، يمدّ ذراعيه، يلعب لعبة الغمّيضة. فراغ. يقرّر فريدريك أن يطوف بحركة دائريّة بطيئة إلى أن يعيد الاتصال من جديد بالجماد، فيبدأ يتلمّس براحة يده النهار والليل، لكن سرعان ما يقوده الدوران إلى افتقاد أي حسّ بالاتجاه قد يكون امتلكه يومًا.

ها هو يعود إلى بحيرة لوسيرن الضبابيّة. ينجرف مع التيّار.

في السابق، كان مفهوم التبوّل قائمًا بالنسبة إليه ضمن فئة عامّة من الاحتياجات التي يجب تلبيتها في القريب العاجل. أمّا الآن، فهو يندفع إلى مقدّمة وعيه بإلحاح جذريّ.

يزفر ويتوقّف. يستسلم ويرفع بعناء رداء المستشفى. وبعناء يريح نفسه على ركبتيه المخشخشتين يجلس القرفصاء كما الفتيات.

يسدل فريدريك ستار عينيه. يريح شرجه.

لا شيء: يتزايد اختلاج السائل كثافة، لكن لا يسعه أن يخرج قطرة واحدة.

يعي فريدريك نيتشه بكلّ ما أوتي من رجاحة عقل ووضوح أنّه سيموت على هذا النحو، جالسًا القرفصاء هنا، رافعًا رداءه، وحيدًا.

ترشح قطرة.

وترشح أخرى.

ويخلص إلى أن يرفع يده اليمنى ويدلّك بطنه، ثم يحوّل تلك اليد إلى قبضة يسدّدها بوهن إلى أعضائه الآثمة.

ويشرع فريدريك يكيل الضربات إلى نفسه بلا أيّ قناعة.

وعندما نهض من جديد، وجد نفسه في بياتسا كارلو ألبيرتو أمام المبنى الذي يستأجر فيه شقّة من بائع الصحف فينو.

لقد وقع فريدريك أسير تلك الهندسة، كيف أربكت الداخل بالخارج، وشيّدت نصبًا تذكاريًّا لأشعة الشمس. كيف تفيض كوّة السقف آمالًا مشعّة على الباحة الداخليّة. كيف أنّه يسعك أن تلمح جبال الألب تشمخ أمامك كما لو أنها خارجة من صورة فوتوغرافية، إذا ما أدرت بناظريك شمالًا من أي شارع مجاور ذات يوم صافٍ.

إلّا اليوم، فهو يوم غير صاف.

اليوم تحاكي السماء خرقة ملطّخة.

يقيّم فريدريك الوضع ويقرّر أن هواء المدينة الجاف الذي يحدث سحره في هذه الفترة من السنة: ثمّة ما هو مبهج في فعل التنفّس بحدّ نفسه.

تتنحّى سيّدة مكتنزة بخمارها وكيس التسوّق جانبًا نحو الشارع المرصوف بالحصاة كي تتجنّبه.

إنها تورينو. إنه العام 1889. لقد أثبت هاينرش هيرتز لتوّه كيف للنسيم أن يكتسب روحًا بواسطة الموجات الراديويّة، بينما الفرنسيّون منهمكون بتوظيف مليونين ونصف المليون من المسامير لبناء كابوس حديديّ يشكّل مادّة للمعرض الكوني.

ومع ذلك، لا تزال أمنية فريدريك لو تزداد السماء زرقة.

فكلّ ما حوله يؤشّر بالمطر. المطر أو الثلج. لا يسعه أن يقرّر أيّهما أكثر خذلانًا.

أيًّا يكن، فقد نسي ربطة عنقه.

إنها بداية يناير وقد نسي ربطة عنقه ونسي قميصه.

أمّا إحدى أسباب مثل هذه الإغفالات الجليّة، فقد تتّضح في الوقت المناسب أنها المرثيّة المحفورة على ضريح ديكارت وتقول: «قد عاش جيّدًا الذي اختبأ جيّدًا»، أو المكتبات القريبة من هنا وتبيع كتبًا بلغات ثلاث.

تمتدّ القناطر الشاهقة التي تمثّل فخر تورينو على أكثر من عشرة آلاف متر وسط المدينة، فيمكن للمرء أن يتنزّه أمامها لساعات من دون أن يصادف الرسم نفسه مرّتين. وفي المقهى الرائع، يعامل النُدُل فخامة البروفيسور نيتشه بكلّ ما أوتوا من لباقة. كوب قهوة فاخر مقابل عشرين فلسًا. في تورينو لا يدفع المرء بقشيشًا.

تفحّص فريدريك نفسه في المرآة قبل أن يخرج من شقّته، فسرّ

لاكتشافه حُسن ما يبدو عليه. عيناه الداكنتان تشعّان عنفوانًا، وشارباه المسدلان لم يظهرا يومًا بتلك الإنفة.

رجل العلم والثقافة بشحمه ولحمه، وقد بدا أصغر بعشر سنوات.

ساحات تورينو الشاسعة، الكاتدرائية التي تظهر أمام العيان وتختفي، الحدائق في قلب المدينة، الشوارع المرصوفة بالأشجار ونهر بو: هذا المكان يتخطّى بإلفته مئات المرّات تلك الريفييرا الطويلة الجرداء التي زرعت فيه ببلاهتها ذلك الشعور بالغضب على نفسه، إذ استغرقه وقت طويل قبل أن يطوي صفحتها ويمضي قدمًا.

هنا، النبض سويسريّ أصيل، ليستحقّ الوجود نعمة الحياة بكلّ احترام.

لكن كيف فاته أنّه لا يرتدي قميصًا؟ يعي أنّه قد يفوّت ربطة العنق. فقد تقع مثل تلك الحوادث. لكن قميصه الليلكيّ الجميل؟

يبدو أن معطفه ناقص أيضًا.

لاحظ ذلك عندما تنبّه أنّه بدأ يرتجف.

قد تعود إحدى أسباب هذه الإغفالات الجليّة إلى واقع أنّ غرفته تحتلّ أفضل موقع في وسط المبنى: نور جليل يسطع في صبيحة اليوم وحتّى يطبق العصر أجفانه، وإطلالة ساحرة على قصرَيْ كارينيانو وكارلو ألبيرتو.

وبحسب ما تفيده حواسّه، لقد بلغ شهر يناير منتصفه. طرقة واحدة على الباب من المالك فينو الذي أتى يستوفي الإيجار. يوم الميلاد، جلس فريدريك على مكتبه، باسطًا راحتيه على الطاولة المصقولة ينتظر بكلّ هدوء.

لربّما كانت هذه واحدة من مزايا الشقة التي تتمتّع بأفضل موقع في وسط المبنى، ولربّما كانت مزيّة أخرى حيث تكلّفه خمسة وعشرين فرنكًا في الشهر فقط لا غير، مع الخدمة وبيانو. يعزف فاغنر عند كلّ أمسية. وليتكلّم الناس ما يشاؤون. فجهود ريتشارد الأولى تبقى الموسيقى الحقيقيّة الوحيدة. لربّما من غير العاقل أن يقرّ بذلك خطّيًّا هذه الأيام، لكن إليك ذلك: زرادشت كان مسؤولا عن أن تورينو حملت لواء سيغفريد.

يخفض فريدريك يديه، يستخرج الدفتر والقلم ويفتح الأوّل.

فاغر الفم يعمل على التقاط الأفكار المتناثرة التي تراود عابري السبيل، ينكز نظّاراته فيثبتها أعلى أنفه، ويقرّب دفتره من وجهه حتّى يكاد يلامسه، فيتأكّد من غياب أي إمكانيّة للغش، ويشرع يؤلّف بحذر:

1. الإصرار على التحوّل إلى كائن لا مرئي.
2. مذكّرة إلى المحاكم العليا في أوروبا تقترح رابطة مناوئة للألمان.
3. اجتياز نهر الروبيكون وإنشاد أغنية جديدة.
4. الإيطاليّة لغة لطالما تبدو إما جداليّة وإما تتأرجح بين المثيرة للإحباط والمثيرة للجدل.
5. تحويل تاريخ البشرية إلى شظايا متشظّية.
6.

باستثناء.

باستثناء أنّ هذا كلّه على ضلال، بحسب ما أعلن للاأحد، بل ألقى بنظرة خاطفة إلى الأعلى، بعد أن استرعت جلبة غير مألوفة انتباهه في الساحة.

تجمّع عربات أحصنة واللهيب يلفح رؤوس الدّواب. في إحداها سائس مفتول العضلات يقف على مقعده، يعالج بسوطه فرسه التعب بينما يواصل زملاؤه عملهم.

امرأة بوشاحها الأسود تسوّي جلستها في عربة أخرى. يصوّت سائسها. توقّع الفرس خطواتها. رجل يرتدي بدلة سباق يخرج من مقهى وهو يقضم كعكة حلوى.

توشك السماء أن تغدق مطرًا أو ثلجًا أو برَدًا أو ندًى أو جليدًا، وثمّة سائس ينهال ضربًا على جواده، وصلب الجواد معكوف كحبل غسيل رخو، وكم قليلة حيلة الآدميّ على التحمّل.

يتحوّل وجه السائس البدين إلى حُمرة وقد سقطت قبّعته أرضًا نتيجة لسوطه الدابة بتلك القوّة. تساوي ذراعاه قطر فخذي فريدريك، بينما صدره معرّم كما عمود روماني، لكنّ المشكلة الحقيقيّة كما يراها فريدريك وهو يضع دفتره وقلمه جانباً ويخرج إلى الشارع، المشكلة الحقيقيّة تكمن في أن الفرس لن تتحرّك. المشكلة الحقيقة هي أن الجواد لا يقوى على الحراك، وكم قليلة حيلة أيّ كائن على التحمّل.

كيف على سبيل المثال، يطلق المرء على كلّ ما هو أخضر فريد من نوعه ينمو على شجرة اسم ورقة؟

قد تعود أحد أسباب هذه الإغفالات الجليّة بطبيعة الحال إلى واقع أنّ القوى تهمس أينما كان، والنسيم يكتسب روحًا بفعل الموجات الراديويّة، لكن يصعب على المرء أن يدرك ببصيرته ما يدور ويدور، أو أن الحصاة تبدو على ما يكفي من الصلابة تحت قدميه بينما يشرع في هرولته، لكن ذلك لا يعدو كونه تخمينًا ليس إلّا.

ثلاث شرائط حمر تظهر على ظهر الفرس، كزينة عيد فرحة.

ويحثّ فريدريك الخطى.

يبدو وكأنّ ذراعيه لا تقويان على الثني عند المرفقين.

توشك السماء أن تغدق مطرًا أو ثلجًا أو برَدًا أو ندًى أو جليدًا، وكم قليلة حيلة الآدميّ على التحمّل؛ وإذا بفريدريك يجد نفسه أمام العربة يشير بإصبع الاتّهام إلى السائس ويصرخ: لا يمكن لذلك أن يكون حقيقيًّا!

يشير بإصبع الاتهام إلى ظهر الجواد المترنّح ويصرخ: لا يمكن لذلك أن يكون حقيقيًّا!

يطوف بإصبعه عبر المباني التي تصطفّ في الشارع، وجموع المارّة تبطئ الخطوات وتشرع تحدّق، والسماء بنفسها لا تقيم أيّ اعتبار، فيتعالى صراخه مجدّدًا، كما لو أنّه يشرح حقيقة بديهيّة يُفترض بالجميع أن يكون قد فهمها، لكن فاته ذلك لسبب ما. قم بما يلزم، وسينتهي الأمر على خير. قم بما يلزم، وسيتوقّف زرادشت ويدخل أحد المقاهي لتناول فطوره بينما يعود أدراجه.

ينظر إليه السائس صاحب الوجه الغليظ من عليائه، يقيّمه، ثمّ يستهجن استهجانًا محض إيطاليّ ويطلق ضحكة ويرفع سوطه يكيل للدابّة ضربة أخرى، لكن فريدريك تراجع إلى الخلف مندفعًا قبل أن يدرك أنّ هذا ما سيقوم به وألقى بذراعيه حول عنق الدابّة وأطبق عينيه. ينهار العالم ويتلاشى بعيدًا منه. ثمّ يأخذ يستمتع بعبق جلد الخيل المر، إذ هذا ما سيكون عليه عبق المستقبل: مثل بول راي يتسلّق سور الجسر الذي قضى عليه مع لو ساعات يتجاذبان أطراف الحديث، ويشرعان

يلجان إلى عمق أعماق الليل، إلى ما دون عشرات السنين. كما تمتصّه المياه الآسنة. كما يصبح حطامًا على حين غرّة.

يقرّر فريدريك وقد أطبق عينيه أنّه يثمّن جلبة الحشد الذي بدأ يتشكّل من حوله.

يثمّن الموجات الراديويّة التي تُكسب الهواء روحًا، ويسعده أن يعرف أن فينو سيُحسن الاهتمام به لأنّ شوبنهاور قال يومًا عليك التعامل مع قطعة فنّيّة كالأمير، ودعها تتكلّم معك أولًا وهكذا نصل إلى ما هو مرادنا.

يصغي فردريك إلى نفق الريح التالف الذي يعصف تحت عظام الحصان، وعندما يبدأ بالاستماع إلى القوى داخله تتجلّى، يشعر بالامتنان فيرفع رأسه بما يخوّله إرسال قبلة وحيدة متواضعة.

القسم الثاني

حول روح الجاذبيّة

الثامنة مساءً

يسأل أحدهم: هل هو مستيقظ؟

يسأل أحدهم هل أنا مستيقظ وثمّة إجحاف في إنفاق الأصوات، ثم يجيب صوت أختي قائلًا: يصعب أحيانًا أن نحدّد وضعيّته على نحو أكيد.

أنا أخضع للمراقبة.

لا يبدو ذلك مزعجًا.

صوت غير الصوت الأول يتفوّه بكلمات لا أعيها جيدًا ثم تستخدم أختي اللغة مجدّدًا:

عندما يشرع السيد البروفيسور نيتشه في إحدى رحلاته الميتافيزيقية، غالبًا ما يخلّف جسده وراءه في حالة راحة.

الوجه الغامض، شخص آخر يعلّق. الهالة الأسديّة. هل تخالونه على دراية بوجودنا؟

ويردّ صوت ثالث قائلًا: كما لو أنّ روحه تحملق بما يتخطّى حدود اللانهاية، لتنأى بنفسها عن الشؤون البشرية.

وتوافق ليزبيث: هذا صحيح. لقد سافر أخي إلى فضاءات لا يسعنا

نحن المكبَّلون بأجسادنا تخيّلها. لقد تكلّم عن نور لا متناهٍ، وعن عقول فوق العقول تتلاحم غير عابئة بثقل النسيج الفاني. هذه الكائنات التي تسكن جلجلة الروح المطلق تتكلّم معنا في مناماتنا. عندما يموت الأطفال، إلى هناك يذهبون.

لامَتي، حيواني الخاص بحالة ممتازة.

أفتح شفتيّ ثم أطبقهما وكلّي حنق بينما أجهد لأشاركهم الحوار.

يسارع أحد الأصوات صارخًا: انظروا! إنه يتكلّم إلينا....

فتصحّح ليزبيث، إنه يتكلّم إلى ما هو أبعد منّا. وإن حالفنا الحظ، فلربّما نستشف جزءًا من تبادل شذرات الكلام. السيد البروفيسور شتاينر - لقد استعلمت في وقت سابق عن حالة الوعي المتقدم التي يبلغها. أذكر جيدًا أمّي العزيزة تصرّ على أنّ أخي أدار ظهره للعدميّة المشينة التي كانت تتحكّم بمرحلة شبابه، وأعاد تأسيس علاقته الناشئة مع الرب ما وراء الرب. ليس ثمّة ما يحملني على الاعتقاد بعكس ذلك. فكلّي ثقة بأنّ كتاب الأفكار والتأملات الذي وضعه السيد البروفيسور نيتشه، وأنا كما تعلمون أعمل على مراجعته معًا مع السيد غاست، سيثبت ذلك.

امتصاص طويل لبيانات الأخت.

إذًا، وكما تظهر جداول إنفاق الأصوات المبجّلة، نحن لا نتكلّم عمّا هو أقلّ من إرهاصات نمط أصليّ من الإدراك النفسيّ...

سيدي البروفيسور شتاينر، أنا امرأة بسيطة ومع ذلك أجد نفسي مقتنعة القناعة كلها بأن ما نشهده هو ولادة مرحلة ثورويّة جديدة في الفهم.

قيامة الوعي...

وأقول مقاطعًا الجميع، التنفس.

يحلّق الحمام عاليًا عائدًا أدراجه. وتُثبَّت المصاريع في وجه العاصفة. أستريح لبرهة، وأستعيد قواي وأندفع قدمًا.

وأقول التنفس في النهاية لا يجدي نفعًا.

يغادر الأولاد الشوارع. تموت الدلافين. لا بدّ من التفكير بهذا كلّه، مرارًا وتكرارًا.

تخال أختي أن تلميحي لها لخمسة عقود ونيّف على أنّها الحيوان الذي يجترّ العلف نصف المهضوم في وجه أعدائه تعبيرَ تودّد من جانبي.

لذا، لا يسعني بعد اليوم تبنّي فلسفة العَوْد الأبدي: فقد تلزمني على إعادة الالتقاء بعائلتي،

وتؤكد قيامة الوعي. هذا تحديدًا ما يشير إليه بحثنا العلمي. مع أنه لا بدّ لي من أن أؤكّد أنّه لا يزال في مراحل نشوئه الأولى. ويؤسفني أن أبلغكم (وهنا يتغير صوتها من المفتاح الكبير إلى المفتاح الصغير، ليصل إلى علامة صمت رباعيّة تمنح الزخم للمقطوعة الموسيقيّة البطيئة اللاحقة)، نحن بحاجة دائمة لكرم الجميع لمواصلة مهمتنا. غير أنّني أرى أنه من العدل القول إن ما نشهد عليه أمامنا اليوم هو المثال الأوّل لعِرق جديد، لجرمانيا جديدة.

وتتصاعد التصويتات.

فأتساءل، أين هو أفضل ما أحبّه في الحفلات؟ أين هي خدماتي من الحزب؟

ويردّ الصوت المبجّل، علينا أن نحافظ على هذا المبحث الجوهري

حيا. وأؤكّد لكم أن الجمعيّة الأنتروبوسيفيّة التي أنتمي إليها يشرّفها أن تدعم مثل هذه الدراسة. علاوة على ذلك، أخالني أعتقد أن أولئك الذين يحتلّون أعلى المناصب في حكومتنا الحاليّة سيسعدون بالقيام بالمثل.

وتردّ لامتي[1] متملّقة، فاض كرمكم عليّ، ها هو أرشيف نيتشه مَدين لكم بالكثير الكثير من الامتنان.

أبدًا سيدة فورستر، أبدًا. لا داعي للامتنان.

وتواصل مقترحة: هل لي أن أقترح أن نتابع نقاشنا في الأسفل في غرفة المعيشة - ونحن نحتسي ربّما كوبًا من الشاي أو كأسًا من الشنابس؟ أعتقد بأن الخادمة تنتظر تلبية طلباتنا...

(1) كان نيتشه يطلق على أخته لقب اللاما (لأن حيوان اللاما عندما يكون غاضبا يبصق في وجه صاحبه) وليزبيث - أخت نيتشه كان ترى في هذا الفعل تعبيرًا عن الحب.

معدة

تطرق على باب فاغنر[1] قبل ما يقارب الثلاثين عامًا ونيّفًا وقد تخطّت الساعة الثامنة، بينما السماء تمطر بغزارة، وتخال نفسك قد دُعيت إلى سهرة موسيقيّة، لكنّ والدك يجيب وتستشف من إجابته أنه وحيد. إنه

(1) ريتشارد فاغنر: (1813 - 1883) مؤلف موسيقي ومسرحي، ولد في ألمانيا. من أبرز المؤثرين في العصر الرومنسي في الموسيقا، ابتعد في أعماله عن الأوبرا الإيطالية. وكان من أنصار المسرح الأسطوري واستطاع أن يجمع بين النص والموسيقا وأن يوفق بين الأصوات والآلات الموسيقية. التقى نيتشه بفاغنر عام 1868وأعجب به وزاره كثيرا في بيته في تريبسين، وصار من المقربين جدا لعائلة فاغنر، وأهدى مخطوطة كتابه (The Genesis of The Tragic Idea) لكوزيما، زوجة فاغنر، بمناسبة عيد ميلادها. وعندما نشر نيتشه كتابه (مولد التراجيديا) لم يُقابل هذا العمل بترحيب وحماسة، وهنا وقف فاغنر إلى جانبه ودافع عنه. وعندما نشر نيتشه مجموعة مقالات في كتابه (تاملات خارج الزمان) كان أحد تلك المقالات يتناول فاغنر، كما كان لتلك المقالات طابع نقدي لتطور الثقافة الألمانية التي تحدث عنها شوبنهاور وفاغنر.
في تلك الفترة تعرف نيتشه على مالفيدا وبول راي من خلال عائلة فاغنر وكان لراي تأثيره على نيتشه جعله يتخلّى عن تشاؤمه في كتاباته المبكرة، أحبط نيتشه كثيرا عندما شاهد عروض مهرجان بايروث عام 1876 حيث نفر من العروض بسبب تفاهتها والمستوى المنحط للحضور. كما أبعده احتفاء وتهليل فاغنر لـ«الثقافة الألمانية» التي شعر نيتشه بتناقضها، إلى جانب احتفاء فاغنر بشهرته وسط عامة الألمان، كل ما سبق أدى إلى اتخاذ نيتشه قراره بالابتعاد عن فاغنر.

طويل نحيل، يرتدي بدلة فاغنر الغريبة العجيبة كزيّ رسام هولنديّ بسترته المخمليّة البنية، وبنطاله الذي بالكاد يصل إلى الركبتين، وجواربه الحرير، والحذاء العالي، وقبّعة رامبراندت، وربطة عنق زرقاء. وراءه ردهة فارغة تنيرها شمعة وحيدة، فينظر إلى ما وراءك كما لو أنه يتوقّع أحدًا أرفع شأنًا منك يأتي من الممر. فتنظر أنت أيضًا، لكن لا أحد، وأنت ترتدي بدلة بالية لأن هذا جلّ ما تقوى على إنفاقه. لسانك ليس لسانك وأسنانك ليست أسنانك، فقد اقترضتها من رجل عليل سقيم بالكاد يتمسّك بالحياة في مخيّلة شخص آخر. لقد جئت لتقابل فاغنر الذي يودّ التعرف على عالِم فقه اللغة التاريخيّ والمقارن اليافع الفذّ، الذي سمع الكثير عنه خلال زيارة قام بها مؤخرًا إلى بازل، لكنّك لا تجد نفسك سوى أمام والدك. فيخبرك بكثير من الحنان والعطف بينما ينظر إلى ما وراءك: «فعل الولادة دليل قاطع على عدم كفاية الأبوين»؛ ثم يدير لك ظهره ويجول في الردهة الفارغة الصامتة وتتردّد قبل اللحاق به. يقودك إلى غرفة رسم أنيقة بالكاد تتخطّى بحجمها حجم خزانة، حيث لا نوافذ لها أو لربّما تمّت تغطية نوافذها بورق جدران حريريّ. الظلام دامس ومعدتك تؤلمك وكرسيّ الجلد الضخم ومصغّر البيانو الكبير الذي تعلوه شمعة أخرى هي كلّ ما يحتل الغرفة من أثاث. الحجرة بالغة الضيق والهواء مثقل بعطر الباتشولي الذي يضعه فاغنر، فيصعب على المرء أن يزفر زفرة واحدة. ويشير والدك إلى الكرسيّ فتجلس وما فتئ يدير لك ظهره، فتوجّه له بعض تعابير الاحترام تخبره فيها أنه يبدو بحلّة مذهلة بالنسبة لرجل ميت وتفتقده كثيرًا. تذكر أنك تقول كم كان محبوبًا ومرحَّبًا به أينما حلّ، وذلك لسلاسة حديثه ولطف حضوره. فيبتعد والدك ويجلس محدودبًا أمام البيانو المصغّر، حتى تكاد ركبتاه تلامسان أذنيه، فيتكلم سريعًا مقاطعًا حديثك، ويخبرك أنّه لو كان على

قيد الحياة لكان بعمر فاغنر الآن ورجاءً افتح فاك. يدير ظهره لك ويطرق عازفًا بضعة أجزاء من مقطوعة مستر سينغر[1] يقلّد كلّ صوت بفيض من العظمة، ثم يتوقّف على نحو مفاجئ ويقفز عن مقعده. يفتحه، ينقّب داخله، ويخرج بمخطوط يحملك حجمه على التساؤل كيف أمكنه أن يكون هنا؟ إلا أنه يحتوي على السيرة الذاتيّة لفاغنر. يجلس مجدّدًا مديرًا ظهره لك، ويروح يقرأ ويقاطع نفسه بعد بضع جمل ليطلب منك رجاءً افتح فاك. تقول له إنّك تفتقده كثيرًا، وإنّ السنوات الخمس الأولى من حياتك، السنوات التي كان لا يزال فيها على قيد الحياة، كانت أسعد سنواتك. وتسأل هل يذكر صبيحة ذلك الأحد، عندما أعلن حان وقت صيد السمك فأخذك على ظهر جواد إلى الجبل، وجلست مقابله في السرج توازن ما بين الحبل والبكرة، وكل ما حولك حقيقيّ والشمس. وكأنك تجثم مباشرة أمام الموقد في أمسية شتاء. كلّا، ومعدتك تؤلمك ويواصل القراءة. يقاطع نفسه بعد بضع جمل ليطلب منك رجاءً افتح فاك. هو ما تلبث أن تدرك أنه لا يقرأ حول ماضي فاغنر، بل حول مستقبله؛ فيخبرك كيف أن فاغنر سيعرض في الوقت المناسب الداء المسيحي. يجفل والدك عندما يتلفّظ بهذه الكلمات. ويؤكد كن حذراً فهي ساخنة. بعد أوبرا بارسيفال سينضح عمل فاغنر بنساءً هستيريّات، وستتهاوى الأجساد وتتحوّل دبقة، ثم متكلّفة ثم مدّعية. يقول والدك ومن يضع نفسه يرتفع[2] يجفل وينتصب مجددًا، مقلّبًا صفحات المخطوط المبعثر على الأرض، كما لو أنّ ريحًا قويّة عصفت بالغرفة، ويقف على مقربة من

(1) هيوغو فون سينغر: كان قائد أوركسترا في جنيف، وكان من أنصار فاغنر، كما أنه أحد الأعلام الموسيقيين البارزين في جنيف، قام نيتشه بطلب الزواج من إحدى طالباته وهي ماتيلد ولكنها رفضته وتزوجت فون سينغر بدلا منه.

(2) «لأن كل من يرفع نفسه يتَّضع ومن يضع نفسه يرتفع» إنجيل لوقا 14:11

كرسيّك، ولا يزال يدير ظهره إليك، لكن يلتفت وراءه فيكتشف وجهك ويتحسّس ملامحه، كما لو أنه أعمى البصر والبصيرة. وعندما يصل إلى شفتيك يمسّدهما بسبّابته ويمرّر إصبعاً بينهما، ويطلب منك رجاءً افتح فاك فتتردّد، فيدفع قليلًا، فتقاوم تلقائيًا، ثم تراه يضغط على فكّيك، يبعدهما الواحد عن الآخر، ويقحم أصابعه الثلاث الأولى بين أسنانك الأمامية العليا والسفلى. تطلب منه أن يتوقف، تحاول أن تطلب منه لكن فاك ملآن وهو يتلمّس كل سنّ من أسنانك، كما لو كان كلّ منها لؤلؤة جميلة بوسعها أن تقلب الزمن. يتفحص كلًّا منها بأصابعه حتى لتهتم تدريجياً بملمسه إلى أن ينقضّ على قاطعك الأيسر بقوّة الكلابة ويشرع يفكّ لولبه، فتخور ويداك تستغيثان لإيقافه، لكن لا يسعك أن تجاري قوّته. لقد خرج السنّ الأوّلى وداخل فيك يسبح بالدم. يدير ظهره إليك ومعدتك تؤلمك، وينزع سنك ويرفعه إلى فيه فتراه يضمّه إليه ويحشره مترافقاً مع صريف رطب، كما الجذور المفتولة في الطين. ينظر إلى ما وراءه ويبدأ يربّت على شفتيك مجددًا وأصابعه تدغدغ فيضغط على فكّيك يبعدهما الواحد عن الآخر للمرة الثانية، فتنزلق أصابعه داخل فيك تبحث عن سنّ أخرى، فتختار طاحنًا علويًّا تقبض عليه، تفكّ لولبه ثم ينحشر هذا في فمه أيضًا. يعيد الكرّة عشرين مرة، وبعد ذلك يستدير وفمه ملطخ بدمائك، ولثتك ملؤها ثقوب لزجة ويطلب منك والدك رجاءً افتح فاك، لكنّه يواجه بعض المشكلات في النطق بالكلمات بسبب طقم الأسنان الجديدة التي اكتسبها. يطلب منك رجاءً افتح فاك، وعندما لا تفعل يقترب منك ويمرّر يده في شعره برفق ثم تصل إلى جانب وجهك، وعندما يبلغ شفتيك يتوقّف لبرهة فتدخل ثلاث أصابع في فيك وتجد صعوبة في التنفس. يحشر أصابع ثلاثًا داخل فيك ثم أربعًا ثم قبضته كلّها، وكلّك قناعة بأن عضلات فكّك ستتمزّق، وعظام فكّك ستتشظّى.

أنت تتقيّأ وهو يقحم قبضته أسفل بلعومك. يمارس ضغطًا حنونًا ثابتًا متواصلًا، وشفتاه الورديتان على مقربة من أذنك اليمنى وذراعه اليسرى متّكئة إلى كرسيّك. يمارس ضغطًا حنونًا ثابتًا متواصلًا وذراعه حتى الكوع تبلغ داخلك، فتظهر المفاصل مشكلة موقّتة، لكن والدك يتّكئ إلى كرسيك يقتحمك بعنفوان أغرّ، ثم تشعر بأصابعه تعلك كيس معدتك من داخل أحشائك، ثم تنسحب ذراعه بطيئة وتخرج معها معدتك، ويهمس والدك ما أعطيتك إياه قد عدت لأسترجعه، فما هو لك لطالما كان لي، وتستمع باهتمام حتى لتثمّن هذا الادعاء الذي قد يستلزم بعض الوقت، وهكذا تحاول أن تستقرّ في كرسيك، فتريح نفسك وتعمل وتنجح في محبّة والدك بصعوبة أكبر كلّما بقي وعيك سليمًا.

عن البحث في الجذور
فالتّحول إلى سرطان

يرى فريدريك أنّه لا شكّ في أن قالب حلوى الكريما هو من أعظم المساهمات التي قدّمتها ألمانيا إلى أوروبا وأكثرها قيمة، محاولًا أن يجد راحته داخل السقيفة الضيقة الواقعة في مؤخرة حديقة أمّه الضيقة.

تقف ليزبيث أمامه وهي ترتدي زيّ الفصح.

يكاد صبرها ينفد.

إنّه شهر إبريل. إنّه العام 1859. إنّها ناومبورغ. فرنسا وبييمونت دخلتا الحرب ضد النمسا. يدّعي كتاب جديد لمناصر بريطانيّ للطبيعة أنّنا كلّنا في الواقع قردة مزوّدة بعقول. ومع ذلك، إنّه العيد.

إنّه العيد والجو دافئ والشمس ساطعة، وفي الداخل نحلة ذات فراء كثيف تنقر على زجاج النافذة الضبابيّ.

تنعطف النحلة بعيدًا. في الخارج، أداء الطيور لا يخرج عن المألوف. تعود النحلة.

تقعقع عربة وتنقر بخطاها على الطريق، وفي الجانب الآخر من جدار الحديقة يزلط جواد العربة طعامه زلطًا.

يحاول فريدريك أن يتأمّل سكر قالب حلوى الكريما وزبدته وبراعة صنعه، لكنّه يجد نفسه عوضًا عن ذلك يتأمّل أمّه تتنقّل في غرف المنزل المظلّلة عبر فناء الحجر الصغير.

لربّما تتحقق من عمل ألفين.

في مخيّلة فريدريك، هي تتمتم لنفسها بحيرة من أمرها، فتجنح إلى السنة الماضية، أو السنة التي سبقتها، بينما ينهمك هو بالاستعداد ليخطو خطوة إلى المستقبل.

يحاول، بطبيعة الحال، ألّا يتخيّل الأمر على هذا النحو. ومع ذلك، لا يسعه إلّا أن يفعل. فيقرّ بشيء من الذنب أنّه، عندما يكون بعيدًا في المدرسة الداخلية فيتصوّرها، يجتاحه الحنين شوقًا إليها. لكن عندما يعود إلى المنزل في العطلة، ليس ثمّة ما يشعر به باستثناء تلك الحاجة للخروج من الباب الأماميّ، والرحيل بعيدًا عنها، إذ لا يعود المرء أدراجه ويبقى الشخص نفسه الذي غادر.

حاجته لها علاقة بتلك الرائحة المطبقة التي تعبق فيها الشقة رقم 18 في فاينغارتن، كلحاف رثّ لم يلفحه بعد نسيم الربيع، بذاك الجماد الجارف، وبأمّه التي ترتدي الفستان البسيط عينه شهرًا بعد شهر، ولا تنزعه إلا لتستبدله بآخر يكاد يكون مطابقًا له.

يختبر فريدريك إحساسًا مزبدًا. ومع أنّ أساتذته في بفورتا بالكاد يعتبرونه كفوءًا، كادحًا، وصاحب ضمير حيّ بين تلامذة آخرين كادحين أصحاب ضمائر حيّة، إلا أنه يقضي كلّ أمسية، إضافة إلى دروسه العاديّة، يؤلّف القصائد ويحتفظ بمفكّرة خاصة به، ويجري تجارب على بحث سيرته الذاتية حتى تتراقص الأشباح الزرق وراء جفنيه وتغشى رؤيته. لا يسعه أن يتوقف عن التفكير والشعور هذه الأيام. أحيانًا لا ينام أكثر

من أربع ساعات أو خمس في الليلة. صفحات وصفحات من الأفكار تنبسط من جبينه كشعر رابونزل[1] المنسدل من برجها العالي.

يدرك فريدريك أن معظمها صبياني تافه، مبالَغ به وغير مصقول، حِكَم ابن الأربعة عشر وقد تبرّجت، واستعارت تعابير البالغين وصياغتهم. لا ينفكّ يظهر عدم رضاه عمَّ هو عليه وعمَّ أنجزه، ويتوق للبدء بالسنة التالية أو تلك التي تليها، غير أن السنة التالية، أو تلك التي تليها، لطالما تحدث في مكان آخر أكثر جاذبيّة.

أما الرياضيّات، فتلك قصة أخرى لا داعي حتى للإتيان على ذكرها.

الرياضيات والغريب، واللغات الحديثة.

طرق الناظر على بابه بينما كان يوضّب أغراضه لهذه الزيارة، وحذّر فريدريك بعبارات ملؤها الثقة من أنّه إن لم تتغيّر الأمور في ما يتعلّق بامتحاناته الحسابيّة المريعة، وتتغير قريبًا، فمن المرجّح ألّا يتخرج فريدريك على الإطلاق، ولا يسعه كلّيًّا أن يصدّق أن الإيطاليين والفرنسيين والإنكليز لا يفكّرون سرًّا باللغة الألمانية.

طبعاً يفكرون بالإغريقية.

ومن لا يقوم بذلك؟

لكنّ فريدريك لا يسعه أن يدرك شكسبير إلا عبر الترجمة، وفولتير مزوّدًا بقاموس مفتوح على طاولته، حتى ليحملك ذلك على الاعتقاد

(1) رابونزل: قصة خيالية ألمانية من تأليف الأخوان غريم، نشرت للمرة الأولى عام 1812 كجزء من حكايات للأطفال، كانت رابونزل تنزل جدائل شعرها الأشقر الطويل من أجل أن يصعد حبيبها وينقذها. أصبحت الجملة (رابونزل، رابونزل أنزلي شعرك) عبارة معروفة في الثقافة الغربية الشعبية.

بأن الإيطاليّة هي مجرّد لاتينية مدغمة من دون الانحرافات المألوفة، مع أنّك قد تكون على ضلال تام.

من الجهة الأخرى للحديقة، ينساب ماضي فريدريك عبر غرف بيت الزقاق ذات المصاريع الزرق.

تقف ليزبيث أمامه في السقيفة الضيّقة.

يكاد صبرها ينفد.

بعد انقضاء ساعة على وقت الغداء، وجدته مع كتاب على سريره (يكاد لا يقرأ البتّة الكتاب من الجلدة إلى الجلدة، فيقلّب بحثًا عن المقاطع التي تسترعي انتباهه وتثيره ليس إلّا)، فأخبرته أنّها تريد أن تريه شيئًا ما، وأنّ عليه أن يأتي معها، وهنا بدأت تتحرك شفتاها المغناطيسيتان.

يفكّر فريدريك في قوالب حلوى الكريما، محاولًا أن يجد راحته استعدادًا لقدوم المستقبل، غير أنّه يواجه صعوبة بالغة في تحقيق ذلك. يتصوّر كيف تتهاوى كلّ قضمة قطعًا صغيرة، وتذوب تحت لسانك كمكعّب ثلج محنّط، ويوكل الأمر إلى ديموقريطوس، لكنّ أخته الصغيرة تقف أمامه ولا يسعه أن يتخيّل الأمور على نحو مغاير والآن تقول له أخته هيا.

تقول له هيا. دعني أريك.

شعرها الأشقر العسليّ مربوط ضفائر، وفستان الفصح الأبيض مزدان بوردات زرق شاحبة. عيناها بلون القصدير. يتفهّم فريدريك أنّ معظمنا لا يعيش حياته بقدر ما الحياة تعيشه. يحاول أن يتذكّر أن يذكر لها هذا الاكتشاف لاحقًا. معًا، ينهمك في البحث عمَّ يستحقّ النطق به حول الظروف الراهنة.

ويردّ، لا أدري.

تقيّمه ليزبيث لفترة تطول وتطول ثم تخور.

بالطبع لا يا فريتز. أنت لا تدري أبدًا. هيا. دعني أريك. دعني أريك ما تعلّمتُه.

لا أشعر بأنّي على ما يرام. بطني...

تنظر إليه ليزبيث كما لو أنّها تحدّق في أحجية صور مقطوعة متناثرة على الطاولة أمامها.

يا لك من طفل. يا لك من طفل صغير. هل تعلم شيئًا؟

وتصدر صوتًا أقرب منه إلى الحفيف قبل أن تستدير متّجهة إلى الباب.

وتعلن قائلة، هذا قمّة في الغباء، أنا عائدة أدراجي.

تستدير متّجهة إلى الباب، لكن ثمّة ما يستدير في فريدريك أيضًا. يعلم أنّها تعلم ما يعلم أنه سيقوم به في اللحظة التالية، وعِلمها هذا يشعره بالخجل، ومع ذلك يسألها البقاء لأنه لا يسعه أن يتمالك نفسه. تتوقّف ليزبيث، ويدها على المقبض الصدئ، وتعيد التفكير. يسمع فريدريك نفسه يعدها أنه سيكون على ما يرام. سيقوم بأي شيء تريده.

وتعود النحلة تنقر على زجاج النافذة بينما تحرّكت عربة الخيل، ويواصل الماضي همهمته متحيّرًا، بينما يجنح عبر غرف مطموسة داخل أذنيّ فريدريك.

ينزلق إبهام ليزبيث وسبّابتها نحو المزلاج. يطقطق المفتاح مقفلًا.

وتزداد اللحظة اتّساعًا، وتتحوّل زجاجيّة رقراقة مع الواقع، لتتحوّل كل زاوية من زوايا السقيفة معالم رقراقة.

أخيرًا وبعد طول انتظار، تتنهّد قائلة حسنًا. حسنًا، حسنًا يا فريتز. غير أن ذلك الصوت الذي يتكلّم معه لم يعد صوت ليزبيث. إنه صوت كوزيما.

يرفع رأسه متفاجئًا، ليجد نفسه في نزهة معها متأبّطًا ذراعها على طول المسار الثلجيّ السكريّ الذي تزيّنه أشجار الصنوبر الخضر الرمادية على الضفّة الجنوبية لبحيرة لوسيرن.

إنها تريبسين. إنه العام 1872. الحرب الفرنسيّة - البروسيّة وضعت أوزارها وصدر للتوّ أوّل كتاب لفريدريك. قرأه فاغنر، وما من عذريّة تضاهي عذريّة ظهور أوّل كتاب للمرء. فكلّ الكتب التالية التي سيكتبها ستخلص بطريقة أو بأخرى إلى الكتاب نفسه والإحساس نفسه مخفّفًا، لكنّ كتاب المرء الأوّل هو ذاك الوعد الوهّاج. وقد يطرأ أي طارئ مباشرة قبل صدور أوّل كتاب للمرء أو مباشرة بعده.

كوزيما وفريدريك يتأبّطان ذراع بعضهما البعض بمعطفيهما الشتويَّيْن الضخمين، وقد انخرطا في نقاش بغير ذات أهمية. تشير إلى الشكل الملفت الذي ترتديه شجرة أرزيّة فقدت أوراقها على التلّة المحاذية للفيلا، فيشرع فريدريك يطلق تخميناته حول فصيلة عصفور أزرق اللون بنيّ يقفز فوق الطبقة الثلجية.

إنّه يوم شتويّ مثاليّ.

يشعر فريدريك بنفسه مرتاحًا، مسترخيًا.

يتنشق الهواء البارد ملء رئتيه ويحبسه داخلهما.

على بعد أربعة أو خمسة أمتار أمامهما، لا يجول فاغنر بقدر ما يشقّ طريقه عصر هذا اليوم ببدلة الرسّام الهولنديّ، وعصا المشي المعقوفة، مطلقاً صرخات ملاحظاته حول مولد التراجيديا ومديرًا رأسه إليهما وسط سحب البخار الضبابيّة.

وتذوي ندف الثلج على غصن صنوبر مثقل. الجو شبيه بِحجْر البلق. ويعاود ريتشارد الصراخ: مذهل فريتز! مذهل! أنت المنفعة الحقيقيّة الوحيدة باستثناء عزيزتي كوزيما التي أغدقت عليّ الحياة بها! لقد بلغت منالك يا صديقي! لقد بلغت منالك! تنطلق كوزيما وفريدريك في ضحكة من القلب. وتهتف كوزيما: جميعنا يحبك يا ريتشارد! ثم تضغط على ذراع فريدريك كما لو كانا يتشاطران سرًّا.

التقى فريدريك بهما قبل أربع سنوات خلت في بروكهاوس، بعد أن هجرت كوزيما عازف بيانو متواضعًا لتكون مع فاغنر. وقد افترض فريدريك أنه دُعي تلك الليلة إلى أمسية موسيقية، فتوجّس الأمر، لكنّه عندما وصل إلى عتبة الباب ببدلة رثّة وسط وابل من المطر (وقد خاط واحدة جديدة لهذه المناسبة تحديدًا لكنه اكتشف في اللحظة الأخيرة أنه لا يقوى على تسديد بدل أتعاب الخياط)، اكتشف أن الجلسة عبارة عن اجتماع خاص. لم يسعه أن يصدّق كم تبسّم الحظّ له. لقد أراد السيد وسيدته أن يتكلّما مع عالم فقه اللغة التاريخيّ والمقارن اليافع الفذّ حول شوبنهاور، ولم يكن عالم فقه اللغة التاريخيّ والمقارن اليافع الفذ لينهل ما يكفيه نهمًا من نظريّات السيد في العمل الفنيّ الشامل والتأويل الجماليّ الذي يدمج ويخلط ما بين الموسيقى والدراما والرسم والتقليد. ارتسمت خيوط الصداقة جميلة بينهم فتبادلوا شذرات الأفكار حتى لامست عقارب الساعة الحادية عشرة والنصف، فحانت لحظات الوداع معلنة ولادة صداقة حقيقيّة بينهم.

بعد مضيّ عدد من الأسابيع، سرعان ما تحولت زيارات فريدريك إلى زيارات منتظمة يواصلون فيها أحاديثهم اللامتناهية. فأخذوا يتنزّهون يوميًّا، ويقضون الأمسيات يستمعون إلى فاغنر يعزف البيانو ويتشاطرون حول الموقدة القراءات المشتركة لروايات هوفمان الخياليّة. وفي الصباحات، شرع فريدريك يعمل على محاضراته الجامعيّة وأثمر بحثًا حول نهضة فاغنر للديونيسيّة في الفن قبل أن ينزل الخطوات العشرين من الطابق الثاني إلى الرفقة.

واضمحلت أمّه وأخته أكثر فأكثر في غياهب الماضي على مسارات لم يسع فريدريك أن يجاريها، إلى أن وصل إلى التفكير بريتشارد وكوزيما عائلته بالتبنّي، تلك التي ستشكّل هدايته إلى تلك المرحلة الجديدة من حياته.

قد يطرأ أي طارئ مباشرة قبل صدور أول كتاب للمرء أو مباشرة بعده... ثم تشرع الاحتمالات تتقلّص، وتتلاشى. أراد فريدريك أن يهب العالم قنطوراً[1] عبر إنتاج موسيقى فلسفيّة بالكلمات بدل النوطات. وتحت عباءة سعة الإدراك، أراد أن يجذب قرّاءه نحو حلبة الرقص فيبدّد أفكارهم عبر التفكير. لكنّ الواقع أنّ أحدًا لم يأتِ على أيّ ذكر لـمولد التراجيديا بعد صدوره. وقد تذبذبت بطيئة بعض المراجعات من هنا وهناك تشابهت كلّها في سلبيتها، حيث اعتبرت أن فريدريك قد غرّد خارج سرب علماء لغة مرموقين، فانتهج نهجًا فكريًّا خفيفًا للتذوّق الفني، وأطلق نكتة شنيعة حول الثقافة الإغريقية.

---

(1) Centaur: القنطور هو مخلوق أسطوري في الميثيولوجيا الإغريقية له جسد حصان وجذع ورأس إنسان، كان يعيش في الغابات وعرف عنه حبه للفلسفة والنساء وكان مفرطا في شرب النبيذ. وفي علم الفلك يرمز القنطور إلى برج القوس.

يكره فريدريك المعهد الأكاديميّ لتعرّجه بين ساحة المدينة بدل أن يمضي قدمًا بتصميم بلا مجاملة. كان العصر عصر السكك الحديد والتلقيح، وعصر الأفران العالية[1] والمخصّبات، وعصر تأسيس الأمبراطوريّة الألمانيّة، وعصر ولادة النظام البريديّ، ومع ذلك، خطا العلماء خطوات بطيئة بطء السلحفاة نحو ما لم ينفكوا يومًا عن القيام به بالطريقة هي هي، لأنّه لم يسعهم أن يحملوا أنفسهم على تصوّر أمر آخر يمكنهم القيام به على نحو مغاير. فلم يقووا على الرغبة بالمزيد. يا لها من فكرة مريعة: كيف أن عددًا مهولًا من العقول المتواضعة مأخوذة بمسائل بالغة التأثير. إن كلّ من يظهر على قدر من الغباء فيلتزم القواعد والقوانين، يستحقها عن جدارة.

ومع ذلك، ها هو هنا.

ها هو في هذا اليوم الشتويّ المثالي، يتأبّط ذراع كوزيما، ويستمع إلى أرفع فنّان في القرن التاسع عشر يبثّ في لواعجه الثناء.

لقد هلّل ريتشارد لمولد التراجيديا أمام الملأ، وعندما فكّر فريدريك في احتمال الاستقالة من منصبه كأستاذ للعمل كناشر له من بايروت، ثناه ريتشارد عن ذلك معتبرًا أنّ لفريدريك ما ينبغي أن يعلمه بعد في بازل.

ما يهمّ هو أنّ فريدريك لا يشعر فعلًا أنه بصحّة جيدة، ولا يحسّ فعلًا بالرضى إلا عندما ينتج إنتاجًا قيّمًا. والطقس هذه الأيام باعث دائم على النشاط. وما يهمّ، وما سيهمّ دائمًا، هو هذه النزهة، وهذا العصر،

---

(1) Blast Furance: فرن الصهر أو الفرن العالي وهو فرن يستخدم بصفة أساسية لانتاج الحديد والصلب كما يستخدم لغيرها من الفلزات، يتميز بهيكل ضخم عالي بخلاف الأفران الصناعية والميتالوجية الأخرى. يصل ارتفاعه إلى نحو 30 متراً.

والطريقة التي تباغت الشمس فيها الثلج على طول المسلك الذي يمتد أمامهم وقد أحاطت به الأشجار.

أخذ فاغنر يطلق صرخاته مجدّدًا وقد أدار لهما رأسه وسط سحب البخار الضبابيّة شاقًّا دربه وسط روعة جبال الألب: فكّر بالأمر يا فريتز! فكّر بالأمر! كم يتملّكني الفخر عندما أعي أني لم أعد بحاجة لتقديم أيّ تعليق حول أعمالي! يمكنني أن أترك الأمر برمّته لك! أنا بين أيدٍ أمينة! أنا بين يدي موهبة شابة استثنائيّة تفهم بدقّة لا متناهية كيف حرّر فاغنر العظيم الفن عبر التغوّط مع ديونيسيوس على المرحلة الميثولوجيّة من تاريخ العالم!

اصغِ إلى ما سأشرع بقوله!

إنّها أعمق فكرة تبنّاها فاغنر يومًا!

هل تصغي؟ لأن فاغنر يقول:تبًا بالفن للفن! تبًّا بأتباع الرموز الوضيعين! يقول تنحّوا جانبًا وتأمّلوا السيد البروفيسور نيتشه، تأمّلوا عبقريّ الطلسم البدائيّ!

إلّا أن فريدريك لم يعد في الثلج. فريدريك في العلّيّة. لقد ذهب فاغنر. لقد ذهبت أريادني. سقطت صفّارات الإنذار صريعة صمتها. قبل ساعة، بالكاد اثنتين، دخل ممرًّا موسّعًا. سطح الجدار حيث مرّر يده اليمنى بحثًا عن وجهته خشن كالفحم. حاول أن يحتسب خطاه كي يتتبّع تقدمه في الظلمة، لكنه أخطأ الرقم لما شارف على الألفين. أخذ يدلف إلى الأمام طويلًا طويلًا حتى لبدأ يخيّل إليه أنه لا يدلف البتّة إلى

الأمام. لربما توقّفت خطواته وتحوّل دمية تمشي مكانها، واضعًا يده على الجدار بحثًا عن سند له، وقد أحرق كلّ ما أوتي من قوّة.

كلّا، هو متأكّد من أنّه يمشي: الهواء الحارّ يعبر فوق رأسه، ويده لا تزال تتلمّس خطاها فوق السطح المبرغل، واثقة من أنّها ستحدّد عاجلًا أو آجلًا عورة الباب. إنها مسألة وقت لا أكثر. كلّ من يحسن الاستماع إلى الموسيقى يعلم أن أكثر ما يؤثّر في أيّ مقطوعة هو كيف تكون نهايتها.

ثم اندثر الممر. يده تتتبّع الفحم. يده تتتبّع الهواء. طوّر فريدريك نظريّتين تشرحان ذلك. الأولى، ثمة احتمال أنّ الممر قد دلف إلى غرفة مهولة، ردهة معتمة بات فريدريك عاجزًا عن تقفّي حدودها إذ أصبحت بعيدة بعيدة عنه. والثانية، ثمّة احتمال أنّ فريدريك لم يكن في الممر على الإطلاق، بل خُيّل له ذلك لأنّ الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يختبر الملل، وتاليًا هذا هو الفن.

يتوقّف لبرهة، يتنفّس، فيشعر بالحرارة المنبعثة من جسمه. ويقرّر وهو يتساءل إلى أين يذهب، ومن أين أتى، وما الذي يفعله تحديدًا هنا، وأين هو هذا الهنا، وكم الساعة في هذا اليوم، وأي قرن هو هذا، ومتى سيجد سريره مجددًا، ولماذا رحلت أريادني وهجرته على هذا النحو، وأيهما أكثر ثقلًا، الرصاص أم الشوق، ولما يواصل شارباه النمو بينما يبدو أنّ كل ما فيه مصرّ على الانقباض، يقرّر أن أفضل ما يمكن أن يحدث للشخص في حياته هو ألّا يولد في الأساس.

يمدّ يده إلى الأسفل ليريح إبزيم حزامه، ويحرّر بعض الضيق الملتف حول بطنه المنتفخ.

ثم يتذكّر أنه لا يرتدي أيّ حزام.

ثم يتذكّر أنه لا يرتدي أيّ بنطال.

ثم يتذكّر أنه لا يُفترض ببطنه أن يكون منتفخًا.

لقد اهتمّ بمسألة السوائل داخله: وهو غير مشكّك بذلك بنسبة مئة في المئة. ومع ذلك، تبدو بطنه وكأن ثمّة جنينًا يركل في الداخل.

يقرّر أن ثاني أفضل أمر للمرء في حياته أن يموت في أسرع وقت ممكن.

في تلك اللحظة سمع بابًا يُغلق بقوة.

باب؟

باب.

جفل فريدريك مذهولًا، وجفل الجنين داخله، وارتجفت يدا فريدريك بحثًا عن الأمان.

إنه ريتشارد، وريتشارد غاضب غاضب.

يجلس فريدريك وكوزيما بهدوء مطبق كلّ في زاوية مقابلة للآخر في كراسٍ فاخرة في غرفة الرسم المبهرجة في فيلّا العائلة في بايروت. يستمعان لفاغنر يصبّ جام غضبه على السلالم. يغلق بابًا غلقًا، يحوم فوق رأسيهما، يغلق آخر بقوّة، يحوم مجدّدًا، يفتح الباب الأول ثم يغلقه بقوّة من جديد.

تبلغ كرسي فريدريك من اللين والضخامة ما يحمله على الخشية من احتمال ابتلاعه. يقرّب كوعيه من أذنيه. إنّه يغرق سريعًا وكوزيما تسائله كيف له أن يقوم بمثل ذلك.

تسأله كيف لك أن تقوم بمثل ذلك يا فريتز؟ بماذا كنت تفكّر؟ ما الذي كنت بحقّ السماوات تفكّر به؟

يثبّت فريدريك النظر أمامه وهو يغرق، من غير أن يوافق على الإجابة.

إنّه منزل فانفريد[1]. إنه العام 1874. في شهر يناير، ظهر كتاب فريدريك الثاني بعنوان تأملات خارج الزمان، ولم يلحظ وجوده أحد تقريبًا باستثناء قلّة قليلة من الزملاء المجاملين. وفي شهر فبراير، رفع رأسه وأشاح بنظره عن ملاحظات محاضرته ليكتشف أنه يدرّس ما مجموعه خمسة طلاب. وفي شهر يونيو، قدّم برامز[2] حفلين موسيقيين في بازل. حضر فريدريك الحفلين. بعد ذلك، اشترى النوطات الموسيقيّة المطوّلة لمقطوعة ترايومفليد. بعد مضيّ شهرين، وضّب أغراضه لزيارة دارة فاغنر في الصيف، فوضع النوطة الموسيقيّة في حقيبته كنزوة ليس إلا.

ليس نزوة، على وجه التحديد.

لا يخفى على أحد مدى البغض الذي يكنّه ريتشارد لبرامز. يجده أحمق مكبوتًا على نحو وحده ألمانيّ حقيقيّ يدّعي أنّه ليس بالأحمق ولا المكبوت يستطيع أن يكونه.

لم يكن فريدريك ليفكّر مرتين بالموسيقى، لكنّ ذلك ليس بيت

---

(1) هو الاسم الذي أطلقه فاغنر على بيته في بايروث، وهو اسم ألماني مركب من لفظتين (وهم) و(الحرية)، تم إنشاء هذا البيت في الفترة بين 1872 - 1874 وتم تغيير الخطة الإنشائية للبيت حسب تعديلات فاغنر. نُحتت على واجهة المدخل عبارة: «هنا وجدتُ أوهام السلام، فليكن اسم هذا البيت فانفريد».

(2) يوهانس برامز: 1833 - 1897، مؤلف موسيقي ألماني من موسيقيي المدرسة الرومانسية، يعتبر امتدادا لبيتهوفن وتعتبر سيمفونيته الأولى استمرارا لسيمفونية بيتهوفن العاشرة. لم يكن نيتشه يحب موسيقا برامز، كان يعتبرها ممثلة لصعود الثقافة المتوسطة الكارهة للفنون والجمال.

القصيد عندما ترك النوطة على بيانو فاغنر في أوّل ليلة قضاها في الفيلّا، حتى يتسنى لفاغنر رؤيتها كلّما دخل الغرفة، فيعلم من أحضرها. قبل الخلود إلى النوم، وضعتها كوزيما داخل مقعد البيانو. وفي صبيحة اليوم التالي، استيقظ فريدريك باكرًا وأعاد وضعها مجددًا على بيانو فاغنر.

لقد نسي برامز ديونيسيوس، لكنّ هذا ليس بيت القصيد عندما تعمّد فريدريك عزف موسيقاه بينما كانت كوزيما عائدة مع ريتشارد من نزهتهما وسط مدينة بايروت عصر ذاك اليوم.

اعتذر فريدريك عن المشاركة بالنزهة الاعتياديّة، متذرّعًا بحاجته للبقاء في المنزل لإنجاز بعض الكتابة. وشرع يزرع خطواته في أرجاء الفيلّا حتى سمع الثنائي يعود من النزهة. فتوجّه سريعًا إلى البيانو، وجلس أمامه، وشرع يعزف المقطوعة عزفًا جهيرًا. وبينما انحنى على السلّم الموسيقي، أمكنه سماع الباب الأماميّ يُفتح ويُغلق. أمكنه سماع ضحكة كوزيما وريتشارد تنقطع قطعًا. أمكنه سماع ريتشارد يتعثّر بخطاه على السلالم كما لو أنّه تحوّل ثورًا هائجًا بلا سابق إنذار.

والآن تبتلع كرسي فاخرة ضخمة فريدريك، بينما تسأله كوزيما ما الذي كان بحق السماوات يفكّر فيه. يعصف ريتشارد ويكسّر فوق رأسيهما. نسيم الصيف دافئ مميت. تنبعث رائحة ريتشارد العابقة بالباتشولي المقززة من غرفة الرسم. يثبت فريدريك النظر أمامه، ويفكّر في ما يفكّر به. أخذ فريدريك يفكّر أن ريتشارد خدعه. هذا ما كان فريدريك يفكّر به. إلّا أنه لا يسعه أن يحمل نفسه على البوح بهذه الفكرة كاملة، لأنه لا يجد نفسه يقوى على إلحاق الأذى بكوزيما.

هذا ليس بالأذى.

هذا ليس حتى قريبًا من الأذى.

صحيح أن ريتشارد يواصل الكلام والكتابة بحماسة حول الثورة الموسيقيّة، لكنّ مشاهدته في الأماكن العامة، مشاهدته يتفاعل مع البورجوازيّة التي تكسب نفسها أهمية ذاتية، والأرستقراطييّن الطارئين، تجعلك لا ترى سوى عاصفة فنيّة تعويضيّة. ترى متزلّفًا مبالغًا في هندامه يزهو إقبالًا وإدبارًا يتذوّق الاهتمام الذي يحصده. احضر إحدى حفلاته ولن ترى بداية الغد، بل سترى أناسًا متعجرفين يهتمّون بالتهام طبق دسم واحتساء زجاجة عتيقة من الخمر أكثر من الخروج أناسًا جددًا.

لقد بدا العمل الفنيّ الشامل مؤخرًا لفريدريك يدور حول التسلية والترفيه بأيّ ثمن أكثر منه حول التحوّل الجذريّ، مشهديّة سخيفة صمّمت لإبقاء القطيع على تيهه، توّاقًا للعودة إلى المزيد.

اصغِ عن كثب، وستسمع أجنحة الملائكة ترفرف برفق بين النوطات، وفريدريك يكره الملائكة.

وتقول كوزيما، كلّمني يا فريتز. لقد كنّا أصدقاء مقرَّبين... لكم من الزمن؟ كم هي اللحظات الجميلة التي تشاركناها؟ لقد عمل ريتشارد بجدٍّ لأجلك. لقد ساعد اسمك على اكتساب الشهرة التي يستحقّها. كيف يمكنك أن تجلب ذاك... ذاك المؤلف إلى منزلنا عربون شكر؟

أراد فريدريك أن يكون أكثر حنقًا ممّا هو عليه، لكن لا يقوى على الارتقاء لما تستحقه المناسبة. ثمّة لحظة في غالبية الصداقات تصبح الصداقة لسبب غير مفهوم فيها أقلّ مما هي عليه. ثمة منحى يحاكي ثقبًا في القلب، حيث يتجرّد التاريخ المشترك والمشاعر النبيلة من كينونتهما بسهولة مدقعة، كما شخص يرفع كأس البراندي أو يحكُّ عنقه، على الرغم من أن أيًّا من المعنييَن لا يقوى على الاعتراف بالتغيير الذي حصل.

لقد كان فاغنر ظريفًا وغريبًا ولامعًا ومخلصًا. والآن تحوّل إلى علّة إضافية من علل فريدريك. يعي فريدريك جيّدًا أنّه لن يعود إلى فانفريد، ولن يعود إلى تريبشين، ولن يلتقي بآل فاغنر قبل عام آخر، أو عامين، وحينئذ بصفته شخصًا آخر ليس إلا.

ومع ذلك، تصبح الأنا صورة مجازية ويرتدي وجهه ملامح أكثر رقّة.

يبدو فريدريك متعَبًا في حلبة الأفكار.

خطوة خطوة، يطرف بعينيه فيعود إلى غرفة الرسم هذه وإلى هذا اليوم الصيفيّ الدافئ البالغ الحلاوة. يسوّي قعدته في الكرسيّ المشؤوم، ويستدير نحو كوزيما، يقترب منها، ويضع يدًا حنونًا على إحدى يديها، مبتسمًا بشيء من الحرج.

ويبقيان على هذا النحو.

إلى أن يقول أخيرًا: أنا آسف أريادني. أنا حقًّا آسف. لا أدري ما الذي اعتراني. أحيانًا أنا لست أنا ثم أصبح أنا. أنا آسف. هل تعتقدين أنه يمكننا الصعود معًا للاعتذار؟

فتتنهّد قائلة حسنًا. حسنًا، حسنًا. غير أنّ ذلك الصوت الذي يتكلّم معه لم يعد صوت كوزيما.

إنه صوت لامته. إنه صوت ليزبيث.

تتحقّق من المزلاج على باب السقيفة ثم تجدها واقفة أمامه في زيّ الفصح، وقد عيل صبرها، والنحلة الفرويّة عادت إلى زجاج النافذة.

فتقول، عليك القيام بكلّ ما أطلبه منك.

ويومئ فريدريك موافقًا.

لأن ذاك الشيء تخاله سيكون أحاديّ المسار، لكنّه شيء مختلف الاختلاف كله. انظر...

وتريه بيديها الجلفتين بعضًا من وسائل عدة يمكن معاقبة المرء من خلالها لأنّ العبيد بحاجة لأسيادهم بقدر حاجة الأسياد لعبيدهم، وهكذا نستجدي الرحمة، وهكذا نستجدي التسامح.

وتنظر إليه قائلة، قل لي ما أقوم به. أنا أقوم بأمور.

ماذا؟

قل لي ما أقوم به. قله بصوت عالٍ.

ويشرع فريدريك يقصّ اللحظة الراهنة جاثيًا إلى جانب نفسه الجاثية، فيتوسّع حول التفاصيل ويتوسّع داخلها ويشعر بأنّه في داره ويشعر بأنّه أكثر بعدًا عن داره من أي وقت مضى.

تطلب ليزبيث منه، قل لي ما أقوم به الآن، ويفعل. يقول لها ويقول لها. ويزيده فعل القول تثاقلًا ويقظة في آن.

وتضيف وعيناها بلون القصدير، وشعرها الأشقر العسلي المربوط ضفائر يتدلّى وراءها، وفستان الفصح الأبيض مزدان بوردات زرق شاحبة. قل لي ما أقوم به الآن.

يجثو فريدريك إلى جانب نفسه الجاثية على الأرض المتسخة المزدحمة، يتعرّق مدركًا إدراكًا كاملًا للمعول الملطّخ بالطين والمجرفة والمالج المعلّق على الأكباش الصدئة، والدلو الصدئ والمرشّة الصدئة على الطاولة الرماديّة المتداعية في الزاوية، والغبار المتطاير في قيظ اليوم المتنامي، ورائحة التربة العتيقة ورائحة أخته الحادّة، محاولًا لبرهة أن يتذكّر ما الذي كان يريد أن يتذكّره، ثم مستسلمًا على نحو كامل لتلك

البهجة المخجلة النائية التي تترافق مع ذاك الحدث، إذ إنّ الأفكار للذهن كما الصفراء للكبد.

وتقول ليزبيث، والآن. الآن ماذا؟

فيردّ برفق مقلّدًا خطاب أخته، تقومين بهذا.

والآن؟

تقومين بهذا، وأنا أقوم بهذا، وتقومين بهذا، ثم تقومين بهذا، ثم هذا، وهذا، وهذا...

التاسعة مساءً

أنا أعتقد...

ماذا أعتقد؟

في الواقع لست أكيدًا.

أنا أعتقد...

أنا أعتقد...

ثانية واحدة.

ثانية واحدة.

أعتقد أن أحدهم يقرأ لي.

أجل، هذا ما في الأمر: أخيرًا أحدهم يقرأ لي والمساء نضح رماديّ بطيء، وقد غادر زواري آخذين معهم ما أنفقوه من أصوات.

أنا في تلك المرحلة من الزيارة التي أكون فيها أكيدًا من أنّ أحدًا لن يزورني مجددًا. وقد توقّعت أكثر من ذلك. وأخيرًا أحدهم يقرأ لي من...

أودّ القول إنّ أحدهم يقرأ لي من واحدة من رواياتي المفضلة...

لكن لسوء الحظ، لقد أخطأت موقّتًا في موضع اسم كاتب الرواية.

اسم كاتب الرواية واسم الرواية.

اسم كاتب الرواية، واسم الرواية، واسم الأبطال البارزين فيها.

على الرغم من تلك النكسات الجليّة، إلا أنّني أذكر بوضوح تام أنّ المشهد الراهن يشكل انعطافة في السرد، حيث فلنسمهما ج ود، كانا معًا في الماضي، ولم يعودا كذلك. فبعد أن سافرا مسافات شاسعة جنبًا إلى جنب، وتشاركا العديد من المغامرات الفذّة انفصلا. وقد برزت الحوادث وكان بعضها أكثر إثارة من البعض الآخر. ثم وقعت حوادث إضافية، ممّا أستطيع تذكّره، وها هما هنا.

على المياه.

على النهر.

هما على النهر في الضباب. وبينما كانا معًا في السابق، ها هما منفصلان الآن.

ج، ولا يسعني أن أفكّر باسم أفضل، يركب العوّامة، ود المركب.

جلّ ما أحتاج للقيام به هو المحافظة على ذقني عاليًا لبضع دقائق إضافيّة، ثم يدعوني وشأني لأنام.

وهكذا، لدينا المزيد من الأدلّة إذا ما طالب أحد بها في هذه المرحلة المتأخّرة من الجدال الذي يقوده العبقريّ الهزليّ ولنسمه ي. وليس على سبيل المبالغة أن نشير إلى أنّه يعرف عن المياه في الطقس الرحيم أكثر

تقريبًا من أيّ كاتب زار هذه الحياة. قصّة أوديسيوس[1] الأميركيّ الذي وجد إيثاكا لا تطاق: لقد عرضت مرة أن أرسل نسخة إلى أوفربيك.

أوفربيك[2] أو بوركهاردت[3].

وكلاهما ردّا عرضي بكلّ احترام.

لربّما خسر النص ما خسره في الترجمة.

فلطالما يخسر النص.

لكنّ الدراما الرفيعة، وشرارة الشباب والمعرفة الضبابيّة: ما الذي يمكن للمرء أن يطلبه أكثر من عمل أدبيّ جديّ؟

أودّ أن أقول...

---

(1) أوديسيوس: هو ملك إيثاكا الأسطوري، ترك بلده كي يكون من قادة حرب طروادة، وصاحب فكرة الحصان الذي بواسطته انهزم الطرواديون.

(2) Franz Camille over Beck: 1837 - 1905 لاهوتي بروتستانتي ألماني، معروف بصداقته مع نيتشه. في بداية عام 1889 أرسل نيتشه رسائل إلى أصدقائه وكانت علامات الجنون قد بدأت تظهر في كتاباته، وعندما استلم أوفربيك رسالته سافر إليه في تورين في اليوم نفسه واستمر في زيارته إلى أن توفى في عام 1900. اضطر أوفربيك خلال تلك السنوات إلى أن يبتعد تماما عن تناول مضمون كتابات وأفكار نيتشه كي يحافظ على الصداقة التي تجمعهما، وبعد وفاة نيتشه رفض التعاون مع إليزابيث نيتشه في مشروعها (أرشيف نيتشه) واتهمها في مراسلات خاصة بينهما بأنها تسيء تفسير وفهم أفكار نيتشه، كما رفض أن يعطيها مراسلاته مع نيتشه كي لا تقوم بإعادة صياغتها وتحوير ما جاء فيها.

(3) Carl Jacob Burckhardt: 1818 - 1897 دبلوماسي ومؤرخ سويسري تنقل بين العديد من المناصب العلمية والسياسية. ربطته بنيتشه علاقط صداقة طويلة بدأت عندما كان نيتشه يدرِّس الفلسفة في جامعة بازل وكان نيتشه معجبا ببوركهارت، كما كان كلاهما معجبان بأعمال شوبنهاور المتأخرة. لاحقا، نُشرت مراسلاتهما المكثفة على مدى سنوات طويلة.

أودّ أن أقول إن أمي هي من يقرأ لي.

أجل: عيناي ليستا ما كانتا عليه، وهذا خارج النقاش، لكنّني مع ذلك أتعرّف صوتها الجميل.

عندما تنتهي، سيتركونني بمفردي.

يعود الأمر كلّه إلى قضاء المزيد من الوقت.

أنا أعتقد...

أنا أعتقد...

هنا. لقد نجحت. بضع ثوانٍ إضافيّة أخرى أنظر فيها.

أذكر عندما كنت طفلًا أستلقي إلى جانبها، جانب أمي، أستمع إليها تقرأ لي، تحت نور شمس العصر المشرقة فيما أعوم في ضباب.

كلّ يوم، قبل قيلولتي، بعد أن تضع ليزبيث في سريرها، تتوجّه أمي إلى غرفة نومي العائمة تحت أشعة الشمس، في طقس يومي واظبنا عليه حتى غادرت إلى المدرسة، فأخلع ملابسي بعناية وأتموضع تحت الملاءات، أرفع الغطاء حتى أنفي، محدّقًا متضرّعًا مخيلتي، بينما تدكّ هي بضع وسادات إلى جانبي وتشرع تقرأ.

كتب أخرى، لكتّاب آخرين مع شخصيات أخرى، هذا أكيد، لكن لا يسعني أن أعيد إلى ذاكرتي أيًّا منها في هذه اللحظة بأيّ من الوضوح الجليّ، لكني أذكر بدقّة لا متناهية الاستلقاء هناك.

أفكاري تعدو، وأنا أعوم هناك إلى جانبها في بركة الضوء المشع، أختلق الأمور في رأسي.

زمن الأيام الجميلة.

أعتقد بأنّهم يدعون مثل هذه اللحظات زمن الأيام الجميلة.

لا يسعني أن أفكّر بما هو أفضل من ذلك.

لم يكن مضمون القصص. فذلك لم يكن الجزء الأهم. بل الجزء الأهم كان صدى صوت أمي الحنون تخبرني أن التاريخ لطالما يحصل في المستقبل، وأن ذلك كلّه يخلّف تداعياته بعد مضيّ نصف قرن من الآن، لكن عند هذا العصر، ومع ليزبيث التي تنام في غرفة مجاورة، سيقرأ كلانا هكذا، قبل قيلولتي، قبل أن أجنح على لحن سردها السائل.

ج ود... هـ وز... ش وط: أذكرهم جيدًا، أيًّا كانوا، لقد كانوا معًا في ما مضى والآن انفصلوا.

على النهر في الضباب، يستمع ف إلى ص يزعق فيجدف ليحميه، غير أنّه عندما يقترب من البقعة التي يفترض أن الزعيق صدر منها، ينطلق مجددًا، وهذه المرة ليس أمامه بل إلى يمينه، فيغيّر مساره.

ثمة زعيق آخر يبرز، وقد يكون صادرًا عن الشخص نفسه أو لا، ليس إلى يمينه بل من ورائه.

ثم زعيق آخر، ليس من ورائه بل إلى يساره.

مسألة منطق بوليانيّ[1] على المدى الطويل: إذا لم يكن م لا أمام ش ولا وراءه، ولا إلى أيّ من الجانبين، فمن الواضح أن ش قد خسر والده، أم خسرت أنا والدي؟

(1) المنطق البولياني: هو أحد مواضيع الرياضيات ويعتبر فرعا من فروع الجبر والرياضيات المنطقية، يكون المتغير فيه اثنين هما الصح أو الخطأ ويرمز لهما بالعددين (1 و0) بعكس الجبر الابتدائي الذي يكون المتغير فيه أي عدد كان. ينسب الجبر البولياني للعالم الرياضي جورج بول الذي ابتكره وقدمه في كتابه الأول تحليل الرياضيات المنطقية عام 1847.

أمّي تقرأ.

تشرف القصة على نهايتها.

مخيلتي تحثّ الخطى إلى الأمام.

هذا كلّه في مرحلة من حياتي، أوقفت فيها خادمتنا أمّي في المطبخ صبيحة أحد الأيّام كي تعرب عن قلقها عاليًا، بينما أتناول فطوري، حيال الغلام الفقير الذي يعاني قصر نظر وخمولًا فادحًا حيث شاهدته يجلس في غرفة الرسم يحدّق في الفضاء لساعات وساعات.

لكن ما هذا الذي أشعر به على أصابعي، فأفركها الواحد بالآخر، أحاول أن أفركها الواحد بالآخر؟

أرفع يدي لأتحقّق منها.

أحاول أن أرفع يدي لأتحقّق منها.

لكنّ يدي ليست يدي لجهة أنّها أقرب منا من بشرتنا نفسها.

يدي رأس أفعى سوداء، تفغر فمها الزهريّ الرمادي.

سريري يعجّ بها، تمعّجات سودٍ، بعضها لا يتعدى بغلاظته سلكًا رفيعًا، والبعض الآخر ضخم طويل طول أنابيب السباكة، وثمّة اضطراب صوتيّ في الجو، لربّما هو اضطرابي أنا... أجل، أنا شبه متأكّد من أن الاضطراب الصوتيّ هو اضطرابي، اضطرابي ثم اضطراب أمّي، ها هي تمرّر يدها في شعري قائلة حسنًا،حسنًا، حسنًا، حسنًا، لأن لا يسعنا أبدًا أن نرى الأشياء التي تهمنا أو نلمسها بحقّ، أليس كذلك، لذا أجلّي ببصري إلى الأعلى.

أحشاء

ترفع رأسك وتشيح بنظرك عن ملاحظات محاضرتك لتكتشف أنك تدرّس ما مجموعه ليس خمسة، بل ثلاثة طلاب جميعهم غير كفوئين، فتضطرب أحشاؤك قليلًا عند هذا الاكتشاف. وتخطر لك خاطرة، أنّه بالنسبة للبعض فإن الوعي دار خطيرة لا يفترض البتّة دخول غرفها فرادى. ومع كلّ كتاب تنشره وكلّ محاضرة تعطيها يتراجع عدد الحضور الذين يأتون لسماعك، وأولئك الذين يحضرون يسيطرون على التوازن الحسّاس ما بين الأوكسجين والنيتروجين في صفّك، عبر وضعيّات وتعابير لا يسعك قراءتها منتظرين منك أن تتصرّف بحماقة، فتفلت الأوراق وتفقد خيط أفكار نقاشك وتقارب بأفعالك المستحيل. يمكنك أن ترى ذلك من عيونهم التي لا يسعك قراءتها. لكن لا بديل لك سوى الضغط باتّجاه تلك الهاوية التعليميّة، فتقول صباح الخير بصوت هادئ في هذا اليوم الأول من سلسلة نقاشات حول فلاسفة ما بعد سقراط، متوجهًا بكلامك إلى الساعة المعلّقة على الجدار الخلفيّ بينما رقاقات الثلج تتدلّى في الهواء خارج النافذة، ونهر الراين الأخضر العريض يتخطّى الجسور، والعبّارات الخشب تحاكي سيارات التاكسي المائيّة في الصين، ولا بديل لك سوى الضغط، فتقول في خواء ملامحهم أنا السيد البروفيسور نيتشه وسأكون متاهتكم. مهمّتي في هذا الفصل تقتصر على جعلكم تشعرون بعدم الراحة. أنت مشاهَد من ثلاثة أفراد يظهرون نقصًا

فادحًا في المشاعر، والصف يعصف بالهدوء باستثناء حركة أحشائك أنت، وليس زملائك البتّة، وجمهورك ينتظر ليرى ما ستقوم به تالياً لأنّهم بحاجة إلى الأرصدة. وما تقوم به تاليًا هو النظر إلى ملاحظاتك، ثم النظر مجددًا إلى الأعلى، فتدرك أنّ التفكير وجه من أوجه التمعّجات في الأحشاء، وأنه يولد البعض كي يكونوا إعاقات حيّة، فتُسقط سائر التعليقات في مقدّمتك وتدخل مباشرة في صلب موضوعك. أودّ أن أبدأ بالإضاءة على ملاحظة مفادها أنّ أوّل صعوبة تعترض مشكلة الفضيلة هي أن أيًّا منكم يدرك أنها مشكلة. والخطأ يقع على سقراط. لذا فقد شكّل أساس سائر تاريخ الفلسفة من أفلاطون حتى يومنا هذا، أزمة في فن تقوية الذاكرة. تتلقّف القسمات المفتوحة البادية على محيًا الشاب في الصف الثالث، فتثمّن أنّك منهمك في الحاضر في العديد من الأنشطة، لكنّ أيًّا منها يمكن وصفه على أنه تعليم. وتلاحظ كيف أن فمه مفتوح لا يطبق، فتقاطع ملاحظاتك في خضمّ تفكيرك لتسأل: هل لدى أحد منكم ربما سؤال حتى هذه المرحلة من محاضرتي؟ لكنّ فم الشاب يبقى مفتوحا لا يطبق والطالب الجالس وراء الطالب الأول بصفّين يكتفي بتدوين الملاحظات، أو ربما يواصل مراسلاته، بينما الطالب في الزاوية الخلفيّة يبدو وكأنه يقرأ نصًّا بالغ الأهمية مطبوعًا على السقف بحبر لا يسع أحد أن يراه إلّا هو، فتدرك أنّ التربية في أذهان هؤلاء هي شكل من أشكال التسلية المشوّشة، وبوسعك أن تختم الفصل عبر تمرير سلسلة استبيانات تطلب منهم فيها تقييم أدائك، فتقفز فوق الأمثلة التي تضفي نكهة إضافيّة على حديثك لتدخل في المقطع الذي يكتنز خاتمتك ولِمَ لا. ويبرز تاليًا في معرض الكلام، أن الفضيلة البشريّة قد تطوّرت من أخلاقيّات الحيوانات، رجاءً لا ترددوا في إيقافي إذا ما خطر لكم أي سؤال، وذلك يعني أننا نؤمن لأن أجدادنا المشعرين آمنوا أنّ ما يضرّ بنا هو الشر وما يفيدنا هو الخير، وليس ثمة ما يسرّني أكثر من إيضاح هذه

الادعاءات لكم. ومن نافل القول إن كل ما يتعيّن عليكم القيام به هو إطلاق شرارة تلك الشعلة. وتالياً، ترون، أن ما أساء سقراط وضعه هو التأكيد على أن الفضيلة هي الانصياع لحقيقة البيولوجيا، وليس لحقيقة الروح، وسيكون ذلك جزءًا من الامتحان، وبالتالي تصبح الفضيلة انصياعًا للعادات، وتصبح إذًا بديهيّة في تمجيد الثقافة الألمانية للعمل، حيث ينظر المرء إلى تعبير الفرد عن الخوف ككيان يدبّ الرعب في قلب كل مخلوق فانٍ، وإن كنتم تعارضونني الرأي فأرجوكم أن ترفعوا أيديكم، فهذا جلّ ما يتعيّن عليكم فعله، فقوى العضلات والجاذبيّة قد صمّمت تحديدًا لتلبّي مثل هذه المتطلّبات، ويمكننا أن نناقش هذه المفاهيم كراشدين، لذا فإن الأسئلة التي أودّ من كلّ واحد منكم أن يطرحها على نفسه مع تقدّمنا في هذا الفصل هي بسيطة، ومباشرة، وثلاثيّة بطبيعتها. أولًا، لمَ أعيش؟ ثانيًا، ما الدرس الذي يُفترض بي أن أتعلّمه من الحياة؟ وثالثًا، لِمَ أعاني كوني ما أنا عليه؟ الأمر الذي يقودني - إلّا إذا كان لأحد منكم وجهة نظر مغايرة يقدّمها حول هذه المسائل... الأمر الذي يقودني إلى حثّ كلّ فرد منكم، لحظة يحين موعد الامتحان، أن تصبحوا ما أنتم عليه؛ لا توافقوني الرأي ولا تعارضوني، بل انموا؛ واعلموا أنّ نظريّة الهويّة التي تفيد بأن «أ» تعادل «أ» لا تنطبق إلا على دائرة المنطق، وأن ليس ثمّة ما هو مطابق بحق مع نفسه، إذ ليس ثمّة ما يبقى على حاله حتى لحظة المقارنة؛ وتاليًا، عيشوا الفرحة المذهلة التي ترافق واكتشافكم نفسكم ترافصون في ألسنة اللهب الأزليّة التي ترسم أرضًا عقيمة... انصراف. شكرًا. يمكنكم الذهاب.

يستغرق الوقت ما يقارب الدقيقة الكاملة من الصمت لحثّ الشاب في الصفّ الثالث على اختلاس النظر إلى ساعته خطفًا، ودقيقة ثانية كاملة حتى يدرك أن محاضرتك التعريفيّة قد استغرقت أكثر من ثماني دقائق بقليل، ودقيقة ثالثة كاملة حتى يستجمع نفسه ويشحذ نفسه إلى طرف

المقعد ويستشير زملاءه الشباب الذين يتبادلون الهمسات، ثم يختلس النظر مجدّدًا إلى ساعته إنّما بجرأة أكبر، وبعناية، وعلى ما يبدو بتهذيب، يجمع أغراضه فيلتحق بزملائه في الخلف كعائلة صغيرة من السرقاط[1] الجزعين بقدر ما يمكن تشبيه ثلاث ثدييات بها. هنيئًا للخاملين الذين سرعان ما سيخلدون إلى نومهم. أوسع ابتسامة على محيّاك ترافقهم، وعندما ينضح صفّك فراغًا تقوم بانعطافة نحو بداية ملاحظاتك. تسعل برزانة داخل قبضة يدك وتشرع مجددًا منذ البداية تلقي محاضرتك للنفر الوحيد بين الجمهور الذي يقدّر صراحة تلك الفخامة المذهلة المتجليّة غضبًا وقتالًا.

---

(1) السرقاط أو الميركات: جنس من الحيوانات يتبع فصيلة النموريات وهو من اللواحم.

غارات رجل خارج زمانه

يخرج فريدريك من خيمته إلى ما بقي من ساحة المعركة فيتوقّف عند العتبة معلنًا للاأحد: فلنرَ ما يحمل لنا النهار في جعبته.

يمسح بنظره الخراب تحت سماء صيفيّة رماديّة.

ويستدير. يدخل خيمته مجدّدًا، يعيد التفكير في مخطّطه، ثم يئزّ مغلقًا الستارة.

يطبق عينيه، ويجلس منتصبًا على حافة مهده، متسائلًا ما الغاية من الرؤية، على وجه التحديد، إن كان ذلك مثالًا لها.

إنها وورث. إنه العام 1870. في شهر يوليو، نشر بِسمارك برقية من القيصر فيلهلم[1] عُدّلت لتبدو وكأنّها تهين الفرنسيين. بعد أيّام قليلة، أعلنت فرنسا الحرب مع أنّها لم تكن على أتمّ الاستعداد لها. تقدّم فريدريك بطلب الحصول على إجازة من واجباته التعليميّة في بازل

(1) فيلهلم الثاني: يسمى أحيانًا في المصادر العربية غليوم الثاني، كان قيصرا للرايخ الثاني الألماني إلى جانب كونه ملكًا لبروسيا، وهو ابن القيصر فريدريش الثالث. أجبر على التنازل عن العرش في سنة 1918 بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ونُفي إلى هولندا. تحالف معه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ودعاه لزيارة القدس وقد لبى الدعوة سنة 1889.

ليقدّم خدماته في التمريض للقوّات البروسية. وبعد أسبوع، ها هو هنا، عاقدًا العزم على السير نحو باريس وراء الجيش الجنوبي المتقدّم.

يسرد أن دوره في هذه الحملة، دوره الوحيد، وهو واقف مجددًا يرفع يدًا رمدة فوق رأسه ليسيطر على جسده. لا يمكن أن يكون أكثر سهولة: المساعدة على جمع الجثث والجرحى وإحضارهم إلى المناطق المخصّصة لذلك، حيث يمكن إما دفنهم أو رعايتهم. ويضيف ساردًا، حان الوقت للسير قدمًا، آخذًا موقعه مرة أخرى على المهد.

حان الوقت للسير قدمًا، باستثناء أن.

يطبق عينيه ويمسّد براحتيه رضفاته الأليمة.

باستثناء أنّ ما اجتاح رئتيه في الأمس، وهو لا يزال على بعد ما لا يقلّ عن كيلومتر من هذا المكان، بدا وكأنه لحم مشويّ متبّل بعبق البارود. البراز يصبغ برائحته النسيم. يتذوّق فريدريك طعم الدخان في حلقه.

ثم أحرزت قافلة مساعداته تقدمًا طفيفًا، ورأت ما كان حتى وقت سابق من اليوم الجبهات الأمامية. لقد استخدم الفرنسيون الأسلحة والرشّاشات لوضع حدّ للقوات المتقدمة لثماني ساعات بعدما استدركوا أنهم يفوقونهم عددًا، ويطوّقونهم من الجهات كلها. وعندما بدأوا بالانسحاب، كانوا قد خسروا ثلث رجالهم.

رائحة الرماد والدخان تتصاعد في كلّ زاوية وفي كلّ ركن وفي كلّ مكان، كما لو أنّ تنينًا خرج للتوّ من خرافته واجتاح ساحة المعركة بذيله الأسطوري قبل أن ينفث لهيب ناره. شرع فريدريك يجتاز قلب الدمار مع مجموعة من الممرّضين. وبعد سيره لحوالى العشرين متراً، تعثّرت خطاه بجذع شجرة ضخمة متفحّمة مغمورة بجزئها بأجمة من العشب

المحروق فهوى على ركبتيه. صعب. انتشله زملاؤه ونفضوا الغبار عن ملابسه. استعدادًا للمضيّ مجدّدًا، لاحظ فريدريك أن الآخرين ينظرون وراءه ويدقّقون في سبب سقوطه. نظر فريدريك أيضًا، مجدّدًا، فرأى أن جذع الشجرة الضخمة المتفحّمة لم يكن جذع شجرة ضخمة متفحّمة. كان جذعًا آدميًا ضخمًا متفحّمًا، دخل رأسه وساقاه دنيا الأرقام اللاعقلانية.

اعتذر منسحبًا وراء أجمة من نبات الزيزفون المحترق حيث ساعد أحشاءه غير المنضبطة على إراحة نفسها.

وعندما تصاعدت قهقهات زملائه عن بعد، ظهر مجدّدًا، وزرع خطاه في ما تبقّى له من ذاك اليوم يهيم عبر المراعي المشتعلة التي بدت وكأنّها تزهر أجسادًا وأجزاء من أجسادٍ، مستمعًا إلى لحن الأنين.

لا يذكر سوى القليل القليل منها. وهو بالغ الامتنان لذلك.

ومع ذلك، ما يذكره وهو يجلس منتصبًا على طرف مهده يمسّد براحتيه رمضاته الأليمة، ويحاول أن يجترع الرائحة التي تلطّخ داخل فمه، هي تلك الذراع الوحيدة التي اكتشفها على مقربة من عربة مقلوبة.

يستطيع التخمين من البدلة أنها تعود لجنديّ فرنسي.

كانت أصابعه لا تزال متصلّبة.

جثم فريدريك أمامه وانتزع ما كان يحيط بالإبهام المطاطيّ، فكسر، بضغط تخطّى ما كان ينوي ممارسته، الأصابع المتجمّدة ليعكس الكون.

وقرّر أنّه للسواد الأعظم من الفلاسفة، وقد أسدل ستارة عينيه متسائلًا كم من الوقت يحتاج أحدهم حتى يجده مختبئًا هنا هكذا، للسواد الأعظم من الفلاسفة، الفلسفة لا تعني شيئًا سود الحنين للعودة إلى المنزل.

والغرابة في الأمر أنّه في الوقت عينيه هناك، ومع ذلك بعيد كل البعد عن هناك.

الأمر مشابه لأوديسيوس، ما خلا الأمل ببينيلوب، وكلّ نهار أمسى ليلًا.

ما زالت الحالة الراهنة تدور على ما هي عليه لما يخاله فريدريك حوالى العشرين عامًا. لم يحرز أيّ شكل من أشكال التقدّم. عموده الفقري مكنسة مكسورة، قدماه بيانو كبير، عقله وعاء بوظة ذائبة. ليس ثمة ما يقوم به باستثناء الاستلقاء.

حسنًا. لقد قالها.

ليس ثمة ما يقوم به سوى الاستلقاء في هذه العلّيّة الأزليّة والنوم. لربّما يجد تليماخوس في الغد سريره فارغاً فشرع يبحث عنه.

يماطل فريدريك في فجوة الضوء، ساعيًا لاستجماع قواه استعدادًا للمهمّة المتعدّدة الأوجه التي تنتظره والتي تتمثّل بخفض نفسه إلى مستوى الأرض إيمانًا منه أنّها موجودة في مكان ما تحته. ويدرك أن العملية قد بدأت لتوّها عندما يسمع أجزاء يتألّف منها تطقّ وتتهشّم. فيتذكّر الضجيج الذي كانت الخادمة تحدثه في مطبخ أمه بينما كانت تفكّك ذبيحة دجاج على الرف.

في نهاية المطاف، وجد نفسه مستلقيًا على جانبه على الألواح الخشب وقد احتضنت تقويسة كوعه رأسه، وجمعت ركبتاه معًا كما وضعيّة حمله النكدة. يبقى هناك، مصغيًا إلى الهواء ينقل الهواء في ممرّات أنفه. وكأنّها الريح الأطلسيّة العاتية.

ثم يجد نفسه في سريره في 18 فاينغارتن، وقد غرق في ملاءاته حتى أنفه. إنه عصر مشرق مذهل. أمّه تستند إلى الوسائد بالقرب منه. تقرأ له، مع أنّه لا يسعه أن يستوعب تفاصيل القصة. فكلماتها مكتومة بطيئة كما لو أنها تتكلّم عبر أنبوب مياه.

وتسأله برفق لا متناهٍ: «لِمَ قمت بذلك يا فريتز؟ لما تخلّيت عن مركزك في الجامعة؟ شعرنا كلّنا بأنّه كان بإمكانك أن تقوم بأمر ما. لكن انظر الآن إلى حالتك: لقد شارفت على الخامسة والأربعين من عمرك، ولم تتزوج بعد، وأنا ما زلت أبعث إليك بمأكلك ومشربك وملابسك وجواربك. ما الذي جرى لك؟ ماذا فعلت بفلذة كبدي؟

يطرف بعينيه فيتراءى له فنجان أبيض فيه شاي ضعيف الخضرة موضوع أمامه على طاولة قهوة خارجيّة.

يتفحّص فريدريك بخنصره رقاقة في الصحيفة.

لقد نسي للوقت الراهن أين هو الآن. ولا مشكلة في ذلك. مؤخرًا، يحصل الأمر نفسه معه كل يوم تقريبًا. يقرّر أن يترك للزمان والمكان أن يثبتا موطئ قدمهما، ويشيح بناظريه عبر السماط الأحمر والأبيض ثم إلى الأعلى، ونعم، ها هي: لو تقف في الجهة المقابلة له، وفنجانها على بعد سنتيمترات معدودة من شفتيها وعيناها في ترقّب.

يجهد فريدريك ليتذكّر السؤال الذي طرحته لتوّها عليه، بينما يمضغ فكرة أن رأسه داخل رأس شخص آخر، وأن ذاك الرأس بدوره داخل رؤوس أخرى؛ كلّ أحد هو أحد آخر، ولا أحد هو نفسه.

وتتوه عيناه فوقها ووراءها، مارّة بدربها على شبابيك المنازل الباروكيّة. أراد القول إن هذه هي لايبزغ. أراد القول إنهم كانوا يتنزّهون.

نعم، هذا ما هو عليه الأمر. لقد أمضوا عصر ذاك اليوم يزورون كنيسة القدّيس نقولا والقصر الملكي. حان وقت استراحة الشاي. انسحب راي والسيدة سالومي ليبحثا عن مرقد باخ تحت محراب كنيسة القدّيس توما. فريدريك ولو بمفردهما لنحو نصف الساعة. بعد أسبوع، سيستيقظ تحت أقدام كنبة غرفته في الفندق ليجد أن الثلاثة قد رحلوا وأن الصداقة والحب مفاهيم بالية.

ومع ذلك، تبقى تلك اللحظة هي اللحظة الراهنة، تلك التي تُحدِث الفرق كله، والوقت متأخر عصرًا والسماء وكأنها ماطرة والنسيم عليل رطب.

فيجيب لا، لا، مستعيدًا بذاكرته معرض الحديث. أنا ببساطة لم أنجز الكثير من الأعمال الفعليّة، فجدول أعمالي مثبط للعزيمة. في صبيحة كلّ يوم من أيام الأسبوع، ألقي محاضرتي في تمام السابعة، وأيّام الاثنين، أعقد الندوات، والثلاثاء والجمعة أدرّب مرتين في النادي، وأيّام الأربعاء والخميس أدرّب مرّة واحدة. وعند كلّ مساء، وبينما أغلق باب المكتب ورائي، في طريق عودتي إلى البيت لوضع تصميم للمزيد من المحاضرات ووضع المزيد من العلامات وإعداد المزيد من التمارين، أجدني أسأل نفسي ما الذي أنجزته هذا اليوم، ما الذي قمت به وسيبقى في البال بعد ستة أشهر، وحسنًا...

تلمس لو الفنجان بشفتيها وترتشف القليل منه.

يجيش شحرور فوق الرماد القارص الذي يظلّل السوق.

تطنطن الآواني الفضّية من حولهما.

شخصٌ آخر يرفع صوته ليقول: أنا لا أصدّقك!

يشعر فريدريك براحة مع لو تتخطّى أي راحة شعر بها مع أي شخص آخر في حياته. يشعر بالخفة والرضى. يتأمّلها بزهو بينما تريح قدميها على الأرض وترفع حقيبتها إلى حضنها، تفتحها، تخرج منها سيجارًا رفيعًا وعلبة عود ثقاب فضّية.

عيون الزبائن الآخرين تسترق نظرات غير موافقة بينما تشعل السيجار. لو على وعي كامل بما يجري حولها، فتكتسب مقدارًا كبيرًا من النشوة الناجمة عما يوازيها من استيائهم، فيكتسب فريدريك مقدارًا كبيرًا من النشوة من ذلك أيضًا.

تميل بظهرها إلى الخلف، تضع ساقها اليمنى فوق ركبتها اليسرى، وتستمتع بأول ثلاث نفثات من الدخان. ثم تشرع تسعل. تنحني إلى الأمام لتبصق في محرمة. يخيّل إلى فريدريك أنها تتراءى له بقعة زهريّة وسط الورقة البيضاء.

فيسألها: هل أنت بخير؟

رئتاي بمزاج عكر اليوم. أعتقد بأنها مستاءة عابسة. أرى أنّك كنت لتصبح أستاذًا عظيمًا. أنت أستاذ عظيم. بوسعي أن أتصوّرك أمام صفّك ببزتك. هل تريد أن نتشارك الحلوى؟ تبدو التورتة لذيذة شهيّة.

شكرًا. لا أريد. يدقّق في الرقاقة في صحيفته. أفترض أنّ السؤال هو كم من الوقت يحتاج المرء لجمع أتباع له. حتى ليبدو الدافع عيبًا من عيوب الشخصيّة.

أتعلم، يجب أن تُدخل إلى معدتك في اليوم ما هو أكثر من الشاي الأخضر.

يشعر فريدريك براحة مع لو تتخطى أي راحة شعر بها مع أي شخص

آخر، ومع ذلك أحشاؤه ليست على صداقة معه. لم تكن يومًا. لقد أمضى سنوات طوال لا يتناول فيها اللحم في مسعى لإبرام هدنة معها. أقنعه فاغنر بأن مثل هذا التعهّد يتعارض تعارضًا سخيفًا مع طبيعة فريدريك. وقد أخبره ريتشارد أنّ مذهب النباتيّين هو نمط عيش لأولئك البقريّين الذين لا يتطلعون ليكونوا أكثر من أدوات هضميّة. أما الطباع المنتجة ذهنيًا، فتحتاج للدماء، كالذئاب وأتباع فايمار. لم يأكل فريدريك لأشهر أيّ مأكل آخر حتى باتت أمعاؤه عاجزة عن العمل.

يضع معًا نصب عينيه زهد الرجال العظماء، فيبتلع الشاي الأخضر المطهّر طوال اليوم، ويتناول كمّية قليلة من السمك أو الطيور مع الأرز عند العشاء، ويشرب الماء في المساء. غير أن وضعيّة نظامه الهضمي لم تتحسّن. لا بل على العكس ازدادت سوءاً. وهو لا يسعه أن يفهم ما الخطأ الذي يرتكبه.

وتصرّ لو سائلة: إذًا هل تتناول كرواسان باللوز؟

لا أعتقد... وأنت؟

وتعود إلى سيجارها الذي تحمله بين إبهامها وإصبعها الثالث كما لو كان حبّة شوكولاتة على وشك أن ترميها في فمها.

في إحدى الأمسيات من الصيف الماضي خلال العطلة في توتنبورغ، دخلت غرفته من دون أن يشعر بها (إذ كان قد ترك الباب مفتوحًا كي يفسح المجال أمام نسيم الشفق المعطّر ليتسلل إليه)، ووقفت وراءه بينما وقف أمام النافذة يتأمل آخر ومضات الشمس، ووضعت ذراعيها حول وسطه وهمست من أعلى كتفيه المشهد مثالي، أليس كذلك؟ قضيا النهار يسيران خلف خطى الماعز الضيّقة المرسومة في التلال، ويتسامران ويتناقشان حتى بات من الصعب أن يتذكّر المرء كلّ ما تكلّما

عنه. وكانت رائحة العشب الرطبة تعبق في المكان مترافقة مع إحساس بالنمو أينما كان. أخذ فريدريك يراقب الشمس تذوي، مستمتعًا برائحة البنفسج التي تعبق بها لو. وراح يفكّر كيف أنّ الوضع مثالي من جهة، وكيف أنّهما فشلا من جهة أخرى. وأكثر ما يدمي قلبه هو أن يكون هنا ليراقب لو تدّعي ساعة تلو الأخرى أنهما لم يفشلا.

وتضيف، لا أعتقد بأنه يمكنني أن أفوّت إحدى هذه التورتات. فهي تبدو وكأنّها ما ينقص هذا العصر. أنا متأكّدة أنّي أحلم بها في قرارة نفسي منذ أيام خلت.

فيردّ فريدريك، اطلبي واحدة في الحال. دلّلي نفسك.

يهلّل وجه لو فرحًا.

أنت على حق. أنت فعلًا على حق. في هذا المقهى تورتة تتوقّف عليها سعادتي الحالية.

تستمتع لو بسيجارها. أمّا فريدريك، فيمرّر إصبعه على رقاقة صحيفته بكآبة غير متوقّعة، محاولًا أن يستخلص منها استعارة. يشعر بحاضر الحاضر في انحسار. يضع نادل مجزّع الوجنتين يرتدي سترة سوداء وقميصًا أبيض وسروالًا أسود التورتة في منتصف الطاولة. لقد أحضر شوكتين. يأخذ فريدريك واحدة ويعيدها إليه. تنفض لو آخر عقب السيجار في الصحيفة وتأخذ تعبّر عن إعجابها بغنى الطبقات الرقيقة الحلوة.

ويخبر فريدريك، في اليوم الأوّل من كلّ فصل، بينما تلتقط القطع الصغيرة وتُبعدها عن هيكل الحلوى فتريحها على لسانها، تطبق فمها من حولها، تغمض عينيها، وتتلذّذ بها. في اليوم الأوّل من كلّ فصل، يدنو

منك طلابّك بيدين فارغتين. وواجبك أن تملئيها بما تملكين. تراقبينهم يعدون عبر سباق حواجز المادة، التي من وجهة نظرهم هي التزام جديد على الدوام، بينما تقفين على الهامش وراء المنصة، تصدرين التعليمات للعَدْو بسرعة أكبر، أو ببطء أكثر كل يوم. هي مسألة وقت ليس إلا قبل أن تنمو لديَّ لزامًا تلك الصعوبة، وذلك الذهول الذي يميز البروفيسور.

وتقول لو وفمها ملآن بفتات الكعك والكريما: أنظمة ومصاصو دماء لا يستطيعون رؤية أنفسهم في المرآة، بينما كلاهما يمتص كلّ ما لديك لتقدّمه ويلمّح إلى أنك لم تقدّم ما يكفي. لكن اسأل أيًّا منهما شيئًا في المقابل، ويخيّم الصمت المشين...

تبلع لقمتها. وتأخذ لقمة أخرى مع رشفة شاي.

ويخطر ببال فريدريك بينما يمرّر خنصره على رقاقة صحيفته أن لا مشكلة في مراودة الأفكار. بل المشكلة في التخلّص منها.

ويعود النادل المجزّع الوجنتين مع الفاتورة.

ينتظر فريدريك بأدب حتى تسدّدها لو.

أحشاؤه ليست بخير على الإطلاق. يحبس نَفَسه ويطلقه مجددًا ثم ينهض ويسير حول الطاولة ويساعد لو بصعوبة على النهوض من كرسيّها متقفّيًا أثر أحشائه المتقلّصة براحة يديه خلسة.

إنه في ردهة مستشفى كارلسروه، يلهث ويلهث ويتعرّق على الرغم من أنّه صباح خريفيّ معتدل من شهر سبتمبر ولم يجهد نفسه. يتأمّل السماء، يستشيرها حول خياراته، لكن يبدو وكأنّ أحدهم وجّه له ضربة سكّين إلى جانبه. يبقي عينيه نحو الأرض، فيراقب حذاءه ويلاحظ أنّه يمكن أن يستفيد من حد أدنى من التلميع.

في أرس سور موزيل، تولّت شركته الاهتمام بعدد كبير من الضحايا وعادت أدراجها معهم إلى ألمانيا. قضى أيامًا ثلاثة وليالي ثلاثًا مع زميل له اسمه موزينغل، وهو رجل عجول يصغر فريدريك بسنوات عدة، يطبّبان ستّ حالات سيئة في مؤخرة شاحنة ماشية، بينما القصف دائر والنيران مشتعلة في القرى المحيطة. عانى أربعة من الرجال عظامًا مهشّمة ولم يقووا على الامتناع عن الصراخ كلما اهتزّت دواليب الشاحنة. في المقابل، استفحلت الغرغرينا بالاثنين الآخرين.

قبل أقلّ من نصف ساعة، سلّم فريدريك وموزينغل وعدد آخر من الجنود حمولتهم إلى المستشفى.

وفي طريقه نزولًا من الطابق الثالث إلى الطابق الثاني نحو مقهى قريب لتناول حلوى بالكريما، يضرب نصل الألم مجددًا. ارتدّ فريدريك. شرعت يده تبحث عن الدرابزين.

التوى بلا أيّ حركة، منتظرًا نهاية العالم.

لربّما كان في حياة أخرى فيلسوفًا. فهو يحبّ أن يفكّر، ويحبّ أن يناقش، ويحبّ الحمّى الملتهبة عندما يضحى تفكيره حادًّا وينخرط في مشكلة مثيرة للاهتمام. أدرك أنه قادر على استنباط أفكار خلّاقة لو أمكنه أن يحرّر عقله من أصوات طلابه وصوت أمه وصوت أخته ليس إلّا. عندئذ سيصبح بإمكانه أن يستمع إلى صوته. هو على يقين من أنه سيجلب له أخبارًا مهمّة.

غير أنّ الجمود الذي أصاب تعليمه حمله على تولي منصب أستاذ، والحرب التي خاضها حملته على المكوث عند هذا الدرج. كان في منتصف العشرينات من عمره، ولم ينتج ما يستحق إمداده بفرصة ثانية. فقد أنجز ما كان متوقّعًا منه ليس إلّا. لم يخاطر أي مخاطرة.

ولو نجا من مأزقه الراهن، فسيقارب الكهلة من الطبقة الوسطى بعدد من المحاضرات الجيّدة المتوفّرة بين يديه حول أفكار الآخرين.

إنه لكابوس.

بعد مضيّ دقيقة، خرج النصل ووقف فريدريك مستقيمًا مجدّدًا متسائلًا ما الداعي لكلّ هذه الضجة. لقد هرعت صحّته مجددًا إليه. تسكّع هناك، مستعيدًا أنفاسه، ساخرًا من نفسه، ثم استكمل رحلة نزوله، عازيًا ما حصل إلى سوء التغذية وضغط الحرب.

وما إن وطأت قدماه الردهة حتى عاجله نصلٌ ثان.

وفي المسافة الفاصلة بين وقع الأقدام، أضحى فريدريك قهرمانًا منحنيًا.

احترق غشاء البطانة في حلقه. وتحوّلت الأعصاب المتفرعة من ذراعيه صراصير متدافعة. تمكن بمجهود بالغ من الانتصاب مجددًا ونجح في بذل خطوات عشر إضافية نحو المدخل الرئيس، مدركًا أن عيون الناس باتت تشخص إليه.

أحدهم يقف إلى جانبه، يسأله أمرًا، لكن فريدريك عاجز عن سماعه لأنّ أنينًا مجلجلًا يحشو تجويفة ذهنه. الصوت لوّن أشعة الشمس وقد ارتطمت بالكتل الحجريّة التي تشكّل بناء مدرّج سيراكيوز.

يكره أن يشدّ الانتباه إليه في العلن. فكلّ ما يحتاجه فريدريك فعلًا هو المضي خارجًا، واستنشاق الهواء المنعش، والتقاط لقطة من السماء، وسيكون على خير ما يرام. لكنّ قدم الفيل تأبى التحرك. أحدهم عابق بالكلوروفورم اللذيذ يقف إلى جانبه، يطرح عليه سؤالاً، يتلمّس ذراعه

ويسأله مجددًا، ثم يمسك أحدهم بكوعه الأيسر، ثم يمسك أحدهم بكوعه الأيمن، ثم تتحوّل أحشاؤه غضبًا ساطعًا.

موجة من الدماء الحارّة والمخاط تتسرّب أسفل ساقيه.

ويخلص فريدريك إلى أن الحياة المرهفة خطيئة كبرى، قبل أن يُغمى عليه.

عَوْدٌ إلى سلام الرمال.

عَوْدٌ إلى صمت الحجر.

العاشرة مساء

قالوا إنّه الزُّحار.

قالوا إنّه الزُّحار، معدة ملتهبة مهتاجة بفعل الطفيليّات، وحملوني مجددًا إلى الطابق العلويّ.

عندما استفقت، كنت أحتلّ أحد الأسرّة الواقعة إلى جانب سرير يحتلّه أحد الجنود الذين جلبتهم لتوّي.

ثم قالوا إنّه الخانوق.

الزُّحار والخانوق.

يبدو أن لا داعي لتختار بين الاثنين.

فذاك إحساس الحنجرة المتورّمة. وتلك تشكيلة السموم التي تغلي في عروقي، والاعتداءات المتنوّعة على قلبي وجهازي العصبي، وتلك الصحراء الشاسعة الشاحبة المسمّاة أرق تمتدّ أمام ناظريّ كلّ ليلة.

ثمّة ما هو أسوأ من السقوط في نوم متعثّر سرمدي حيث تفسح الأرض المجال تحتك، وهو انعدام السقوط.

عدم القدرة على خسارة العقل الطائر الذي يميّز **روبرت الطائر**[1].

عدم القدرة على إطباق عينيك لأكثر من ثلاثين ثانية قبل أن تشعر بتلك الحاجة الملحّة لتفتحهما مجددًا مع أنّك تدرك جيدًا أن ليس ثمّة ما هو جدير بالرؤية.

لا يسعك أن تحسن التفكير.

لا يسعك أن تحسن الشعور.

تفكّر، وتشعر بأنّك تشعر، وتفكر بمخرج لك في ساحة الاختبار التي أضحاها جسدك.

وهكذا.

وهكذا.

وهكذا تقصّ على نفسك الأقاصيص حتى تدفع بالظلمة على التحرك. فتخبر نفسك، كان يا ما كان، في سالف العصر والزمان، شوبنهاور يزور دفيئة في دريسدن. وقد راح ينعم النظر في إحدى النباتات هناك حتى بدأ يكلّم نفسه بصوتٍ عالٍ. فاسترعى ذلك انتباه حارس اقترب منه بحذر وسأل: من أنت؟

فأدار شوبنهاور بنظره عن النبتة وقد تملّكه الذهول. راح يدقّق بتمعّن في وجه الحارس قبل أن يجيبه: لو أمكنك أن تجد لي إجابة عن هذا السؤال، فسأكون ممتناً لك إلى آخر رمق في حياتي.

---

(1) Flying Robert: قصة أطفال ألمانية من القرن التاسع عشر عن طفل رفض الاحتماء مع باقي الأطفال من المطر، وبقي واقفا تحت المطر ممسكا بمظلته ثم طار إلى السماء ولم يره أحد بعد ذلك اليوم.

أستلقي عادة هنا، أصبّ الدمع وأصرخ وأنمو شابًا. أنا أخضع للمراقبة. ولا يبدو أمرًا غير سارٍّ بالمجمل. عليّ أن أستعرض فرط المغالاة حتى أحدّد من يتكلّم، لكن يدغدغني القول إنّ الأيّام التي تكون فيها عيناي مفتوحتين قد ولّت وأصبحت ورائي.

ويقول الانفاق، كلا يا عزيزي. أنت تستريح.

أحيانًا أشعر بما يكفيني من الثقة حتى أشعر بأنّي ما زلت على قيد الحياة لأنّني ما زلت قادرًا على إنتاج فكرة.

لا بدّ لي من أن أبقى على قيد الحياة لأنّه عليّ أن أواصل الشعور بالتفكير.

أذكر أنّي عدت إلى بازل أواخر شهر أكتوبر من ذاك العام، بعد الزُحار، بعد الخانوق. لم يعد بوسعي أن أعود إلى ما أنا عليه أبدًا. لكن، من بوسعه ذلك؟

والآن أنا محاط بيدين غير يديّ. يتمّ توضيب الوسائد من حولي. لربما هي أمّي تمرّر أصابعها في شعري.

أودّ أن أقول إنّها أمّي. كم أودّ أن أقول ذلك.

ثوانٍ قليلة ويتركني الجميع وشأني. أولًا المبولة. ثم مياه السلوك.

وتُسَرّ في قرارة نفسك، كان يا ما كان في سالف العصور والأزمان، كانت والدة غوته ترقد على فراش الموت. طرق خفيف على الباب قبل أن تدخل الخادمة حاملة دعوة لإحدى الحفلات. استمعت العجوز إليها، وفكّرت، ثم تلفّظت بردّ لم يكن مسموعًا، لكن الخادمة نجحت بصعوبة فائقة في تدوينه على قصاصة ورقيّة أنيقة.

تقول القصاصة: إن السيدة غوته يؤسفها أن تبلغكم بعدم قدرتها على حضور احتفالكم. فهي مشغولة بالموت في هذه الفترة..

لقد أصبحت شابًا في وقت متأخر جدًّا من حياتي.

في سنّ الشيخوخة الذي بلغته، تطلّب الأمر خمسين غرامًا من هيدرات الكلورال في الشهر لهزيمتي وإطفاء لهيب النيران المشتعلة داخلي، والتخفيف من تورّم عينيّ، وفكّ عقد معدتي، وتخفيض حرارتي، وحلّ إمساكي، والقضاء على بواسيري، والتخلّص من القشعريرة والتعرّق اللذين يصيبانني، ومداواة التعب الذي أحسه لدى استيقاظي، ووهن مفاصلي، والقضاء على تطاحن أفكاري.

أمّا في فترة الشباب الراهنة، فلم يعد من السهل التحكّم بي بواسطة الأدوية المخدِّرة.

فقد بات أثرها أقلّ عليّ من جلسة تدليك عابرة.

لربما فكّرت بذلك من قبل. ولربما لم أفعل.

وكما أقول، كان يا ما كان في سالف العصور والأزمان، كان هيغل يرقد على فراش الموت، يغفو بين الحين والآخر في غيبوبته ويستيقظ منها. بعد فترة طويلة من الصمت، استجمع قوته وهمس: وحده، رجل واحد، قد تمكّن من فهمي... وظلّ صامتًا دقائق عدة، قبل أن يضيف: حتّى إنه لم يتمكّن من فهمي...

بالنتيجة، تقع الحوادث العظيمة في الحياة خلال الساعات الأكثر هدوءاً وليس الأكثر صخبًا منها.

ليس في الساعات الأكثر زحمةً، بل تلك الأكثر وحدة.

لهذا السبب لا يسع الرعاع أن يبقوا على هدوئهم.

النور منطفئ. والستائر مرفوعة. والاضطراب إلى زوال.

لقد كان يومًا حافلًا.

ينزلق المفتاح مقفلًا.

وتتحوّل الخطى على السلالم ببطء إلى شذرات ذكرى.

وهكذا. وهكذا... هذا ما هو عليه الوضع، حقًّا.

هذا كلّ ما هو عليه الوضع.

ذلك العصر المتناغم للاشيء يدخل الزمن الحاضر.

لقد بدأت المتعة الحقيقية.

يدان

تراقب يدك اليمنى تحدث أشكالًا على ضوء المصباح، بينما يدك اليسرى معقوفة كما حيوان صغير أجرد على المكتب، وتوقن أنّك أخبرت نفسك أنّك ستعمل لساعة ليس إلّا بعد العشاء، لكن مضى على عملك أربع ساعات. تناولت طعامك بمفردك أسفل الشارع في مطعم فندق سيلز ماريا لأنّك دائمًا ما تأكل بمفردك هناك لأن فلسفة أرسطوطاليسيّة إلزاميّة هي أقرب منها إلى القبر كل يوم. اخترت طاولتك في مؤخّرة غرفة الطعام ودقّقت في كل صنف على قائمة الطعام. أحيانًا يكون الشاي بالغ الحدة وأحيانًا يكون الطعام كثير التوابل.. حتى المياه تبدو وكأنّها على خصام معك. فالمخاطر جمّة لا يمكن إحصاؤها وهكذا لا تتناول أيّ نبيذ ولا أيّ بيرة ولا أيّ كحول ولا أيّ قهوة ولا أيّ سيجارة ولا أي سيجار ولا أي سكّريات. تبادلت أقلّ ما يمكن من الأحاديث مع النادل وجيرانك من روّاد المطعم، لأن في هذه الأيام مجرّد سماع صوتك يثير فيك الرعب. طلبت قطعة من السمك الأبيض المشوي من دون أي صلصة، وإلى جانبها الأرز الأبيض وشريحة واحدة من الخبز بلا أيّ زبدة، وكوب شاي أخضر. وقضيت الوقت تستمع إلى الأحاديث التي تدور من حولك، فقرّرت أن أيًّا من أولئك الجالسين لا يملك أدنى

فكرة عمّن تكون. أولئك، في العالم الأكبر، الذين يعرفون جيدًا من تكون يتمنّون لو أنهم لا يعرفون. فهم يكنّون لك احترامًا لا يرقى إلى احترام غالبية معارفك العرَضيين. لقد كففت منذ زمن عن الاهتمام بالصداقة، حتى بوركهاردت صار يُقِرّ أبيك. فهذا المؤرّخ الذي يكبرك بستّ وعشرين عامًا، بعينيه الزرقاوين وشعره الأبيض المقلّم، قد وضع نصب عينيه تعداد خطاياك بدقّة لا متناهية تحت ستار الحفاظ على الصداقة، متحيّنًا أدنى فرصة خلال الأحاديث لتناول استقالتك من الجامعة، على اعتبار أنها أحدث نواقصك وعثراتك وجنحك وحماقاتك وهفواتك الاجتماعية وهرطقاتك العلميّة وتناقضاتك المنطقيّة، بإيقاع أبويّ حنون يثبت بتواضعه وأحقّيته عطشه الجليّ للسيطرة. وبينما بدأ بوركهاردت يخلط ما بين الوسن والحكمة شرع أوفربيك يستبعد كلًا من كتبك الجديدة بكلمات قليلة لطيفة في ملاحظات موجزة تثبت أنه فشل حتى في قراءة المقطع الأوّل. تعتقد ملفيدا السخيفة بأن كلّ كلمة تكتبها في حياتك هي عذر للتكلّم عنها. تلك ملفيدا السخيفة وجزعها المتواصل من أنّ عدد الذين يحبّون ملفيدا السخيفة ملء جوارحهم، كما تبغي ملفيدا السخيفة، غير كافٍ. لقد كففت منذ زمن عن الاهتمام بالأصدقاء لأنّك مهتم بعملك، وبعد تناولك وجبتك وقفت وقطعت غرفة الطعام بكلّ أدب وشكرت النادل وعدت إلى غرفتك المتكاملة، في الطابق الثاني من المنزل الكتّاني اللون، ذات المصاريع الخضر، التي تتّكئ على الجهة الجبليّة عند طرف البلدة. تقول لنفسك ستكتب لساعة من الزمن، مع أنّك عندما نظرت لتوّك إلى ساعتك أدركت أنه مضى أربع ساعات، وأنه مضى نصف ساعة على منتصف الليل. رقاقات الثلج الهشّة تتساقط في الخارج مع أنّنا في شهر يوليو، والدفاتر والمخطوطات والبراهين والدراسات المفتوحة تتكدّس من حولك على مكتبك وتفترش الأرض

وحوائجك الوحيدة: صندوق سفر خشبي ثقيل يحتوي على قميصين وبدلة احتياطيّة مسنودة إلى إحدى الزوايا وغطاؤها مفتوح، وعلى الطاولة بجانب سريرك طبق تزدحم عليه الزجاجات الطبّية. لا توجد وردة واحدة أو صورة في إطار ولا زينة، والغرفة مدفَّأة بفرن بخس الثمن أرسلته لك أمّك وينتج بخاراً ضاراً أكثر مما يبعث الدفء. تفضّل العمل في جو بارد لأنه يجعلك تشعر بأنك متيقّظ، لكن ذلك ضعف ما يمكنك تحمّله فترتدي معطفك وشالك الصوفي، وتجد صعوبة في تحريك أصابعك. وتضع نظاراتك المزدوجة وأنفك يحلّق على بعد ثمانية سنتمترات من سطح المكتب. إذا ما ركَّزت ببصرك فبوسعك أن تبصر حشرات الأفكار تتقدّم بطيئة على الصفحة. لقد أنهيت الجزء الأوّل من زرادشت في غضون عشرة أيام في شهر يناير، حيث نمت من الساعة الواحدة صباحًا وحتّى الرابعة فجراً، وأنت على وشك الانتهاء من الجزء الثاني وكلّك ثقة أن عملك الحالي قد تحوّل إلى أوبرا تأريخية. بالطبع لا يلاحظنّ أحد بالطبع ذلك فعلًا، لا يهم وبالطبع ذلك يهم. بالطبع أنت لا تكتب لهم، بالطبع أنت تكتب لهم. بالطبع أنت تكتب فعلًا للقلائل الذين سيلاحظون يومًا ما، بالطبع ستكون ميتًا آنئذٍ. بالطبع ثمّة سوء يحدث لك ولا تستطيع الجزم ما هو، بل حريّ بك ألّا تفكّر به. لا تتكلّم الكثير هذه الأيام لأنك لا تحب صوتك لكن عندما تتكلّم يبدو خطابك متداخلًا بعض الشيء كمن تعرّض لسكتات دماغية خفيفة. تنسى أمورًا. لطالما نسيت أمورًا، لكن هذه الأيام أنت تنسى أمورًا لم تكن لتنساها يومًا، وأحيانًا تنسى ما هي هذه الأمور، وجلّ ما تتذكّره هو أنّك نسيت لتوّك أمرًا. ستتوقف في منتصف المسلك المحاذي للغدير المندفع تتذكّر أنّك نسيت لِمَ أنت في هذا المسلك تحديدًا، في هذه اللحظة تحديدًا. ولم يعد بالإمكان الإشارة إلى نوبات صداعك على أنها صداع

إذ بلغت مصافًا نوعيًا جديدًا. تتوقّف عن الكتابة وتضع يدًا على أعلى رأسك وتقرأ السطور التي كتبتها لتوّك: اغفر لي كآبتي. لقد حلّ المساء، اغفر لي حلول المساء. لا يسعك أن تتذكّر ما إذا كنت قد كتبت أمرًا مشابهًا في مكان آخر (وإن كنت قد فعلت، وما إذا كان أفضل أو لا؟) أو أنك اخترعته للتو. تنزع يدك عن أعلى رأسك وتلتقط قلمك وتستعد للاندفاع لأنّك متأكّد من أنّه لا يزال لديك داخلك حوالى الثلاثين إلى الأربعين دقيقة قبل أن يتداعى شيء ما، ويحين الوقت للتوقّف في الليل. ثمّة جزيرة، قبور الجزيرة صامتة. وثمّة قبور أيضًا لشبابي. لكم غريب أن تنسى يومًا ما أنّك قمت بتأليف هذا السطر، وستنسى أنك جلست هنا هكذا تكتب. هنا هكذا وتفكّر في نسيان ما تكون قد نسيته فعلًا منذ زمن بعيد بعيد.

استحالاتي

يستخدم فريدريك عقله ليعبر شقّته المشمسة الباردة، فيتسلّل عبر الباب، ويزحف وراء الوجه العظمي للمالكة العظميّة بينما تصعد السلالم حاملة دلو التنظيف والممسحة بيدها.

عندما يستدير، يجد نفسه يدقّق في قناع زهريّ البشرة محاط بخيوط من الشعر المجعّد النحاسي على أطراف رؤيته.

أوّل ما يتوصّل إلى فهمه في ما يخص السنيورا فينو هو أنّها لا تعير الوجود الكثير من الأهمية في هذا العالم. فهي تختبر كيف يغمر نور الصباح الشتوي تلك السلالم، وكيف تواصل سحب الغبار الصغيرة صغر الإبهام نضوجها حيثما يتلاقى مسطّحان ليشكلا زاوية. وثاني ما يتوصّل إلى فهمه هو أنّه، من وجهة نظرها، فإن البروفيسور نيتزكي ليس فردًا بقدر ما هو تفصيل يتألّف من تفاصيل أخرى. إنه ذينك الشاربان الملحوظان المشابهان لمقشّة صغيرة وزوج العينين الحادّتين حدة الموسى.

إنها تورينو. إنه العام 1888. يومان بعد الميلاد.

في الوقت الراهن، يتملّك السنيورا فينو الفضول حول المستأجر

لديها. فالبروفيسور نيتزكي شبه ضرير، ودائم التحفّظ، وكثير التهذيب. يسدّد الإيجار في الوقت المناسب، وكلّما سنحت الفرصة، يذكر أصوله من طبقة النبلاء البلطية السلافية برضى تام. قال لها في أكثر من مناسبة، أتكلّم باللغة الألمانيّة لكنني أعبّر عن مشاعري بالبولنديّة.

في بعض الأحيان تصادفه يتجوّل على البسطة المشرقة فوق الفناء المغلق، ينحني قليلًا، يحدّث نفسه، ويداه تشكّلان صدى لأفكاره. ما إن يراها حتى ينفصل عنها وتتبدّل ملامحه القاسية إلى ابتسامة حنون وسلام.

فتردّ قائلة: أنا ممتازة وأنت؟

فيعاجلها قائلًا، آه أنا أموت، غير ذلك أنا بخير.

ولا تكاد تصل إلى المفرق الثاني حتى يتناهى إلى مسامعها كلماته تنطلق مجددًا في إيقاعها الخاص وراءها.

لا يسعها أبدًا أن تستبطن ما الذي يجري.

لكنّها تفترض أن هذه هي طبيعة الأساتذة الجامعيين. لقد سمعت السنيورا فينو ما يجري في الجامعات - ضجّة كبيرة حول أمور لا يمكن المساس بها، وتجمّع عظيم للقدرات البشرية. لذا فهي تفترض أنّه عمل جيّد لو استطعت الحصول عليه.

يقضي البروفيسور نيتزكي شتاءه هنا ولا يعلّم. كيف يحقّ له أن يطلق على نفسه اسم معلّم وهو لا يعلّم؟ لا أحد يزوره. ولا يتلقى سوى القليل من المغلّفات البريديّة. يختفي لساعات طوال كلّ يوم يقضيها مشيًا ولا يعود سوى لحبس نفسه لساعات إضافيّة في غرفته.

لكن تلك ليست المشكلة. فلكلّ نزيل بصمة صغيرة يخلّفها في

وعي السنيورا فينو. فالمشكلة أن لا السينورا فينو ولا زوجها قد رأيا البروفيسور نيتزكي منذ الليلة التي سبقت عشيّة الميلاد. لم يخرج من شقّته. ولا زاره أيّ زائر في فترة الأعياد. ولم يشارك في أيّ قداس في الكنيسة. في وقت باكر هذا الصباح، عندما وضعت أذنها على بابه تتلصّص محاولة الاستماع، لم تسمع السنيورا فينو أيّ صوت، ولا حتى ذلك التركيز الخاص في الجو الذي يوحي بوجود آدمي آخر في الغرفة.

وهذا ما يقلقها.

تتنقل وقد دفعتها سحب من الغبار وتملّكها الفضول وساورها القلق.

إذ قبل عامين من الآن، كان ذاك النزيل الآخر، ذاك الرجل الإنكليزي السمين الذي تنفّس الحياة كمنفاخ يسرّب الهواء. وكان بروفيسورًا أيضًا. عندما كان يكلّمها على السلالم، لم تكن السنيورا فينو تقوى إلا على تخيّل رئتيه الممزّقتين ترتعشان داخل قفصه الصدري.

اختفى خلف باب غرفته لنحو الأسبوع قبل أن تلاحظ الأمر هي وزوجها. وبطبيعة الحال توجّها إلى غرفته وطرقا الباب. لم يجب أحد. فدخلا بواسطة المفتاح الرئيس. كان الرجل الإنكليزي السمين جالسًا في كرسيه الخشبي على مقربة من النافذة، ورأسه إلى الوراء في حالة ذهول، بينما يقدّم فمه لحنًا صامتًا. ذراعاه السمينتان تدلّتا كنقانق سمينة على ردفيه السمينين. لا تزال فلّينة الزجاجة التي ابتلعها ظاهرة في مؤخرة حلقه الأسود السمين.

لم تهوَ السنيورا فينو وزوجها وفاة الناس في نُزُلهم.

وراح النزلاء الآخرون يثرثرون.

وتراجعت الأعمال.

ثم تعيّن على السنيورا فينو أن تلمس الأثاث نفسه الذي لمسه الموت، وقد خلّف الموت لا محالة بقايا زيتيّة أصابتها مع ذكريات الغرباء.

ذاك الصباح، بعد أن وضعت أذنها على باب البروفيسور نيتزكي ولم تسمع أي صوت، توجّهت مباشرة إلى كشك الصحف الذي يديره زوجها في زاوية الطريق مقابل موقف الأجرة وأخبرت السنيور فينو بما جرى. استمع السنيور فينو إليها، بينما ينتف عن عنقه الجاف شعر لحيته الحمراء المرقّطة، وعندما ختمت السنيورة فينو كلامها، طلب منها أن تحضر الممسحة ودلو التنظيف وتتوجّه إلى الأعلى وتسترق النظر من خلال فتحة المفتاح.

كان الرجل الإنكليزي السمين يحضر غلمانًا إلى غرفته. غلمانًا لا يتعدى عمر الواحد منهم الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. وكان الأمر مقززاً جعل السنيورا فينو تتخيّل خيالات. لكن الثنائي فينو كان أوّل من أقرّ أن الرجل الإنكليزي السمين لم يكن ليحدث أي ضجة مع جرائه. بل اتّسم بالتحفّظ وأخذ يسدّد الإيجار في الوقت المناسب.

وشرع السنيور والسنيورا فينو يردّدان عِشْ ودَع الآخرين يعيشون.

ثم راح ذاك المخنّث الشاذ وخنق نفسه حتى الموت.

خطت السنيورا فينو على البسطة وقد دفعها وعيها لسحب من الغبار واجتاحها الفضول وساورها القلق، فتوقّفت لتلتقط أنفاسها في ضوء نور الصباح الشتوي.

انحنت لتضع دلو التنظيف والممسحة، ثم استقامت وقد أدركها التثاقل الغريب في غرفة البروفيسور نيتزكي. لقد استيقظت السينورا فينو على أقدام متورّمة، وفواتير غير مدفوعة، والكثير الكثير من الغرف،

وآلام في الظهر، والكثير الكثير من الغبار المتطاير. والآن، يبدو وكأنّ أحدهم يعيد توزيع الأثاث في الداخل. غير أن إعادة توزيع الأثاث فعل محظور تمامًا. فلو سمحت لأحد النزلاء بتغيير موضع قطعة واحدة، سرعان ما سيسألك تغيير قطعة أخرى. اسمح له بتغيير تلك الأخرى، وسيلحق الدمار الشامل ببياتسا كارلو ألبيرتو.

تستكشف السنيورا فينو البسطة بحثًا عن مستأجرين ضالّين، وعندما لا ترى أحدًا تفترض ما هي على يقين من أنه انحناءة بعيدة كل البعد عن أي كياسة أنثويّة في ثقب المفتاح.

تنحني نحو الفوهة الميكانيكية وتطبق عينها اليسرى وتثبت اليمنى تلتقط بها نظرة شاملة خاطفة. وسط ذلك، تطير يدها العظمية إلى فمها. من الجهة الأخرى للباب نظام مختلف للأمور:

البروفيسور نيتزكي يؤدّي رقصة. يتمايل في رقصة فالس مع نفسه، فيقفز على السرير ثم ينحني كما القرد، قبل أن يثب مجددًا على الأرض في حركة أنيقة، ماذا تسمونها، البروته، ومع كلّ لفة يدور في نصف المساحة الفارغة تقريبًا من شقّته. يلهث نفسه ويصفر صدره بينما عيناه مغمضتان وبشرته قرمزيّة مبقّعة وهو عارٍ.

البروفيسور نيتزكي عارٍ وأعضاء رجولته تتمايل معه.

حذاؤه وجواربه وقميصه وربطة عنقه وبدلته تتناثر كلّها على الأرض وقد اختبأت عن الخزانة الصغيرة في الزاوية. يغرف ملابسه الداخليّة ويضعها فوق رأسه، كما ذاك النزيل من أميركا الجنوبية الذي لبس، ماذا تسمّونه، تلك القبّعة الصوفية البوليفية. ثم يختفي البروفيسور نيتزكي.

تميل السنيورا فينو أكثر فأكثر مثبتة عينها اليمنى في الفتحة تبحث فيها، وقد تملّكتها الحيرة، بينما تواصل يدها كَمّ فمها.

كلّ ما في الغرفة ارتدى سوادًا كما الجهل.

تدفع السنيورا فينو بنفسها قدمًا وتعيد تعديل وضعيّتها، لكن كما لو أنّها تنظر في بئر عند منتصف الليل. تحتاج لبضع ثوان تدرك بعدها أن البروفيسور نيتزكي يجثو مباشرة في الجانب الآخر من الباب، لربّما على بعد ستة سنتمترات ليس إلّا من وجهها، يحدّق بها، ويرسل مجرّته من خلال ثقب المفتاح إلى مجرّتها.

يتكلّم بين صفرتين ونفسه مقطوع. صوته المنخفض المكتوم يبدو وكأنه ينبعث من وراء عيني السنيورا فينو الشاخصَتَيْن. يقول صباح الخير دونا فينو. هل صادف ورأيتِ السماء اليوم؟ إنها تتجلّى بكل عظمتها الزرقاء، وهي أكثر زرقة من الزرقة عينها، لذا لا مجال للخطأ هنا، ويسعدني أن أعلمك أنّها غير ممكنة، بوسعك قول ذلك، لذا علينا أن نعتبر مثل هذا اليوم خسارة إذا لم نرقص أقله مرة واحدة، أليس كذلك؟ لذا هل أكون على قدر بالغ من الجرأة والغرور إن سألتك لو تتفضّلين وتشاركينني في رقصة سريعة؟ عليّ أن أقرّ أن مشاركتك لي لهي شرف عظيم. تعالي، دعيني أفتح قفل الباب... دعيني أفتح قفل الباب ثم تحية سريعة لتيربسيكوري قبل أن يعاود كلانا عمله. أريد أن أريك كيف تنمو حواجبي. تلك هي قوّة أختي الملفتة. ماذا تقولين؟ تحرّر من السيطرة. تحرّر من السيطرة. دع الآلهة ترقص فيك...

جلبة تتراوح بين الثغاء والزقزقة تصدر من الجانب الآخر للباب، ثم يصلصل دلو التنظيف مستقرًا على جانبه قبل أن يتدحرج وقع أقدام ثقيلة مختفيًا على السلالم.

يقرّب فريدريك عينه أكثر من ثقب المفتاح ليكتشف أنه لا ينظر إلى بسطة اللوكندة التي ينزل فيها في تورينو، بل إلى الريف الإيطالي الشمالي الذي يتدافع بقعًا خضرًا بنيّة. لا تلقي لو برأسها على كتف أمها، والسيدة سالومي لا تمسح بناظريها المشاهد الطبيعية من تحت قبّعتها الريشية، وراي لا يقرأ صحيفة سويسرية.

في أماكنهم، أوفربيك بأذنيه الصغيرتين يراقب فريدريك بعينين أنهكهما التعب، وبوجه منتفخ متّسخ، وشفته السفلى تورّمت كما لو أنه يمتصّ إصبع تبغ معلوك. إلى جانبه يجلس رجل شاب يضع نظّارات وعنقه كعنق النعامة. أما ذراعاه فتبدوان وكأنهما نبتتا في عموده الفقري كجانحَيْ دجاجة.

يبتسم أوفربيك بينما يراقب فريدريك وعلامات الوهن بادية عليه. فيردّ له فريدريك الابتسامة. ويبتسم الرجل الشاب الذي يضع نظّارات لأن الجميع يبتسم.

لا يبدو أن فريدريك يقوى على تذكّر الغاية من مثل هذا التلاعب في الجزء الأسفل من الوجه، لكنه متأكّد من أنه يتعين على المرء أن يساوي هذا مع ذاك.

ينظر فريدريك من النافذة وهو يبتسم.

تشكل جبال الألب المتشامخة خطّ الأفق الذي يشكّل إطار العالم. وراء ذلك حيوانات كراكن وأمّهات. يشعر فريدريك بعدم الارتياح ثم يراوده تساؤل.

وبينما يعمل على صياغته، يلفته أمر آخر: فريدريك يبتسم لأنّ فعل الابتسام هو ما يفترض بك أن تقوم به في حضرة أصدقاء. فالأصدقاء

أشخاص يساعدون بعضهم البعض. لقد ساعد أوفربيك فريدريك عبر قراءة كتب فريدريك لنحو العشرين سنة حتّى عندما لم يقرأها أوفربيك جيدًا، وساعد فريدريك على الطرق على باب فريدريك عندما لم يطرق عليه أحد آخر.

أدخله فريدريك، وعبر الغرفة متّجهًا إلى البيانو المنتصب في الزاوية، وأثبت له على وجه التحديد لِمَ موسيقاه مستبصرة.

شرح بينما يعزف كيف يكون أحيانًا فريدريك، وأحيانًا أخرى يكون رجلاً اسمه هانسفورست، وفي كلتي الحالتين ألقى بناظريه على البيضة المشقّقة البادية أوعيتها الدموية والنامية على السقف، كبيرة بحجم كرة قدم رطبة برمائيّة.

ومع كل وتر يعزفه، تُضخّ داخله نسخة جديدة من المستقبل.

هنا رأى فريدريك راي يصعد سكّة الحديد ويقفز إلى مماته من على الجسر الذي كان يقف عليه مع لو لدى مواعدتهما.

هنا رأى فريدريك امرأة صلعاء اسمها إيموجين، كلا، إينغريد، كلا، إيلكا، كلا، إيموجين، تسير في شارع محترق في دريسدن، ساحبة وراءها ما تبقّى من جلدها. تلتف خصل شعرها الداخن وراءها وتجرّ قدميها المتفحّمتين كما الأرواح.

من نافل القول إنه لا يسعك أن ترى العامّة الآن. أخذ فريدريك يشرح ذلك للوحة المفاتيح التي تولّت بدورها الشرح لأوفربيك. يجزع العامّة جزعًا من رؤوس أقسام اللاهوت وذكريات نسائهن المتفهّمات والأمسيات التي قضوها جميعهم معًا يثيرون القيل والقال حول الجامعة ويتداولون أمور السياسة التافهة.

وبينما كان فريدريك يفكّر في تلك النقطة الأخيرة، ظهر الرجل الشاب الذي يضع نظّارات وعنقه كعنق النعامة عندِ مدخل شقّته. عرّفه أوفربيك على أنه السيد ميسشير. أخبر السيد ميسشير فريدريك عن الرجل المهم في بازل الذي يتوق للقائه. وأضاف أوفربيك، لا بدّ أولًا من الحصول على قسط جيّد من الراحة خلال الليل، حتى يتمكّنوا من اللحاق بأوّل قطار عند الصباح. والرجل المهم (أمير أو ناشر، لا يستطيع فريدريك أن يتذكّر أيًّا منهما) سيلتقي بالفيلسوف لو أحسن الفيلسوف التصرّف في الرحلة ليس إلّا. هل سيقوم فريدريك بذلك؟ هل سيحسن فريدريك التصرف؟

سيقوم فريدريك بذلك.

قام فريدريك بذلك.

وها هو فريدريك، يستعجل المضيّ نحو إطار العالم المخلخل، والجميع يبتسم إذ هذا ما يقوم به الأصدقاء بالجزء السفلي من وجوههم عندما يكون الواحد منهم على مقربة من الآخر.

يصبّ فريدريك تركيزه على الجلوس ثابتًا، الجلوس منتصبًا، الجلوس كما يجلس بروفيسور فعلي. قدماه تبغيان الحراك. يقاوم الرغبة الملحّة. يرفع يده كما تلميذ نجيب وينتظر أن يلبيّ أحدهم النداء.

يتبادل السيد ميسشير النظرات مع أوفربيك. يومئ أوفربيك لفريدريك ويقول:

سيد نيتشه؟

يقف فريدريك ويفكّر مليًّا بسؤاله قبل أن يطرحه. لو كان أميرًا، فسيتم تقليده فارسًا. ولو كان ناشرًا، فستتم قراءة كتبه. ليس الوقت متاحًا لتقديم الشكاوى.

ويعلن بفيض من التهذيب، يبدو أنّني لم أعد أقوى على التيه. هل بوسع أحد منكما يا سادتي... هل بوسع أحد منكم أن يوافق على مساعدتي.

فيردّ أوفربيك منهكًا: بالطبع سيد نيتشه.

ويتبادل أوفربيك وميسشير المزيد من النظرات، ثم يستدير الأخير في جلسته، ويمدّ يده إلى داخل جيب سترته، ويستخرج عقار الكلورال.

فيردّ فريدريك، شكرًا. شكرًا جزيلًا.

ويعود إلى مقعده مبتسمًا، ومنتظرًا ببالغ الصبر أن يصبح أحدًا آخر.

خارج النافذة تحوّلت الأشجار كلّها التي تصطف على طول الطريق الوسخة إلى أذرع بشريّة. أيادٍ تركب الدرّاجات الهوائية في دروب رجراجة وارفة. أيادٍ في قبّعات كبيرة واسعة من القش تقطع عبر المراعي.

وفوق المساحات الخضر البنّية، أيادٍ أصغر حجمًا تحوّق في سماء الشتاء الصافية.

تصطاد.

الرجل البالغ الأهمّية في بازل، اسمه ويلي. لم يتعدَ طوله ارتفاع خزانة لحفظ الملفّات. وكان يضع زوجًا من النظّارات المثبتة على قصبة أنفه وقد وصلها بصدر سترته بسلسلة ذهبيّة، وراح يفكّر بجلبة عارمة حتى لأمكن فريدريك سماعه من غير أن ينبس ببنت شفة. قام فريدريك بمصافحته بوقار عارم مجيبًا على عدد من الأسئلة المثيرة للاهتمام وتلك الأقل إثارة. وفي خلال أول استراحة قطعت الحديث، سأل مبجّلًا ما إذا كان ويلي أميرًا أو ناشرًا.

فردّ ويلي بلا أيّ تردّد، أمير.

فسأله فريدريك: هل لك إذًا أن تهتمّ بإنشاد أغنية الغوندولا معي؟ أنا متعَب من رحلتي وأجدني أجرؤ على القول إنّنا على طرفَيْ نقيض نفكّر على النحو نفسه.

فأجابه ويلي بالقول، لربّما لاحقًا سيدي البروفيسور نيتشه. أخشى أنّه يتعين علينا أن ننتهي بعض الأمور أولًا. هل يعنيك أن ترافقني؟ يسرني كثيرًا أن أريك سائر أقسام قصري.

التفت فريدريك إلى أوفربيك وميسشير اللذين كانا واقفَيْن بالقرب من الباب داخل مكتب ويلي وغمز لهما.

ثم سألهما هل ترافقاننا أيّها السيدان؟ أنا متأكّد من أن معاليه سيشاطرني الغبطة نفسها إن رافقتمونا.

في غرفة فارغة في الطابق الثاني، طلبوا من فريدريك أن يرتدي رداء أبيض جذّابًا وقدموا له كأسًا كبيرة من الخمر الملكي. ساعدوه للاستلقاء في السرير، وأخبروه أنه يتعين عليه أن يحاول النوم قليلًا قبل سهرة المساء، ثم انسحبوا مستأذنين. وعلى الرغم من التعب الذي حلّ به نتيجة الرحلة، إلّا أن فريدريك لم يسعه أن يستلقي على الفراش. حاول أن يستلقي على ظهره، أو يتمدّد على جانبه الأيسر، أو أن يلقي بثقله على جانبه الأيمن. بعد كثير من التقلّب والدوران، وجد أنّ أفضل وضعيّة يمكن بلوغها تكمن في جلوسه على كعبَيْه في أبعد زاوية.

وصلت أمّه بعد يومين. انتحبت بكل فخر عندما شرح لها كيف أن المحاكم العليا في أوروبا قد اكتشفت بعد هذه السنوات كلّها ذلك

الحيوان غير المحدّد الذي يدعى فريدريك نيتشه. ألم يعِدها يومًا أنه سيثبت لها أنّه يستحقّ كلّ ما تكبّدته من عناء؟

بعد ظهر اليوم التالي، واصل موكبه المسيرة نحو جينا لملاقاة أوتو بينسفانغر الموقّر، الذي تشير الشائعات إلى أنه يسيطر على ألذّ أنواع الكرز. تناول فريدريك نهمه ونام لأشهر عدة حتى استفاق يومًا بفعل قوّة الشموس الأربع التي تشرق من خلال نافذته. ركع في زاويته مراقبًا كيف تتموّج أشعّتها عبر سماء بعد الظهر. ثم تنبّه إلى أنها ليست خارج نافذته؛ بل ها هي تتزحلق وتنحدر وتلتفّ فوقه. في غرفته يراعات لا يتعدّى حجمها حجم قبضة يده، وذيول شيطان البحر الهيفاء الطويلة تعقبها. وقف فريدريك يحاول أن يلمس أحد الحيوانات المنويّة الخفيفة. في البدء، بدت لغته ثابتة، ثم صارت كآلاف الأطفال الصغار يحاولون التكلم معًا.

يقال إن للأرض بشرة. وللبشرة الكثير من العلل. رجاءً قل وداعًا لصنفك نيابة عنّا. بدا الأمر غبيًّا كسولًا أنانيًا لكنه تميّز بحسّ مذهل في العمارة.

عندما استعاد فريدريك حواسّه، لم يقوَ على تذكّر ما حصل منذ شهر نوفمبر باستثناء تلك الزيارة الخاصّة. لم يعد واثقًا ثقة مطلقة أين كان. لكن ما يهم أن الملاءات التي ينام عليها نظيفة فشعر بالانتعاش بينما النسيم يدغدغ رأسه. عقله ثائر وجسده وخّاز.

خرج فريدريك من سريره ومزاجه جيّد وعبر الغرفة وأزاح الستائر. فوق الأسطح الطينية القرميديّة تلألؤ ذهبي خضّب زرقة السماء البيضاء. لو طُلب منه أن يخمّن، فلربّما الوقت في الصباح. لو طُلب منه أن يخمّن، فلربّما الفصل هو فصل الربيع. لو طُلب منه أن يخمّن، فلربّما أنه يقف في منزل أمّه في غرفة نظيفة في الطابق الثاني حيث ترعرع.

لذا لا بدّ من القيام بنزهة. لكن عليه أولًا أن يرتدي ملابسه ويحدد مكان دفتره وقلمه. ثم يشرع في رحلة تسكّع يحتفل فيها بهذا اليوم المثالي الذي لا تشوبه شائبة. يبدو أنّه يتذكّر أن أمّه تطلب منه أن يتذكّر أمرًا في وقت سابق.

ثانية واحدة.

ثانية واحدة.

أن ينتظرها.

أجل، هذا ما عليه الأمر: أن ينتظرها لترافقه إلى السوق.

أولًا أن يرتدي ملابسه، ثم يحدّد مكان دفتره وقلمه، ثم ينتظر أمّه عند الباب الأمامي، ثم يخرجان معًا للاستمتاع بالجو اللطيف.

من وراء القناع الذي ما هو إلا وجه أوفربيك، يبدو العالم باهتًا.

تتشبّث الكآبة بأقدام الطاولات.

تصبح الإشراقة مرضًا.

الرجل المستلقي في السرير أمامه هو أكثر غرض مهمَل رآه في حياته.

إنها مدينة ناومبورغ. إنه العام 1895. شارف شهر سبتمبر على نهايته، وبينما يقف أوفربيك هناك على حافّة السرير في الغرفة التي ترعرع فيها صديقه القديم، تستحضر فريدريك فكرة أن هذه ستكون الزيارة الأخيرة لأوفربيك.

يتآكل الندم أوفربيك. يختبر شعور فعل الخيانة من وجهة نظر الخائن، ومع ذلك، هو يعلم أنّه لا يملك الشجاعة التي تخوّله السعي لتكرار أحد

هذه الأمور الرهيبة. ينظر إلى نيتشه يرقد هناك، شبه واعٍ، يجفل لا إراديًا، فيحاول أن يتخيّل أن أيًا مما حصل فعلًا قد حصل فعلًا.

لربّما تعرّض صديقه لحادث طفيف. لربّما وقع. لربّما سيستعيد عافيته قبل أن يعي ذلك. ففي النهاية، قبل سنة ليس أكثر، كان باستطاعة أوفربيك التنزّه معه في الشوارع لساعات خلت. نيتشه عرفه وعرف نفسه جيدًا. لقد تحادثا مطوّلًا حول الكتب والمعتقدات والأصدقاء المشتركين. ثم بعد ظهر أحد الأيّام الربيعية، توقّف نيتشه في منتصف جملته في منتصف الطريق، وبدا على حين غرّة غير أكيد أين هو، فرأى أوفربيك في عيني صديقه المرتعبتين أن لا سباحة خلفيّة بالنسبة إليه. فالأمواج عاتية والمد يسابق الجزر.

قال نيتشه: أودّ أن أعود إلى المنزل الآن. فمفاهيمي تدلق دلقاً. لذا أودّ أن أغتنم هذه الفرصة لأعتذر مسبقًا عما سيقوم به بعضٌ مني.

أفادت ألفين أنه بالكاد تمكّن من النوم بعد ذلك. ونتيجة أرقه الليليّ، قضى أيامه مرهَقًا في سريره. أحيانًا، وبينما كانت تنظّف الطابق السفلي، كانت تسمعه يسخط فجأة حنقًا عليها، فيشتمها ويضرب بالحائط. لكن ما إن تسرع إلى الأعلى وتشرّع الباب، حتى تجده قد تدثّر في سريره محدّقًا بفتور بالسقف، مصارعًا الرغبة بالبقاء يقظًا.

ويفكر أوفربيك بينما يقف أمام سرير نيتشه، بعدما تقطع شوطًا في الحياة، غالبًا ما تتمسّك بأصدقائك وإن كنت تجد صعوبة في تحمّلهم. وذلك حتى تجد أحدهم يندم على رحيلك. تمسّك بهم قدر ما أوتيت من عناد، ومع ذلك سيتلاشى أصدقاؤك في نهاية المطاف. بعضهم ستزهق نفسه قبل أن تزهق نفسك. وبعضهم ستجد صعوبة في اكتشاف انسحابهم من حياتك فيختفون، إلى أن يأتي يوم ويخطر في بالك بشيء

من الصدمة الخفيفة أنهم ذهبوا، وذلك منذ سنوات. بعضهم سيفكّ وثاق العلاقات معك عمدًا، أو تفكّ أنت وثاق العلاقات معهم، إذ كلّما تتقدّم في السن يصبح شبه مستحيل ألّا تبدأ بكره الآخرين لما هم عليه وما يقومون به وما لا يقومون به وما ليسوا عليه.

يتصوّر أوفربيك نفسه يهز نيتشه برفق كي يعيده إلى وعيه، فيحاول أن يصوغ بعض كلمات فراق قد يودّع بها صديقه. شيء من قبيل كم أنه، أوفربيك، قد طمح دومًا بحياة عاديّة نسبيًا، وكم لم يكن ليعيش حياته على نحو آخر، يوم هادئ متوقّع بعد آخر، حفلة عشاء بعد أخرى، كتاب جديد بعد آخر، نقاش في أطروحة بعد أخرى، نزهة مع زوجته بعد أخرى، محاضرة حول المواد المألوفة بعد أخرى، ومع ذلك، كيف أن جزءًا منه لطالما حسد نيتشه وأُعجب به حتى لإدارته ظهره إلى ذلك كلّه في قارعة شارع قبل عقد من الزمن ونصف العقد، والمضي.

ويترك أوفربيك للزمن المجال كي يتّقد من حوله. يسمح للغرفة أن تحلّق تحت الضوء البائخ الشاحب. ثم يعبرها متجهًا نحو الباب ويخرج منها.

يسأل فريدريك المرأة التي يجدها تمسّد رأسه في حضنها: هل لربّما أنت أمّي؟

فتردّ عليه المرأة، أنا هي يا غالي. هل استيقظت الآن؟

يعجز فريدريك عن رفع رأسه فيستخدم رؤيته الجانبيّة ليستطلع محيطه.

ويسأل: هل لربّما نحن في المنزل؟

نحن في غرفتك. في الخارج أمسية خريفيّة جميلة. يمكنك أن تتنشّق

عبق أوراق الخريف من خلال النافذة المفتوحة. هل بإمكانك أن تخبر أمّك عن عنوانك؟

ويركّز. ويقول بعد برهة: إنّه نفسه دائمًا. فتجيب: نحن كلّنا فخر بك. هل تعلم لماذا؟

أعتقد أنّي كنت أعلم في ما مضى الإجابة عن هذا السؤال، لكن يبدو أنّي غير قادر على أن أتذكّر ذلك بأي وجه من أوجه الدقة في تلك اللحظة.

خلناك قد فقدت إلهنا العزيز للأبد، لكنّك قد وجدته مجددًا، أليس كذلك؟ هل تذكر ما قلته هذا الصباح عندما أخبرتك أن صديقتنا إيفا قد قُبضت إلى رحمة الله في الليل؟

فريدريك ممدّد بلا حركة، يقتل الوقت.

قلت: طوبى للذين يموتون في الرب. هل تذكر؟

يحاول أن يهز رأسه نفيًا.

حسنًا، لا يهم. ما يهم هو أنّك أثلجت قلب أمّك. أما أبوك، فيبتسم لك من عليائه في مكان ما. هل تستطيع أن تراه؟ عليك أن تستمع إلى أختك. تتكلّم وتتكلّم.

يستشعر فريدريك بلبلة. ثم تنحني أمّه بكل ثقلها. يشعر بنفخة الهواء الخفيف الذي تحدثه انحناءة الجزء الأعلى من جسدها. يشعر بالقبلة الجافّة التي تطبعها على عقله من خلال جمجمته.

شعور يشبه تحديدًا المشرط.

القسم الثالث

عن الرؤيا والأحجية

الحادية عشرة ليلاً

تعلّمت عندما كنت في السابعة من عمري... السابعة أو الثامنة... تفوتني السنة المحّددة... تعلّمت عندما كنت غلامًا، أيًّا كان عمري، أنّه لا أسهل من أن تستقرّ في صلب فقرة.

في صلب الفقرة، تعي خطّ طولك وخطّ عرضك.

تعي من أي جهة تعصف بك الـ«أريد».

ثم قالوا إنّها الحمّى القرمزية.

قالوا يومًا إنّها الحمّى القرمزية، وللأسبوعين التاليين بات يوهانس دي سيلانسيو طريح هذيان الحمى، وطفح الحروق الشمسية والحلق الملتهب، يتعلّم أن الاستقرار في التحولّات هو أصعب ما يكون في الوضع الراهن.

الاستقرار في التحولّات، وهذا ما تعلّمته غلامًا في السابعة أو الثامنة من عمري، هو عندما تبدأ بسماع نيرون يضبط إيقاعه وراء الستائر المحترقة. لقد اختفت قوالب حلوى الكريما كلّها. وحده الصوت المتبقّي هو صوت نفسك.

الإعصار. الكهف.

الكهف. الإعصار.

بين المقاطع لا أحد تشاطره التفكير حول مستقبل البشرية.

قد يكون ذاك السبب وراء إنجاب الناس للأولاد. أحد ما يساعدك على استهلاك الدقائق. أحد ما تنتظر معه الترام.

أسديت لأولادي خدمة ألّا أنجبهم أبدًا.

عندما بدأت أستعيد عافيتي، حملتني أمّي وخالاتي إلى الشرفة في الخارج. غلّفنني ببطانية منقوشة داكنة اللون ووضعنني في كرسيّ ضائع بين النبات المنتشر حيث أستطيع أن أشاهد أختي تلعب في الحديقة في الأسفل بين شجريّات الربيع القطنيّة.

في بعض الأحيان، وفي حارة قريبة، كان يمر رجل متأنّق يعتمر قبعة افرنجيّة على درّاجته السوداء الغليظة. لكم أردت أن أرافقه إلى حيثما يتوجّه. لكن لطالما تملّكني انطباع أني دائمًا أقلّ بيوم من حيث يجب أن أكون.

تقول لي لامتي إنّنا لم نعد في ناومبورغ. تقول لي إنّها بنَت لي شرفة جديدة هنا. تسوقني الخادمة كلّ يوم إليها كي أتنشّق الهواء النظيف، وتضيف قائلة ثمّة صور. لا أعرف شيئًا عنها.

أرقد بين هذه الملاءات، أستمع إليها، أتعرّق وأفكّر، أتعرق وأجهد لأفكّر، وأعي أنه بين الفقرات الوطن هو حيث يستقرّ الوجع.

نادرة هي المناسبات التي شعرت فيها، وبدرجة محدودة نسبيًا، بوحدة أقل من الوحدة التي أشعر بها في الحاضر.

وهكذا، كان يا ما كان في سالف العصور والأزمان، أخبر نفسي أن

أحد طلّابها التقى ديوجينوس[1] وهو يكلّم تمثالاً لأثينا وسط شارع مزدحم في سينوب. اقترب الطالب من الكلبيّ العظيم وانتظر فترة استراحة في خطابه الأحادي الجانب، ثم سأله ببالغ الاحترام عن السبب الكامن وراء مثل هذا السلوك العقيم.

أجابه ديوجينوس من دون أن يزيح نظره عن رخام رغبته: هدوء رجاءً. أنا منهمك بفعل التمرّن على فن الرفض.

ما يعني: أفترض أنه يمكن للأمور أن تكون دومًا بحال أسوأ ممّا هي عليه في اللحظة الحاليّة. الكثير من الرطوبة في الجو أو ما لا يكفي منها. أكثر دفئًا. أو أكثر برودة.

لأن... لأن...

لأنّنا نقوّض أنفسنا بسلوكنا دربًا مستقيمًا ما يعني...

أخشى أنّي ضللت الطريق.

كنت أدرك طريقي، ثم ضللتها.

بداية عدم انتظام زمني بضربات القلب.

وهكذا.

وهكذا.

وهكذا... عزيزي المتألق، أكتب (في رأسي: أكتبها في رأسي)، لأن فعل الكتابة يضخّم شخصيّتك كما فعل الجنس يضخّم شخصيتك - بجعلك تحديدًا ما أنت عليه.

---

(1) ديوجينوس الكلبي: 421 - 323 ق. م. فيلسوف يوناني، ولد في تركيا ودرس في أثينا، يعتبر مؤسس المدرسة الكلبية، عاصر الاسكندر المقدوني.

عزيزي المتألق،

لقد بدأت أصبح مشهورًا على نحو غير مسبوق. أعتقد أنه يمكنك أن تلتمس حدًّا أدنى من التندّر في ذلك. ممّ أستطيع أن أتذكّر، لا يوجد فانٍ تلقّى عدد الرسائل التي تلقّيتها أنا، ومن أكثر العقول النبيهة على الإطلاق.

فلنقل ببساطة: سان بطرسبورغ.

عليك أن تستمع إلى النبرة، ورجاءً تعالَ وخذني.

لقد وضع مفهوم المهق في بازل أوديب تحت علاج الزئبق في مسعى لتخليده. حمّامات البخار. تلك ليست احتفالات بالمعنى الفعليّ للكلمة.

لقد طبّق أتباع فاغنر حرارة الرطوبة مستخدمين قطعًا من الفلانيلا البيضاء الصوفية، فيما لجأ المسيحيّون إلى الآلية البغيضة المتمثّلة بالحمّامات النصفية التحويلية - أي اكتسبوا رضى أوديسيوس بالسماح له بالاسترخاء في مياه الينابيع المعدنية الدافئة، ثم عندما ينهض لتناول المنشفة التي يمدّونها إليه، يعاجلونه بدلو من المياه الباردة على أعضائه التناسلية.

(الموت، بطبيعة الحال، محض إجحاف).

مع خالص التحيات،

كائنك العجوز

عزيزي -

لقد مضى خمس، خمس ثوان كاملة منذ أن كتبت لك المرة الأخيرة ولم أحصل على ردّ حتى الآن. أخشى الأسوأ. الأطبّاء أينما كانوا، وذوقهم في الأحذية أقلّ ما يقال فيه إنّه ذميم.

من الآن وصاعدًا، كلّ رجل حسن الهندام لنفسه.

أقسم لك. لكنت أرسلت التوجيهات لو أملك أيًّا منها، لكن على مايبدو في الوقت الراهن عليك أن تثق بحدسك.

سدد ضربتك.

فالمعرفة تخنق.

لك أبدًا، هانسفورست

يا صمتي،

يخطر لي الآن، بينما أرقد في ذلك القيظ المظلم،أن أكبر خطاياي في الحياة، هو أنّي تخيّلت عذابات الآخرين أعظم بكثير مما هي عليه فعلًا. وستبقى أكثر الأخطار إحباطًا لي هي قدرتي على الشفقة.

(وفي العزلة ينمو ما يزرعه الفرد.)

أو بصريح العبارة، الأطفال هم الهدايا التي تسرقك. زرادشت يعرفهم كأعذار للسبب وراء فشلي في الحياة: لا يسعني أن أقوم برحلة لأني منهمك بتربية صغاري الخنازير؛ لا أستطيع الكتابة لأني منهمك في إرضاع حثالتي.

هذه هي الإجابة على أحجية لماذا أنجزت لا شيء تقريبًا: مغبني ناداني وأنا لبّيت النداء.

ولأولئك الأشخاص أقول: آه يا صمتي العزيز: ذاك الذي لا يقوى على تعلّم الطيران عاليًا، عليه أن يتعلّم السقوط سريعًا.

ما يهمّ، كما هي الحال دومًا...

يهمّ...

ما يهمّ...

ماذا؟

جهاز عصبي

لكن في النسخة الحالية لا تغرق لأنّه في اللانهاية ثمّة الكثير الكثير من القصص والكثير الكثير من العوالم، ثم تبدأ تكرّر نفسها، وعندما تحاول أن ترفع ذراعيك في المياه المثلجة تجد نفسك تسبح. يتمايل زورقك ويتخبّط على سطح المياه المضطربة على بعد ثلاثة أمتار، ثمانية أمتار، مترين، وتشكّل الكتلة الخشب البيضاء تهديدًا متناميًا كلّما اقتربت منها. إنّه عملٌ مضنٍ وعضلاتك شرائح لحم مجلّدة وتعود أدراجك مطقطقًا فتصحو وتعيد الكرّة من جديد. لكن في النهاية تجرّ نفسك فتسقط صريعًا على أرضية الزورق، تلتفّ على نفسك وترتجف والبرق على قصبة أنفك يقودك إلى شفير الوعي الأسود. تمسح بقفا كمّك النديّ المخاط السائل والدماء تتدفّق على شاربيك، وتسعل فتدرك حينئذ أن أحدهم يشاركك الزورق. في البداية يكدّرك التعب فلا تقوى على تحريك رأسك ثم تسمع ثقل جسم يتحرّك. تنظر إلى الأعلى فترى صبيًا صغيرًا أشقر يجلس منتصبًا فوقك، وترى أنّ الصبي الصغير الأشقر هو أنت. يرتدي سروالًا أسود قصيرًا شعره المزيّت مفصول في منتصفه، وهو في السابعة أو الثامنة وينظر إليك. وجهه قرمزيّ اللون عاجيّ ونظّاراته غليظة. تجسيد كرتوني لمثقّف عتيق. تسأله ما الأمر فيقترب منك وبقفا كمّه يمسح المخاط السائل منه ويقول بخفر كيف نما شارباك ليصبحا بهذا

الطول؟ تضحك وتضحك وتسوّي جلستك. تدفع بسلات شعرك النديّ الدبق إلى الوراء وتفرك جبينك بإبهامك والوسطى. وعندما ترفع رأسك مجددًا تقول هل أتيت كل هذه المسافة لتسألني ذلك؟ وتتفحّص النسخة الشابة منك النسخة العجوز منك فتلحظ نبرتك وتشخر شخرًا بامتصاصة أنفيّة مفاجئة. يسألك: لماذا؟ويتوقّف. فتسأل بدورك: لماذا ماذا؟ لماذا أصبحت ما أنت عليه؟ تشيح بنظرك إلى البعيد والضباب الذي يتأرجح فيه زورقك يتحوّل إلى فوسفور تحت ضوء القمر كجهازك العصبيّ. فتردّ وأنت تنظر إليه لأن، لأن لا خيار آخر لك. تخال نفسك تملك خيارًا آخر، لكن في النهاية، لا يكون الأمر إلّا على هذا النحو، وهو ليس بالغ السوء، أليس كذلك؟ يتفحّصك ويقول: لن تتزوج أبدًا، فتسأل: هل تعلم من هم الأصدقاء؟ فيهزّ رأسه نفيًا، والمياه تلعق المساء لعقًا وتعبق لونًا زيتيًا داكنًا. إنهم الأشخاص الذين يعرفون كل الأمور عنك، ومع ذلك، يقررون أن يحبوك. ستحصل على الكثير من الأصدقاء. لكنك ستشرع تدريجًا تستهلك كلًّا منهم كما القمصان، لكنّ ذلك حسن أيضًا. فهذا ما نحن عليه. فيرد قائلًا أحيانًا، تؤلمني معدتي، فتقول بعد أسابيع قليلة ستلتقي صبيّين، بيندر وكروغ. سيرافقانك في المدرسة. وسيقرأ لك والد بيندر قصّة كتبها رجل يدعى غوته فتقع في غرام اللغة. وسيعزف والد كروغ سوناتا بيانو لرجل اسمه ليزت، فتتعلّم لماذا تجعل الموسيقى الحياة أكثر قابليّة للتحمّل. ولن تكون وحيدًا بعد ذلك، ليس حقًّا، على كل حال، ويرفع الصبيّ رأسه سريعًا كما لو أنّه سمع صوتًا آتيًا من الفضاء البعيد، فتقول: أنت تستمع إلى أمّي. هل بوسعك أن تقول ما تقرأ؟ فيردّ روبرت الطائر. لقد وصلت إلى الجزء حيث يختفي فيه في السماء. كان يجدر به أن يستمع إلى أهله، أليس كذلك، وألّا يخرج في المقام الأوّل في مثل هذا اليوم العاصف. تدنو منه، تربّت على ركبته وتقول إنها قصة

يا فريتز، لكن أتريد أن أخبرك شيئًا حتى أمّي لا تدري به؟ ويسأل: ماذا؟ فتجيب إن روبرت الطائر يستمتع بنفسه في الأعلى، هو حقًا يحبّ ذلك. فتنزع النسخة الشابة منك نظّاراتها وتمسح عينيها المنتفختين ثم تعيدها مجددًا. ويقول لقد سررت بك حقًا. فتردّ قائلًا قبل أن تذهب، هل لك أن تسدي لي خدمة؟ فيجيبك: سأحاول. وتقول هذا جيد.

أحبّ نفسك يا فريتز، عليك أن تتعلّم أن تحبّ نفسك حتى الجنون، هل تسمعني؟

أريد مرّة واحدة وإلى الأبد ألّا أعرف أمورًا كثيرة

يضغط فريدريك بعينه اليسرى أكثر فأكثر داخل ثقب المفتاح ليكتشف أنه لا ينظر إلى السينيورا فينو على أرضيّة نزله في تورينو، بل إلى أخته وذاك الغبي فورستر في غرفة فورستر في الفندق في ساحة البلدة في ناومبورغ.

تقف ليزبيث أمامه بفستانها الأخضر الشائك الأطراف الذي ارتدته لعيد الميلاد.

أمّا فورستير فيجثو أمامها، بينما تطلّ لحيته الحمراء المشقرّة من أسفل وجهه كنصل مِقشَط أشعر.

فستان ليزبيث مرفوع حتى وسطها.

يتفرّج فريدريك، وقد راعه كم غرفة فورستر وسخة. كم الغرفة وسخة، وكيف أن فورستر عارٍ من أيّ ملابس غير حذائه المصقول بشكل استثنائي، وهذا ما راح يتأمّله فريدريك بإعجاب تخطّى شعوره بالراحة. لفورستر بنية نحيلة لا عضليّة، وكتلة شحميّة بحجم قبضة اليد تعلو كل ورك. بشرته بلون جبن البري الباهت المصفَرّ.

إنّه شهر ديسمبر. إنّه العام 1882. إنّها فترة الأعياد. الطقس بارد في هذا الرواق ومثلج في ساحة البلدة، وفريدريك يكره الأعياد. راح يعدّ

نفسه على مضض من راباللو لهذا العيد، وسيعود أدراجه ما إن ينتهي. كلّ عام، ما إن ينتهك الميلاد حرمته، حتى تنتشر الوحدة عبره كمسكّن للنوم. فتصبح عائلته ذات قدرة على التحمّل في نظره، أكثر من اللازم، حتى ينتهي به الأمر إلى اختبار بعض الحنان نحوهم، وشوق لرفقتهم، يجعله يبدو حثالة أو منافقًا. بعد مضيّ ساعة على وصوله، ها هو يخطّط للهروب.

هذه المرة، أعطوه لوحة زيتيّة صغيرة للعذراء. وقد اشترى لأمّه شالًا أسود جميلًا، ولأخته فرشاة شعر مشعّث، ولفورستر سكّينًا أنيقًا يدها من اللؤلؤ من سويسرا. أعطوه جوارب ولوحة زيتية صغيرة للعذراء.

قال وهو يفتح العلبة، انظروا إلى هذا.

لم يرِدْ فريدريك لقوله أن يبدو وكأنه اتّهام. حاول أن يعكس في صوته الحماسة التي افترض أنّهم يريدون سماعها. نهض من مقعده على الكنبة في غرفة المعيشة، وطبع قبلة واجبة على خدّ اخته. ثم حضن أمّه بشكل آلي. وصافح بتصنّع يد فورستر الذي رفع بعد ذلك كأس عصير التفاح نخب هذه الأمسية. وأخذ فريدريك ينظر متجهّمًا إلى الشموع المحترقة وسط فروع شجرة الميلاد متحيّنًا الفرصة لابتكار مخرج له.

غير أنّ فرنشيسكا وقد تخيّلته في مزاج جيّد، سألته إن كان يريد مرافقة الثلاثي إلى القدّاس في الصباح.

ردّ فريدريك بأنه ليس أكيدًا من ذلك، واعتذر منسحبًا، وتوجّه إلى غرفته، وحاول جاهدًا أن يستسلم للنوم.

الآن تحوّل الهواء في هذا الرواق البارد إلى لاذع مخضّب بدخان فحميٍّ وعطر فرنسي. يهتف صوت رجل أجشّ شيئًا على الأرضية

فوقه. يجيب رجل آخر. خطى متثاقلة تتجمّع داخل رأس فريدريك. يمكن لأحدهم أن ينزل السلالم وراءه في أي لحظة، أو لربّما يفتح بابًا في الممر، أو يخرج خادم من إحدى الزوايا وينتصب أمامه هكذا. يعي فريدريك جيّدًا كم سيبدو سخيفًا. الفيلسوف الألماني العظيم الذي كتب ما يقارب اللاشيء يجثم بمعطفه الثقيل الرمادي الداكن وشاله الرمادي الداكن وقفازه الأسود كضفدع أميركي كبير أنيق على السجادة الأرجوانية الزرقاء أمام الباب الأبيض، وعينه اليسرى مطبقة على ثقب المفتاح.

كيف وصل إلى هنا، في معرض حياته؟

في لحظة ما، بدا له وكأنّ ثمّة أماكن أخرى عدة يمكن الذهاب إليها.

يثمّن واقع أنه يتعين عليه أن يدفع بتلك اللحظة إلى الوراء. عليه أن يقف ويستدير ويذهب. عليه أن يجد سيارة أجرة تقلّه إلى محطة القطارات، وقطارًا يعيده إلى رابالو، من غير أن تطأ قدماه مجددًا هذه البلدة. ليزبيث في السادسة والثلاثين من عمرها، وفورستر في التاسعة والثلاثين، وأمّه في حوالى السابعة والخمسين. أمّا فريدريك فيبلغ الثامنة والثلاثين من عمره، وعليه أن يدفع هذه اللحظة إلى الوراء، ومع ذلك لا يسعه ذلك - ليس بعد أن لاحق أخته عبر الضوء، والثلج يتجمّع في الشوارع نفث غبار. ليس بعد أن رأى ما رآه. لقد راعه كم وسخة غرفة فورستر. تتبعثر ملاءات السرير على الأرضية، ويتدلى سروال أسود من على الطاولة وسط طقم شاي أبيض وأزرق مستخدم. تسودّ الملابس الداخلية، وتلمع ملعقة صغيرة وحيدة وسط الفرشة العارية.

بعد عشاء الميلاد، انسحب فورستر بسلسلة من الانحناءات الطنّانة الرنّانة. وبعد نصف ساعة، اعتذرت فرنشيسكا منسحبة وتوجّهت

للخلود إلى النوم. وبعد خمس عشرة دقيقة إضافيّة، سمع فريدريك أخته تتسلّل خارج المنزل. ارتدى معطفه، وشاله، وقفّازه وتبعها.

يجد أنه من الاستحالة بمكان أن يتآمر أحدهم لإعطاء انطباع سيئ للخدم. وهكذا، صبيحة كلّ يوم، عندما يسمع عربة عاملة التنظيف تصرّ في رواق النزل حيث يقيم، ينهض سريعًا من مكتبه وينفّض وسائده ويرتّب سريره ويسرّح شعره ويقلّم شاربيه، ويتخلّص من مستحضرات التجميل ويقفل الحقيبة. وما إن تتوقف العربة خارج باب غرفته، حتى يكون جاهزًا لاستقبال زائره لهذا اليوم.

لأن وجود كبير القوم مبني على تضحية صغيرهم، غير أنّ. غير أنّ.

غير أنّ المرء لا يُفترض أن يتمتّع بالشجاعة التي يستمدّها من قناعاته. على المرء أن يتمتّع بالشجاعة التي تساعده على مساءلة تلك القناعات.

وإلّا، فالجدوى من التفكير هي... ماذا تحديدًا؟

امنحه عشر دقائق. امنحه عشرين، وستكتسب هذه الغرفة ترتيبًا عذريًا. اطوِ الملابس. ضعها في الخزانة. أعِد ترتيب السرير واثنِ ملاءاته قبل النوم كما يفترض أن تكون الملاءات مثنية قبل النوم. ضع مكعّبًا من الشوكولاتة ولربّما وردة على كلّ وسادة.

يسمع فريدريك ضجة وراءه فيغزل غزلًا على وركيه والذعر بادٍ على عينيه الواهنتين.

أعلى السلالم تقف هيئة عملاقة.

من وجهة نظر فريدريك، ثمّة ما هو أقرب إلى الطير فيه من البشر.

إنها بلدة روكين. إنه العام 1848. تشتعل المتاريس في باريس وروما ونابولي والبندقية وبراغ وبودابست وفيينا وبرلين.

إنها صبيحة يوم الاثنين. بعد ثلاثة أسابيع من الآن، سيبلغ فريدريك الخامسة من عمره. لقد كان منهمكًا في دحرجة كرة مطّاطية في بقعة لفحتها أشعة الشمس أسفل السلالم، وذهنه فارغ كما إناء أزهار في الشتاء، إلى أن خطر في باله ما يريده لعيد ميلاده. يريد حصانًا خشبيًا هزّازًا. إرنست أسفل الشارع لديه حصان خشبيّ هزّاز وفريدريك يريد واحدًا أيضًا. حصان خشبيّ هزّاز مرسوم عليه ابتسامة ومرسوم عليه سرج بالإضافة إلى لبدة حقيقية مصنوعة من شعر حقيقي يمكنك شدّه. سمع صوتًا فوقه فتدافع ليقف منتصبًا على قدميه، وحدّق إلى الأعلى: الطير العملاق أعلى السلالم يتحوّل إلى نسر عملاق يتحوّل إلى والده.

ويعلن فريدريك ببالغ الثقة، بابا، بابا أريد حصانًا هزّازًا لعيد ميلادي.

يحدّق به القسّ من عليائه. يرتدي جلبابًا فضفاضًا. ذراعاه ترتفعان بعيدًا عن جانبيه كما أجنحة الخفافيش. يفتح فمه لطمأنة الحضور، لكنّ ذراعيه تنطويان حول وجهه وتعبر موجة صادمة جسده.

ويسأل فريدريك بثقة أقلّ نسبيًا: بابا؟ وترتطم أقدام القسّ مكتومة بينما ينزل السلالم.

ثم ينبطح أمام قدمَيْ فريدريك.

وتتمدّد البقعة التي لفحتها الشمس، محدِثة أنواعًا جديدة من الزوايا. يفكّر فريدريك في خيط اللعاب السائل على خدّ أبيه. كيف أنّ عينَيْ القسّ بالكاد مشقوقتان، ومع ذلك كيف تختفي قزحيّتا القصدير تحت جبينه.

يبدأ فريدريك بالهروب.يهرب فريدريك ويصرخ فريدريك.

يصرخ فريدريك ويهرب أسفل الرواق وخارج الباب الخلفي وصولًا إلى الحديقة. يتذكّر أن أمّه قد نشرت الغسيل هناك. أخته تنام في مهدها في الظل تحت شجرة تفاح.

الهواء مفعم بالحيويّة والبرودة. الأوراق تتألّق تحت أشعة الضوء الشائكة.

يصرخ فريدريك بينما يركض ويداه الصغيرتان فوق رأسه الصغير. قمت بذلك! قمت بذلك! قمت بذلك! قمت بذلك!

أوّل مرة سمع فيها ببرنارد فورستر كانت كأستاذ مخبول في نادٍ في برلين نظّم عريضة تطالب بالحدّ من هجرة اليهود، وبتسجيل اليهود كلهم، وباستثنائهم من مواقع السلطة في الحكومة والتربية.

أطلق فورستر على النداء اسم صرخة ألم من ضمير الشعب الألماني.

أطلق فريدريك عليه لفظة أضحوكة.

وأسرّ لنفسه قائلًا، هذا ما يحدث عندما تطيّب خاطر أحدهم.

لكن سرعان ما وقّع نحو مئتين وسبعين ألف شخص على العريضة، ولم يعد الأمر مجرّد أضحوكة. وأصبح فورستر أحد أبرز قادة موجة معاداة الساميّة. وبإجباره على الاستقالة من منصبه، ساعده النادي حيث يعمل على جعله بطلًا قوميًا. تناهت الرواية إلى مسامع فاغنر، فدعاه فورًا إلى مهرجان بايروت لمشاهدة أول عرض لأوبيرا بارسيفال. حضرت ليزبيث والتقت فورستر في إحدى حفلات فاغنر، فتركها المغفّل مسلوبة الفؤاد.

والأسوأ من ذلك أن فريدريك كان أول من أصرّ عليها أن تذهب. أراد أن يسمع ما يقوله فاغنر عنه، وأراد أن ينعم ببضعة أسابيع من السلام في ناومبورغ حتى يتمكن من إنجاز بعض الكتابة قبل أن تبدأ رحلته إلى توتنبورغ للقاء لو. أخبر ليزبيث أن الجولة ستفيدها. وأضاف أنها أكثر من قادرة على الاعتناء بنفسها.

عوضًا عن ذلك، وقعت في غرام برنارد فورستر.

كيف أمكنها أن تقع في غرام برنارد فورستر؟

راحت تهذي حوله في رسائل ترسلها لفريدريك طوال الخريف. وبكلّ ما أوتيت من بصيرة ألمانية صالحة، قامت لامته باعتبار رجلها الجميل الجديد رجلًا ذكيًا، صادقًا، لائقًا، مكدًّا وتقدّميًّا.

ردّ فريدريك عليها كاتبًا أنّ معاداة الساميّة تمرّد الوضعاء. وأشخاص كفورستر يتحرّكون بدافع من الحسد والاستياء والغضب في مواجهة دونيّتهم الفكريّة. وهو خطير تلك الخطورة التي تميّز الأشخاص المفرطو الغباء وحدهم. لا تصغي إليه وتذكّري أن تشكري اليهود كلّ يوم لمنحك إلهك، وأقدم كتاب في التاريخ، وأكثر القواعد الأخلاقية فاعلية في العالم.

ردّت ليزبيث عليه بأن كتبت له أنّها وفورستر سيخطبان في شهر يناير.

ردّ فريدريك عليها فكتب لها أنها لم تعد أخته.

لكن أسفل رابالو، مع بداية شهر ديسمبر، بدأت تلك الوحدة الشنيعة تدبّ في نظامه العصبيّ، وما لبث أن وجد نفسه ينظر إلى قبّة كنيسة سان ڤينزل الغوطيّة ترتسم في الأفق خارج نافذة القطار بينما يشقّ طريقه إلى ناومبورغ.

اشترى فريدريك لأمّه شالًا جميلًا، ولأخته فرشاة شعر خشن ولفورستر سكينًا أنيقًا من سويسرا. أعطوه جوارب ولوحة زيتيّة صغيرة للعذراء.

أخبرته أمّه أنها متحرّكة لتسهيل عمليّة نقلها.

وراح فريدريك يفكّر بينما ينزع الورق الجميل عن الهديّة. أليس جميلًا أن تتمكّن من منح ثقتك لشخص واحد في الكون، شخص واحد قادر على الاستجابة للتوقّعات التي يفترض أن تكون منتَظَرة من واحد من هذه الكائنات؟

وعوضًا عن هذه الرغبة، وجد العائلة تحوط به.

قال وهو يفتح الورقة مغلوبًا على أمره، انظروا إلى هذا.

إلى مائدة عشاء الليلة السابقة، طرح فورستر آخر مخطّطاته على أطباق تتداخل فيها البطاطا المهروسة مع اللوبياء وشرائح اللحم والخبز. لم يأكل فريدريك سوى البطاطا. فجهازه الهضمي لم يكن على ما يرام. وما إن توقّف رأسه عن إيلامه قبل أسبوع، حتى استيقظ ألم حاد في أحشائه المضطربة الزلقة. وقد وصف له الطبيب الكوكايين لمداواة انتفاخ بطنه وطلب منه زيادة الجرعة بعد عشرة أيام إذا لم تقم الجرعة الأساسية بما يلزم.

راح يقلّب في البطاطا بينما يشرح صهره العتيد، وفمه طافح بعصيدة زهريّة، كيف سيغادر إلى الباراغواي الربيع المقبل لإجراء تحقيق موسّع حول المستعمرات الألمانية في منطقة لا بلاتا العليا. ويخطّط أن يعود خلال سنتين، على أن يتزوج حينئذ وليزبيث، ثم ينتقلان معًا إلى الباراغواي لبناء جرمانيا الجديدة، وهي عبارة عن مجتمع أسطوريّ

يتمكّن فيه ألمان أنقياء مزوّدون بمُثُل نقيّة من إعادة تأسيس الدولة التي نمت كلّما طوى الشهر أيامه أقل قوّة بقليل وأكثر تدنيسًا بقليل وفسقًا بقليل.

وأعلن بكل ما أوتيَ من عَظَمة وإجلال، سنصبح أنا وليزبيث آدم وحوّاء الجديدين، وستصبح جرمانيا الجديدة واحة أمل في غيضة اليأس.

شخر فريدريك. واشتبكت شوكة مليئة بالبطاطا المهروسة بشاربيه.

وواصل فورستر سيل أفكاره. لقد دخل بالفعل في مفاوضات مع الحكومة الباراغوانية التي وافقت على تأجيره قطعة أرض شاسعة شرط أن تعود ملكيّتها إليه إذا تمكّن من جذب مئة وأربعين عائلة إليها في غضون سنتين من تاريخ توقيع العقد.

ويسأل، هل يمكن أن يكون الأمر أكثر سهولة؟ وتضيف فرنشيسكا من الجانب الآخر من الطاولة، هل يمكن أن يكون أحدهم أكثر نبلًا؟

إنّها تعشق فورستر بلا أي خجل.

لاحظ فريدريك جيّدًا كيف تشعّ عيناها فخرًا عندما يتكلّم فورستر. تنظر إليه النظرة نفسها التي كانت تنظرها إلى فريدريك وهو يعود إلى المنزل من بفورتا لقضاء أيّام الأعياد والعطلة، فتجلس في غرفة المعيشة تقرأ ملاحظات الثناء التي دوّنها مدرّسوه أسفل اختباراته، الواحد تلو الآخر، كما لو أنّها تحصي طوائف كبرى من الحنان.

سقطت بصيلة من الميثان من أسفل القفص الصدريّ الأيمن لفريدريك لتقع على عاصرته المتفاجئة وتحرّر نفسها بكامل الهدوء. لو سئل أن يختار لونًا يرافقها، لكان اختار اللون البنّي. البنّي أو ربما المغرة

الحمراء مع لمسة بنفسج فيها ظِلّ يوحي على كل الأحوال بالكثافة والثراء والحدّة.

استوقفت ليزبيث نظره وأشارت إلى لطخة زبدة على الجانب الأيسر من أنفه فاته أن يزيلها.

أخذ فريدريك يراقب شفتَي عاشق أخته اللمّاعتين تتحرّكان بينما يمسح هو أنفه. أراد لنفسه الطرش. العصيدة الزهريّة في فم فورستر ذكّرت فريدريك بكلب الدوبرمان الذي رآه صباح الأمس يقوّس ظهره أسفل النافورة في ساحة البلدة، ويغصّ بلباب نصف مهضوم يعيد اجتراره بكل لذّة.

كلّ شيء يستهلك كلّ شيء آخر.

يتحامل فريدريك على نفسه كي يتمكّن بالكاد من تناول شوكة أخرى.

كل فحش الطعام.

الغضروف.

الدهن.

الدم.

يظهر أنف فرنشيسكا من تحت إبط فستانها المرقّط الأسود المزرق، بينما تنشر بنطالًا على حبل الغسيل المعلّق بين شجرتين في الحديقة.

وتسأل فريدريك، ما القصة يا غالي؟ ما خطبك؟

ويشير فريدريك بيده إلى المنزل المتكلّس الذي ينبلج كطبقتَي خوف فوق الأشجار.

ويصرخ قائلًا، لقد فعلت ذلك! لقد فعلت ذلك! لقد فعلت ذلك! لقد فعلت ذلك!

فتسأله بينما تنخفض ذراعاها من دون عجلة: ماذا فعلت يا غالي؟

هذا! فعلت هذا! هذا!

ماذا يا فريتز؟ ماذا فعلت؟ ما الأمر يا عزيزي؟

التصاعد في صوتها: كيف يتحوّل اللافهم الناعم إلى قلق متزايد. كيف تتشابك نظراتهما لفترة طويلة جدًّا. ليست في الواقع طويلة جدًّا جدًّا. يدرك فريدريك أنّ القوانين التي ترعى فيزياء الضوء قد تغيّرت لتوّها، لكن أمّه لا تدرك ذلك، لكنّها ستفعل، لكنّها لا تدرك أنها ستدرك.

كيف أن بعض الأمور ترفض أن تنكسر للذاكرة.

ترتفع يداه فوق رأسه بحثًا عن الأمان.

ثم، يعاود مجددًا، يركض ويركض من غير أن يصرخ، يركض ويلهث، بينما يتدافع إعصار في فجوة رأسه.

وتولّد دربه قوسًا كبيرًا حول جانب الخوف المنبلج وتقوده عبر ساحة المزرعة الأمامية المشجرة، ليعبر السور الضخم بحجم البشر، ويخرج بين شجر الصفصاف المتجمّعة حول أحواض السمك كخيوط سحاب خضراء منتفخة.

ويدرك فريدريك بينما يركض ويركض ويلهث أن كلّ شيء يلمس كلّ شيء.

يطبق عينيه ويشرع يتصفّح عبر الفراغ الزهري. يتصوّر أمّه تعبر الفناء، تمسح يديها بفستانها. يتصوّرها تدخل الرواق.

كل شيء يلمس كل شيء.

كلّ شيء عبارة عن مجموعة فاخرة من الروابط.

أوراق شجر. أملود. وفرة.

هذه هي بطبيعة الحال المشكلة.

هذه هي المشكلة وستبقى كذلك.

وتسأل ليزبيث: ما الأمر يا عزيزي؟ بحق الله لا أقوى على سماع شيء مما تتفوّه به هنا.

يتمتم فورستر شيئًا تحت فستانها الأخضر الشائك الأطراف الذي ارتدته لعيد الميلاد.

تنظر، وقد هجرت التعابير وجهها، إلى أعلى رأسه الذي كمشت شعره الأشقر المحمرّ بقبضتها اليسرى وراحت تنتزعه، بقوة. ينخر فورستر، وحذاؤه الجلدي يطقطق تحته. وبقبضتها اليمنى، تسعى ليزبيث لإبقاء ملابسها الداخلية بمنأى عن مشروعها.

وبينما يقبع كالضفدع في موقعه خارج بابهما، يبدو لفريدريك أن فورستر يتمتم مقالة صحافيّة من داخل خزانة ملابس.

وتقول ليزبيث بينما تشدّ بقوة. تشدّ بقوّة، ثم بقوّة أكبر.

ماذا أنا بفاعلة الآن؟

ويلاحظ فريدريك أن فورستر لا يعرف كيف يلعب هذه اللعبة، لذا يسارع إلى إنقاذ الموقف: أنت تقومين بهذا، وهو يقوم بذاك، وتقومين بهذا، والآن تقومين بهذا، والآن هذا. يمرّر فريدريك يده التي في القفاز بين جنبات معطفه إلى حيث تشكل أزرار سرواله له عوائق عدّة ملحوظة

إن لم تكن مستحيلة. وهو يعي بقوة ملعقة الشاي الوحيدة التي تلمع وسط الفرشة العارية. وشرائح الليمون الأربع المعصورة على الصحيفة البيضاء المائلة إلى الزرقة.

الطريقة التي أدارت بها ليزبيث رأسها بتأنٍّ نحو الباب، وهي على علم، أو لربّما تبدو وكأنها على علم.

الطريقة التي سجّل فيها وجهها حضوره أو لم يسجّل، ثم ارتدّ مجددًا إلى الفراغ.

أجل: هذا ما هو عليه الأمر: العاطفة.

هذا ما يشير إليه بعض الناس أحيانًا عندما يتلفّظون بلفظة عاطفة:

فريدريك أكيد من ذلك.

منتصف الليل

شبه متأكّد.

إلّا إذا، من نافل القول، هو أقلّ من شبه متأكّد بقليل.

هو هذا الاحتمال أو ذاك.

أترى، حتى الحلم بحدّ ذاته يصبح مسألة مضنية بعد برهة. الجسد يؤكّد على ذاته. والألوان تتدفّق فيه. وعقلك يذرع الخطى ذهابًا وإيابًا على المسرح، ناسيًا جمله الواحدة تلو الأخرى.

إن كان هذا ما عليه الأمر، فيمكنك أن تسمّيه الحلم.

الحلم وليس، على سبيل المثال، أمر مقلق على حدّ سواء.

أن تكون مستيقظًا، مثلًا، على قيد الحياة وسط النيران المشتعلة.

ثمّة دائمًا تلك الإمكانية.

ثمّة دائمًا تلك الإمكانية بين إمكانيات أخرى، لأن...

لأن أعتقد...أعتقد...

بصراحة، أعتقد بأن رائحتي عفنة على الأرجح وسط هذا التلكّؤ والتعرّق، هذا التعرّق والمحاولة للتلكّؤ.

كأحد فساتين أمّي القديمة.

لقد أصبحت مجموعة من مختلف أشكال العبور.

أو...

أو الطريقة التي، حتى وأنا راشد، لدى عودتي إلى المنزل لقضاء عطلة العيد، كنت أتسلّل فيها إلى غرفة أمّي عندما تكون في مكان آخر، فأدنو من سريرها، وأحشر رأسي وأنا واقف في عمق وسادتها، فأتنشّق سريعًا كيف تكون رائحة فشل الخيال على مدى العمر.

وأقول إذا كان لا بدّ للأمر من أن يأتي، فليأتِ.

دعه يأتي.

على أن يكون هذا الإتيان معاكسًا لتلك الكوميديا المقيتة التي تقدّمها الديانة المسيحيّة عندما تسلب المرء قدرته على المغادرة.

غير أنه لا يأتي.

لا شيء يتسرّب إلى الوجود.

عوضًا عن ذلك، يبدو وكأنّني أجد نفسي رازحًا تحت رذاذ سرمدي من شبه إمكان الحصول، جلد يقشر بعد آخر حتى لا يبقى سوى الريح تحت هذه الملاءات الرطبة، ثم حتّى ليس هذا تحديدًا، بل تلك الرائحة الخلفية الكريهة ليس إلا.

أشعر بنفسي أغادر عقول الآخرين قبل أن أغادر عقلي.

يبدو أن هذا ما يؤول إليه الأمر، في نهاية المطاف.

لا يبدو الأمر بغيضًا، بل لربّما عليّ أن أقتنص هذه الفرصة لأشير،

ليس بغيضًا بالإجمال، كرائحة تلك الوسادة البائخة عندما انحنيت على سرير أمي، أتنشّق شيئًا مطمئنًا وموحشًا وحتميًّا في آن.

انظر: ثوانٍ قليلة إضافية ورائي.

تلك هي الذهنيّة.

وهكذا، كان يا ما كان، في سالف العصور والأزمان، تقول لنفسك وأنت تعبر هذا العبور، كان يا ما كان، في سالف العصور والأزمان، كانت القبلة.

في توتنبورغ.

العطر العشبي. النسيم الشفّاف. الأصيل العقيم. كانت لو تسير أمامي على الدرب، ورائحة البنفسج تنسحب وراءها. كنت أعيد التأكيد على نقطة. فأقترح أن البشر يريدون أن يعرفوا الأسوأ في الوضع لأنه في النهاية يضنيهم أن يسعوا دائمًا إلى معرفة الأفضل. كلّ شيء كان يساوي خضرة ذلك اليوم الصفراء.

ثم توقفت لو أمامي بكلّ بساطة.

وتحّول الزمان كتلة ثلجيّة تحبسنا داخلها بلا أيّ حركة.

توقّفت لو ببساطة، واستدارت ببساطة، وبعد خطوتين، كنت أتنفّس نفسها، وشفتاها المفتوحتان على شفتي.

لم أدرِ ما أنا فاعل بنفسي.

وتفيض الأفكار بكثرتها ليستحيل ألّا يُحتفى بها.

وجد جسدي نفسه منحنيًا عليها، ومنحنيًا، حتى لأدركت أن عينيّ بقيتا شاخصتين. أردت أن أرى. ثمة الكثير لتسجيله.

أستطيع أن أتذوّق عبق البنفسج المنبعث من لو على لسانها الريّان الناعم. وتوجّهت يداها إلى ظهري تحتضنان برفق قاعدة ذهني. أما يداي، فوجدتا نفسيهما تشرعان تفكّان أزرار قميصها. تمتلكان خرائط خاصة بهما.

ودقّت أسناننا الواحدة بالأخرى. مرّة. فضحكت بهدوء داخل فمي.

ومسَحَت مفاصلي البشرة تحت حنكها.

المزيد من الضوء.

رجاءً، المزيد من الضوء.

قبّلتني.

هذا في كل الأحوال، هو بيت القصيد.

قبّلتني لو على درب وسط خضرة الأصيل الصفراء الشفافة، وبينما انحنيت، وقبّلت، رحت أدرس عينيها المطبقتين تتحرّكان تحت رموشها المتحرّكة، كيف تأخذ جمودنا على محمل من الجد، بعد أن ملأ نفَسها فمي بالإمكانيّات.

إلّا إذا، بحسب ما أتساءل، وعيناها المطبقتان تتحرّكان تحت رموشها المتحرّكة، لربّما كانت تفكّر بأمر آخر؟

لربما كانت تفكّر على سبيل المثال: إذا هذا هو ما يبدو عليه الإحسان.

أو، بالكاد: ما كان هذا الصوت؟ وذاك؟

أنا لست الشخص الذي يفترض به أن يعرف.

يوهانس، وهو طالب نجيب لكن بالكاد استثنائي، لا يعرف الضرورة.

هو هذا الاحتمال أو ذاك.

هذا كلّ ما يمكننا التأكيد عليه بثقة مطلقة في الفجوة الكامنة بين الجمل.

على افتراض أن ما أختبره يسمّى ذاكرة، وليس شيئًا آخر.

وليس على سبيل المثال، طبيعة رغبة ما.

في كل التباس، ثمة مسحة انتقام.

انظر: يحمرّ أفلاطون خجلًا عمَّ فعله بنا.

وعمَّ لم يفعله.

وهكذا يرقد الأمير في فراشه محترقًا.

خارج نافذته يتدلّى قمر منتصف الليل وقد قضم منه الشهر قضمة سوداء واحدة.

نحن مشغولون.

نريد القول إننا مشغولون.

نريد القول إن.

كبد

ثم تشاهد باريتون منهمكًا بالموت على خشبة المسرح في إحدى أهم جذاذات فاغنر في بايروت فيشرد عقلك. تحاول أن تسيطر عليه لكنّ عقلك يشرد بينما كامل الإنتاج الذي لا يجد نهاية له يدور حول صديقنا غير المرئي في الجنّة، جنة عدن؛ ألفا ألفا حوّل لا شيء، لا شيء، وهناك على بعد صفّين إلى الأمام وثلاثة مقاعد منك، تنحني فتاة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها لا يسعك أن تنزع نظرك عنها. يتدلّى شعرها ليطال المستدقّ من ظهرها في تسريحة ذيل الفرس المستقيمة الشقراء شقرةً تقارب البياض الناصع، بينما تعكس عيناها زرقة أثيمة، وبشرتها تشابه الشفافية، وفستانها ينساب أسود، وعقد الراين يلتفّ حول عنقها بما يثير الأعصاب. تنحني إلى الأمام في جذل أمام أهلها وكوعاها على ركبتيها تحضر أول حفل أوبرا لها تنكره بمجرّد حضورها. وأنت تحاول أن تسيطر على عقلك لكن لا يسعك إلّا أن تفكّر كيف أنه من شبه المستحيل أن تنسى الماضي باستثناء بضع هنيهات من الزمن لأنك جزء من كلّ ما شاهدت وقرأت وكتبت، لكن عليك بتخطّي البارحة عبر السباحة عكس تيار التاريخ، ثم تتنبّه لهمس من حولك. تسحب عينيك بعيدًا عن الفتاة وتنظر إلى خشبة المسرح وقد رحل الباريتون

ورحلت فرقة الأوكسترا، ومكانهما يقف هانسفورست المهرّج في بقعة ضوء صارخة بمفرده، وابتسامة عريضة تزيّن محيّاه، وكفّاه على ركبتيه وجواربه زرق مرنة، وقبّعته حمراء وصفراء، وسترته مقلّمة يرتديها فوق قميص أخضر، وسروال منتفخ انتفاخًا، وحذاء ووجهك. لديه شارباك وحاجباك الأشعثان الباديان تحت سحنة بيضاء وبقعة حمراء على كل من الوجنتين. وتجد نفسك على خشبة المسرح تنظر إلى الجمهور في مقعدك تستمع إلى الهمس، ثم إلى الحيرة السائدة، ثم إلى الفضول الأنيس، ثم إلى الإحباط المضمَر. يرفع هانسفورت يدًا إلى جبينه على النمط الهندي محدّقًا بينما يطوي ركبتيه، يسرّح نظره في الأفق بحثًا عن أي دليل على حياة ذكيّة. يقف مستقيمًا ويترك يديه تتدلّيان من على جانبيه، وكتفاه متثاقلان، يؤدي رقصة نقريّة موجزة ثم يتوقّف ويبتسم، وتتّسع ابتسامته وتعتق وتختفي. ومن لا شيء يخرج باقة زاهية من البالونات الحمر والزرق والصفر. يفتح فمه ليتكلّم، لكنّه يفكّر بالأمر فيطبق فمه ثم يفتح فمه مجدّدًا، لكنّه يفكّر بالأمر فيطبقه مجدّدًا ويفتحه، ويقول أخيرًا: آه يا إخواني، باختصار، لو ترون، شكرًا، إنه لمن دواعي سروري، لأنه هنا، لأنه في السماء، بصراحة، لأنه هناك في السماء لا يسع المرء أن يستمع لا إلى سي منخفض كبير ولا إلى لا مرتفع صغير ولا إلى فا، لأن هناك في السماء لا يمكنك أن ترى ألمانيا، وهكذا، باختصار، بكلمة واحدة، بإيجاز، آمل أني أتكلّم ببساطة ووضوح، إذًا، شجر الصفصاف يتمايل على ضفتَيّ البركة، طفولتي، أبي عند أسفل السلالم، هذه هي ما يشيرون إليها بأيام الماضي الجميل، فلا يسعني أن أفكّر بما هو أفضل منها، إذ لحظة تنكرني أعود إليك ليس إلّا. لو ترون، آه يا أخواني، وهكذا يعيش الأموات، ويسَمون نقادًا موسيقيين،

يعيش الأموات، ويُسَمّون مصرفيين. وهكذا، بالعودة إلى سروالي، هناك لا يسع المرء أن يستمع لا إلى نوطة ري ولا صول، ولا منخفض ولا كبير، لأن الحقيقة بالنسبة إلى الفائضين هي وجه من أوجه النسيان. وهكذا، باختصار، ألمانيا ألمانيا فوق كل شيء تعني ماذا، تعني شيئًا، تعني ماذا، إنّها على رأس لسان أختي، أقصى حد، ها هي تبتدع فكرة فورسترية جديدة ستصطفينا كلّنا، مما يؤدّي بكل بساطة، وبطريقة أو بأخرى، إلى القول... إلى القول... أيًّا كانت فكرتي بإسهاب، أي أن أقترح، أن أشكركم جزيل الشكر، أي أن أتقدّم منكم لأؤكّد لسماحتكم أنه لو أمكنكم استشراف المستقبل بوضوح، لعلّقتم المشانق لأنفسكم بعد إغراق أطفالكم، لأن ألمانيا ألمانيا فوق كل شيء تعني، أجل تعني، نهاية الفلسفة الألمانية والمسرح حيث تجلسون معًا تحت النيران. هذا المبنى ملتهب. هيا، انهضوا. اخرجوا. دعوا السفينة. لقد سمعتموني. الدوييات والأطفال أولًا. أنقذوا أنفسكم. أنقذوا ألماسكم. أنقذوا هذه الفتاة الشقراء الجميلة في الصف الثاني. انظروا إلى حذائها. انظروا إلى إبزيمها. انظروا إلى كتلة الشعر تلك. أنا جادّ. افعلوا مثلي. لأنه لديكم أقل من دقيقة واحدة. لديكم أقل من لحظة. أنتم تعيشون الآن على شفير البلاء. تنشّقوا الدخان. الحرارة في ظهري لا تحتمل. لحظة أخرى، وستنفجر كراسيكم وتتطاير شررًا دونكم. قوموا. اهربوا. آه يا إخواني، أنتم على وشك أن تبدأوا الرقص، أحببتم ذلك أم لا.

همسٌ، فسُعالٌ، فطقطقة مجوهرات تجد طريقها إلى فضول أنيس يتحوّل نشوة مكبوتة تتحول ضحكة فاترة، سيلًا من القهقهات كتفاهم جماعي. انتشار عام للبهجة والضحك يتذبذب بين أرجاء جمع الحشود المتأرجحين على مقاعدهم، أضراس بيض تلتقط الضوء. يحبّ الجمهور

ذلك، فهو العرض الجيّد، هو الذهب. لربما تحبّه الفتاة الشقراء أكثر من أي شخص آخر، إذ تحوّل الضحكة ملامحها إلى غرغول[1] شرس وجهه منحنٍ إلى الأمام. يرفع هانسفورت يدًا إلى جبينه على النمط الهندي محدّقًا بينما يطوي ركبتيه وباقة البالونات تطفو وراءه. يسرّح نظره في الأفق بحثًا عن أي دليل على حياة ذكيّة. عشر ثوانٍ، تسع ثوانٍ، ثم يلتحق بتردّد بالعربدة بينما يشتعل المقعد الأول، ثم الذي يليه، والذي يليه إلى أن يتواصل الحريق.

(1) Gargoyle: هو حيوان أسطوري ثم تصويره في العديد من المنحوتات والجداريات الخارجية لكثير من كنائس العصور الوسطى على شكل ميزاب ناتئ، وأصل الكلمة مستمد من محاكاة صوتية للضجة الناتجة عن غرغرة ماء المطر في الميزاب.

لدى البعض يهرم القلب أولًا

عندما استيقظ بعد أشهر عدّة من تذوّق كرز أوتو بينسفانغر اللذيذ، وجد فريدريك نفسه في بقعة تبدو وكأنها مألوفة للغاية. كان متأكّدًا إلى حدّ ما أنّه في منزله في ناومبورغ إلا إذا (والفكرة ما تنفكّ تراوده) تبيّن له أن البقعة حيث وجد نفسه، ثبت أنها نسخة عن منزله في ناومبورغ وهي واقعة في مكان ما مختلف كلّيًا.

ومع ذلك، حيث كانت، كلّ صباح، لو سمح الطقس بذلك، تنتظره أمّه ليرتدي أفضل بدلة لديه وترافقه في نزهة جميلة عبر الأزقّة إلى السوق حيث يتسوّقان، وعند كلّ بعد ظهر تلفّه ببطانيّة منقوشة وتضعه في كرسيّه الخاص على الشرفة حيث يدغدغ عقله النسيم العليل على الفور. أحيانًا يقضي ساعات هناك يستمتع بمشهديّة الحقول من وراء أسوار المدينة. وأحيانًا يطبق عينيه ويترك النسيم العليل يدغدغ عقول الآخرين. وبين الفينة والأخرى، يحدّق بالصحيفة المفتوحة في حِرجه بعد أن تكون أمّه قد انتهت من تصفّحها، فيعدّ إلى المئة قبل أن يقلب الصفحة كي يعطي لنفسه الانطباع بأنه يقرأ، مع أنه وجد في الحقيقة هذه الفكرة أقل جاذبيّة هذه الأيام، نظراً لتوليفات الكلمات المحتملة كلّها.

هذا ما كان يقوم به، مقلّدًا عادات القراءة، إلى أن وقع على عنوان

لمقالة حول كتاب جديد لرجل يدعى يوليوس كلينغبيل. سمح لفضوله بأن يسرح بمتن النصّ لأن فريدريك أحبّ وقع اسم كلينغبيل في رأسه، إذ ذكّره بصليل الأجراس.

أخذ يركّز بصعوبة ويميل إلى الأمام وإلى الخلف مع كل جملة كما لو كانت سور مدينة، تمامًا كسور المدينة المحيط بناومبورغ، ووظيفته تقضي بتحديد الشق الصغير فيه الذي يمكنه من خلاله رؤية شوارع المعاني ومنازلها. كان كلينغبيل مستعمِرًا في جرمانيا الجديدة. عمل منذ البداية بلا كلل للدفع بها قدمًا، لكنّه فقد اهتمامه بها تدريجيًّا. والعام الماضي، عاد مع عائلته لكتابة سرد مسهب حول تجاربه هناك، مقتنعًا بأن البيداء قد فازت. اتهم فورستر بانعدام الكفاءة، وبالتخاذل والاستبداد. وقال إن المستعمِرين الآخرين قد حُرموا أموالهم، وأُجبروا على شراء ما يحتاجونه من فورستر عبر نظام تبادل خاص، وعاشوا في ثكنات قاسية. بينما استمتع فورستر ببذخ الحياة في ما شكّل عقارًا صغيرًا يخزّن النبيذ الأوروبي، ويفاخر ببيانو ضخم وحتى جهاز غراموفون في غرفة الرسم التي لم يُدعَ إليها أحد.

ويواصل كلينغبيل قائلًا، على الرغم من ذلك كله، لا يمكن للمرء أن يقسو كثيرًا على الرجل. ففي النهاية، هو يعيش تحت إمرة زوجته اللعوب. ولا يخفى على أحد من يدير اللعبة منذ البداية. فورستر دمية ليزبيث الصغيرة.

بينما يجلس على الشرفة في ذلك الأصيل، يقرأ الصحيفة، شعر فريدريك بابتسامة ترتسم على شفتيه وتكمل ملامحه. وأخذت تنبعث عبر عضلاته كنزلة برد رقيقة، ولم تفارقه قبل أسبوع كامل. فشرع يرافق أمّه كل صباح إلى السوق، وهو يبتسم، ثم يلحقها إلى منزلهما، فيجلس

في غرفة المعيشة ينتظرها لتحضّر له غداءه. وما إن يتمجلسان بين الأشجار بعد أن يتناولا الطعام معًا حتى يسألها فريدريك بكلّ احترام ما إذا كانت قد انتهت من مطالعة صحيفة الصباح.

هل من سبيل أن تنتهي التكهّنات قريبًا؟

هل يعقل ألّا تكون بعيدة جدًّا أو قاب قوسين أو أدنى عن...؟

وسرعان ما تذعن فرنشيسكا لإلحاحه، فتلين أمامه. ويشرع فريدريك يتصفّح كل صفحة عن كثب، ممسكًا بالأوراق على بعد أربعة سنتمترات من أنفه ليس إلّا، مقتفيًا أي آثار إضافية لكينغبيل.

ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يكتشف المقالة الثانية.

لقد أدان اليميني بايروتير بلاتير هجوم المستعمِر السابق على جرمانيا الجديدة معتبراً أنه تشهير وحسب.

ونحت رسالة ليزبيث للمحرّر المنحى ذاته، حيث شرحت فيها أن فورستر عانى ما وصفته انهيارًا عصبيًا. لقد قضى رفاق السوء ومؤامرات الأعداء على روح زوجها. وهي لا تتمنى إلا أن يكون الأشرار قد بلغوا منالهم.

أخذ فريدريك يعدّ عدد الكلمات في رسالتها: لم تتخطَ المائة والإحدى عشرة.

وراح يشتمّ الحبر. رائحته كالساعات.

ثم نزل صباح أحد أيّام الصيف المغمّة ليتناول فطوره وهو يرتدي رداء المستشفى، وقشرة صفراء تزرع رموشه، فجلس مكانه إلى مائدة المطبخ، ونظر إلى الأعلى ليجد أخته تجلس قبالته.

حاول ألّا يبدو متفاجئًا. بشرتها بلون السكّر البنيّ. بدت أكبر بقليل، وأكثر رثاثة في وجودها بقليل مما يتذكّر. اقتربت منه وربّتت على معصمه. أخذ فريدريك يتأمل أصابعها الممتلئة. وتساءل في قرارة نفسه لماذا لم تنجب أطفالًا مع فورستر، وكيف تمكّنت من نقل مناخ الباراغواي المقيت معها إلى هنا في 18 فاينغارتن على هذا النحو.

سألها: هل رأيتِ أمّك؟

فأجابت فرنشيسكا من أمام الفرن حيث كانت تقلي البيض والنقانق والشحم الساخن يطقطق.

هل لي ربّما ببعضٍ من قالب حلوى الكريما هذا الصباح؟

زفرت فرنشيسكا عاليًا ووضعت الملعقة من يدها.

هل هذا ما عليك قوله لأختك؟ هل لي ببعض من قالب حلوى الكريما؟ لم ترها لشهر من الآحاد، وقد أتت من النصف الثاني من الكرة الأرضيّة لتساعدني على الاهتمام بك، وهذا ما تقوله لها؟ عار عليك يا فريتز.

فتشرح ليزبيث برفق: لا يزال الوقت باكرًا لتناول قالب حلوى الكريما. ألا تفضّل عوضًا عنه بعض البيض والنقانق اللذيذة وقطعة خبز محمّص؟

أفضّل قالب حلوى الكريما، شكرًا. الكثير من قوالب حلوى الكريما. فلنقل ستة منها.

فتنهره فرنشيسكا قائلة وقد عادت مع الصحون، استوِ في جلستك. لن تحصل على قالب حلوى الكريما، وأنت تبدو ككائن عجوز بجلستك المحدودبة على هذا النحو.

عدّل فريدريك جلسته في كرسيّه بدقّة ملوكيّة، وقرّر بكلّ ما أوتي من ثقة، أنّ أفضل دفاع له ضد هؤلاء الأشخاص هو استخدام المنطق.

وشرع يقول، أستطيع أن آكل أي عدد من قوالب حلوى الكريما. لماذا عليّ أن آكل البيض والنقانق والخبز المحمّص عندما يمكنني أن آكل أي عدد من قوالب حلوى الكريما؟ لا أحبّ على وجه التحديد البيض والنقانق والخبز. على سبيل المثال، مذاق مربى البرتقال كالصدأ. لا أرى الجدوى من هذا النقاش على الفطور أبدًا...

وواصل كلامه، مع أنّه بدأ يلين ويلين، حتى تحوّل صوته همسًا متلاشيًا وحافظت شفتاه على حركتهما من غير أن يصدر عنهما أي صوت مسموع.

أدرك فريدريك أنه خسر المعركة. فلا أمّه ولا أخته يعيرانه أي اهتمام. الفطور بيض ونقانق وخبز محمّص أو لا شيء.

شرع فريدريك يطيّر الذراع اليسرى لرداء المستشفى، ويسعى لفهم كيف انتقلت أخته برحلتها من الرسالة إلى هذه الطاولة.

يستطيع أن يشعر بنفسه يبدأ بالتعرّق. وكأن ديدانًا زئبقيّة تتحرّك تحت إبطيه. فأسرّ لنفسه أن الموسيقى الحقيقيّة الوحيدة، هي موسيقى أغنية البجعة.

ثمّ جلست فرنشيسكا مكانها. وانطلقت هي وليزبيث في نقاش من صنيعهما الخاص. لم يرد فريدريك أن يفوّت حرفًا واحدًا، لأن حدسه يقول له إنه قد يكون معنيًّا بالموضوع. سمع عددًا من الجمل المذهلة، ولم يبدو للوهلة الأولى وكأنهما تستمتعان بجلستهما معًا.

لذا جلس مستقيمًا وشرع يصغي عن كثب، منتظرًا وستار عينيه مسدل إلى أن تصل قوالب حلوى الكريما بكل كياسة.

وعندما شقّ في النهاية عينه اليسرى ليلقي بنظرة خاطفة على ما حوله، آملًا ألّا يلاحظ أحد، وجد فريدريك نفسه، ليس في المطبخ يتناول الفطور، بل يمشي تحت سيل أمطار باردة تهطل بغزارة في طريق عودته إلى البيت بعد المدرسة.

إنه العام 1850. إنه شهر مارس. العام الماضي توفّي والده، ومنذ ثلاثة أشهر، توفّي شقيقه الصغير جوزيف أيضًا.

والآن، تعيش عائلته في بلدة مختلفة، وهو يتنقّل تحت سيل الأمطار الباردة الغزيرة. جميع الصبية من حوله يركضون محاولين الوصول إلى المنزل، وحده فريدريك لا يركض. يمشي فريدريك بكرامة بارزة على طول بريستِرغاس، ممسكًا بلوحه بمنديله الصغير الذي يغلّفه لحمايته. يمشي، وذقنه يواجه سيل الأمطار الباردة الغزيرة كما يُفترض بكاهن أصيل أن يفعل.

في يومٍ آخر في مكان آخر، كان ليترك الصبية الآخرين يتلقّون حمل لسانه، لكنّه بعد ظهر هذا اليوم، هو لا يزال جديدًا على الحي، ولا يعرف أسماءهم، ولن يستمعوا إليه على كلّ حال لأنهم يركضون، لأنهم كَفَرة.

ينظر فريدريك إلى نفسه من علوٍ، كما لو أنه يقف عند نافذة الطابق الثاني من أحد المنازل التي تصطف على الطريق، فيتحرّك عبر كلمات المزمور الثالث والعشرين، لتتساقط الأفعال والأسماء الخطيرة من جانبيه كأحجار ثقيلة.

بريستِرغاس هي وادي ظلّ الموت، ولا يزال أمامه ثلاثة مبانٍ قبل أن يصل إلى منزله. وفي كلّ مرّة تتنفّس فيها يموت أحدهم على الكرة

الأرضيّة، وحده الله لديه أسبابه غير أنّه لا يفصح عنها، لأنه لا يسعنا أن نفهمها حتى لو أخبرنا بها. ومع كلّ خطوة يخطوها، يشعر فريدريك أن أحدهم يموت في الصين، في برلين، في القاهرة، في ظلال الموت، في أفريقيا، في البرازيل، في روما لا أخاف شرًّا، في نيويورك، في مدريد، في فيينا.

لا يسعك أن تتنفّس، لكن لفترة طويلة ليس إلّا، ولا يسع الناس أن يموتوا.

ويحين دور آخر.

كلّ شخص يلج إلى العالم بالطريقة نفسها لكنّه يغادرها بطريقة مختلفة. وتتدافع قوافل الجيوش نحو حافة الهاوية فتفيض مثل...

مثل المطر. مثل ملايين قطرات المطر بين يديّ الله الذي لديه أسبابه. وفي الزاوية التالية تظهر أمّ فريدريك تمشي تحت مظلّتها السوداء الكبيرة فينشرح صدر فريدريك إذ ستتحسّن الأمور من الآن فصاعدًا.

تلوّح له أمّه كشرطيّ سير.

وبينما يدلف فريدريك باتّجاهها يتساءل ما إذا كان الأشخاص الآخرون يرون ألوانًا أخرى عندما ينظرون إلى هذه المظلّة النيليّة الأرجوانيّة البرتقاليّة الصفراء الفوشيا، لكن يسمّون ما يرونه أسود. وهكذا يرى كلّ واحد منهم ابتكارًا فريدًا فيخاله الابتكار نفسه الذي يراه كل شخص آخر، غير أن ذلك ليس صحيحًا، غير أنهم سيموتون وهم يخالون ذلك، وعندما أقول أخضر ترى أنت أصفر ذهبيًا داكنًا، يا للغرابة.

وتلوّح له أمّه وهي تصرخ: أسرع، أسرع! اسمها الحقيقيّ فرنشيسكا. واسم أبيه الحقيقيّ كان القس. جاءت لتأخذ فريدريك. تحت ضوء

المطر الخافت، تبدو ساقاها تحت فستانها الأسود ومعطفها الأسود مائلتين إلى زرقة رماديّة.

يعبق الهواء الرطب برائحة تبدو كما الحصاة الرطبة والصوف الرطب، ويعبق الصوف الرطب رائحة تبدو كما البول.

كلّ الصبية الآخرين يفرّون من حوله، سرب حساسين، وجيوبه الأنفيّة تؤلمه من البرد، وحذاؤه الجيّد يصدر أصواتًا مكتومة تحت قدميه. ولمجرّد أن كلّ شخص آخر يقوم بشيء ما لا يعني أنّه عليك أن تقوم أنت بذاك الشيء أيضًا.

يقترب فريدريك من أمّه بخطوات مقصودة، والناس تموت أينما كان، والأطفال الآخرون يزقزقون من حوله، وهي تلوّح وتصرخ: أسرع، أسرَع! هيّا يا عزيزي هيّا. وبينما يدخل تقول على مسمعه:

ماذا تخال نفسك بفاعل يا رجل، تترنّح تحت هذا الطقس على هذا النحو؟

فيردّ فريدريك مرتبكًا على بعد ستة سنتيمترات منها وهو ينظر إلى وجهها الداكن تحت مظلّتها الداكنة، والمطر ينهمر من حوله، لكن ماما.

أنا أميل لتركك تجد طريقك إلى المنزل بمفردك. انظر إلى حذائك. ومنديلك. إلهي في السموات.

لكن ماما...

منذ متى يتصرّف ابني الصغير على هذا النحو؟

فيجيب فريدريك برفق وفخر، لأنها لا تفهم، لأنها كبيرة كبيرة، لأن ساقيها تميلان إلى زرقة رماديّة، لكن ماما، تقول قوانين المدرسة إنّه يُمنع

على الصبية منعًا باتًّا القفز والركض عندما يغادرون المدرسة. عليهم أن يسيروا بهدوء، ويظهروا أخلاقهم الحسنة في طريق عودتهم إلى المنزل. أحيانًا، يتعيّن علينا كلّنا أن نقوم بأمور لا نستحسنها ماما، أليس كذلك؟

ومع ذلك، تبدو غرابة الوضع كالتالي:

تبدو غرابة الوضع من واقع أن فريدريك ينظر إلى وجه أمّه الداكن تحت مظلّتها الداكنة في بريستِرغاس، منتظرًا أن تصل قوالب حلوى الكريما إلى المطبخ في 18 فاينغارتن، وفي الوقت عينه يستلقي على جانبه في مكان ما في العلّيّة اللامتناهية، ورأسه غارق في كنف كتفه، وركبتاه مجموعتان إلى بطنه المتورّم في وضعيّة جنينيّة، يحاول أن ينام فيتعرّق بشدّة.

إنه شبيه ببروميثيوس، إنّما من دون أمل هرقل، وكلّ صباح نسر عند منتصف الليل.

مهما فعل، هم لن يتركوا ببساطة كبده بمفرده.

ينصت فريدريك إلى الهواء ينقل الهواء في ممراته الأنفية، ونظريّة تنبثق داخله.

ليس مستيقظًا على الإطلاق. كلّا.

يبدو على هذا النحو ليس إلّا.

يحلم في الواقع ضمن حلم أكبر، ضمن حلم أكبر، مثل سلسلة دمى روسيّة، وفي أحد هذه الأحلام، تقول له أمّه عبر طاولة المطبخ، وقطعة خبز محمّص تحوم بالقرب من شفتيها:

انظر إلى نفسك. إلهي في السماوات. ما الذي قمت به الآن؟ هل انتهيت ماما؟

فمه متّسخ بعصيدة البيض.

وتضيف ليزبيث مشيرة بشوكتها: ثوبك، إنه مخيف يا فريتز.

يتحقّق فريدريك من صدره ليكتشف أنه لا يتعرّق على الإطلاق. بل رداء المستشفى يسبح بالدماء من الياقة وحتى الأطراف. تسيل الدماء على ذراعيه وساقيه، قطراتٍ من القطن المخضّب، رذاذًا من كرسيّه، لتتجمّع في بُرَيْكة على الأرض تحته. يتأمّل بقعة الروث بعناية، يرفع رأسه ويحاول أن يجد شرحًا:

يبدو أنني حززت نفسي وأنا أحلق ذقني. ترمي فرنشيسكا بقطعة الخبز في صحنها باشمئزاز.

وترتدي ليزبيث التعابير المتألّمة التي تلي واقعة قرص أحدهم بشرتها من على أحد خدّيها.

يسعى فريدريك إلى جعل نفسه صغيرًا صغيرًا، فيشرع يتحسّس سرًّا أعضاءه، بحثًا عن مصدر التسريب. يبدو أنه عاجز عن تحديده. أو بالأحرى، يبدو أنه قادر على تحديده، وهو في كلّ مكان. إنه ينزف من كل مسام في جسده.

لتقول ليزبيث بعد فترة مطوّلة: حسنًا، لا شك في أن فطورنا العائلي لم يعد كما كان عليه الوضع عندما كان بابا على قيد الحياة، أليس كذلك؟

فتردّ فرنشيسكا: أترين؟ أترين؟ هذا بالتحديد ما أحاول أن أقوله لك. لكن كيف يمكن للمرء أن يرتكب مثل هذه الأمور بالأحرف؟

وتضع ليزبيث شوكة أخرى في فمها. وتمضغ. وتفكّر.

ليعلن فريدريك: أنا أقف في درب العائلة.

فتهتف ليزبيث: ماذا؟

أنا لم أقصد أن تكتشفا الأمور على هذا النحو، لكن إليكما هذا. البويضة: الخطيئة الأصليّة. أنا أؤمن بجنسنا الذي يجعل منك أنت العمّة وأنت التيتا. وتنتشر سلالة آل نيتشه.

تنظر ليزبيث إلى فرنشيسكا وتقول:

فلتكن صبيًّا عاقلًا يا فريتز، هل يمكنك ذلك؟ وتستدير لتمرّر الزبدة. تتناول فنجانها وتتذوّق شاي الإيرل غراي، قبل أن تضيف. خير، يا لهذه الشهيّة السافرة بالنسبة لأرملة...

يطرف فريدريك بعينيه وعندما يفتحهما مجدّدًا، يرى ليزبيث جالسة بمفردها، ليس في المطبخ، بل على مكتبها في الصالون الزهري في الأرشيف تحت غرفته مباشرة، وإحدى رسائله مطويّة داخل غلافها أمامها.

لقد انتظرت حتى يغادر ضيوف هذا المساء. وقد أصبح الأرشيف هادئًا أخيرًا، وخلد فريتز إلى النوم أخيرًا، وها هي تجلس وحيدة وظهرها يواجه موقد الفن الحديث الذي يذكّرها بحوافّه المستديرة وألواحه المحزَّزة وكتلته، بأرغن الأنابيب أكثر منه بما هو عليه. من هذا الموقع، ستكون قادرة على سماع أخيها إن استفاق.

لقد كان نوم فريتز يتقلّص شيئًا فشيئًا هذه الأيام على الرغم من الأفيون، لينهض على صرخات ذعر في منتصف الليل، مشوّش التفكير، مرعوبًا، فينخلع قلبها عليه.

إنه شهر أغسطس. إنها فايمار. إنه العام 1900. ستنقّح ليزبيث هذه الرسالة ولربّما أخرى حتى تُرهق إرهاقًا شديدًا فتخور وتعجز عن أي تركيز، ثم تنسحب إلى غرفة الضيوف. وهي مساحة صغيرة نسبيًّا، بسيطة

نسبيًّا، بنيت للعلماء الزائرين، لكنها كبرت وهي تستخدمها. بالنسبة إليها، تشعر بأنها ترحّب بها. دافئة. تحبّ فكرة أنها وفريتز معًا مجدّدًا بعد كل هذا الزمن. العائلة مسليّة على هذا النحو: المرء لا يتجادل بحماسة أكبر، ولا يكره بشراسة أكبر، ولا يتذمّر بانفتاح أكبر ممّا يفعل مع أعضاء من صلبه، ومع ذلك يعود المرء دائمًا تقريبًا، ومعهم يألف المرء دائمًا جلسته، في النهاية.

تشغل ألفين نفسها بما حولها، فتأخذ أقداح الشنابس المتّسخة، وتنفض الغبار عمَّ لمسه الضيوف، ثم تتوقف لبرهة عند مدخل الباب حتّى تشكرها ليزبيث، فتسأل إن كانت السيدة فورستر نيتشه ترغب بكوب حليب دافئ.

تشكرها السيدة فورستر نيتشه، لكن ترفض عرضها.

أحضرت ليزبيث من غرفة الضيوف قلمًا وحزمة أوراق بيض، واستخرجت من الخزانة الخشب الممتلئة مخطوطات لفريتز رسالة مطويّة في مغلّف.

فتحتها وسطّحتها على الطاولة وشرعت بقراءتها. أخذت تفرك جبينها الدبق بفعل قيظ الليل، وتتنهّد متسائلة كيف أمكن لبيتر غاست منذ البداية أن يجعل من عمل فريتز غير المنشور عملًا بهذه الدرجة من السقم.

لقد جمع كافة المقتطفات الخاطئة عن مختاراته، وكتب سلاسل شنيعة من المقدّمات المضلّلة. وقد تملّكته الجرأة في بدايات الأيام للإشارة إلى نفسه على أنه أوّل أتباع نيتشه. فألحق نفسه عن بُعْد، وكأنّه نوع من القردة الفذّة الأليفة المزوّدة بكتاب. ومع ذلك، لطالما عجز عن فهم مقصد أخيها. حاول قدر المستطاع، لكنه فشل في تصوّر الفريتز

الكامن ضمن فريتز، ذاك الذي كان على علم دائم بما سيقوم به، وهكذا كان على ليزبيث أن تبدأ من جديد من الصفر.

طردت اليهوديّ، وأقنعت أمّها بجعلها الوصيّة القانونيّة على فريتز، ونقلت شقيقها والأرشيف من ناومبورغ إلى فايمار حتى يجد رفقة مناسبة بين أرواح غوته وشيللر وباخ وليسزت وكراناش، وها هي هنا، أحيانًا بعد منتصف الليل في تلك الردهة الحارّة، تساعد أخاها على قراءة التاريخ.

إنه لعمل مضنٍ لكنّه كافٍ. فكُتب فريتز تبيع على نحو أفضل مما كانت عليه عندما كان هو نفسه. وقد بدأ الأفراد الذين يتمتّعون بما يكفي من مصداقيّة وفطنة يقرّون بأن أخاها لم يعد مجرّد كائن من لحم ودم. بل هو قضيّة. في داخله يتجسّد الإيمان بألمانيا تعلك وتبصق كلّ هذا الانحطاط الجزافيّ الذي يراه المرء من حوله كلّ يوم. لقد بدأ الزوّار القيّمون يظهرون بانتظام لتقديم ولائهم. وكم يسرّ ليزبيث أن تقودهم إلى غرفة شقيقها ليلقوا نظرة. تخيّل: رودولف شتاينر.

إنه لعمل مضنٍ لكنّه كافٍ. نادرًا ما تجد ليزبيث نفسها تأوي إلى فراشها قبل الواحدة صباحًا، ونادرًا ما يغافلها النوم بعد الخامسة بدقيقة واحدة. وهي لا ترى فريتز بالكمّ الذي ترغب به، إذ لا وقت لديها لنفسها. غير أن جهودها تعيدها بالذاكرة إلى تلك الأيام الأولى المثيرة في جرمانيا الجديدة مع برنارد، قبل أن تلتبس الأمور، وقبل أن يصل إلى ذاك العقار الفظيع، ويكفي.

يرقد سائر أفراد عائلتها بسلام فوقها.

الرائحة الواهية التي خلّفها شقيقها الوحيد على هذه الرسالة أمامها.

هدوء هذه الليلة وراحتها في هذه الغرفة في هذا المنزل الفسيح.

تقرأ ليزبيث وتفرك جبينها الدبق ثم تتنهّد وتفكّر بيدي أمّها الرقيقتين، كيف بدتا مائلتين إلى بياض أزرق لحظة أدارت وجهها إلى الجدار في السرير، وسحبتهما تحت ذقنها ولفظت أنفاسها الأخيرة، ولن تخسر ليزبيث أبدًا ما بينها وبين فريتز مهما حصل. توقّفت عن القراءة في منتصف الجملة. كلّا، قرّرت. كلّا. كلّ هذا الكلام الجاحد لا يجدي بكلّ بساطة نفعًا. فريتز يهيم من جديد. شقيقها يفقد مكانه، مندفعًا عبر الأرياف، من المنزل إلى اللامكان. فريتز لا يقول ما يريد فريتز قوله، ويعود الأمر لليزبيث أن تتأكّد من قوله ما يريد. هي تدين بهذا الكمّ للغد. فهذا، أقلّه، هو دور العائلة – أن يهتّم الواحد بالآخر، وأن يسوّي الأمور له على المدى الطويل.

ليزبيث تومئ بكلّا وتلتقط قلمها.

تخرج ورقة بيضاء من الحزمة وتنقل رسالة فريتز في ما يشبه إلى حدّ معقول خطّ يده، لتحفره في الشيء الذي يريد أن يكون في عمق أعماق نفسه.

الواحدة فجرًا

يا علّتي العزيزة،

في رأسك. تكتبه في رأسك.

لتساعد على مرور هذه الجنازة التي لا تنتهي.

يا علّتي العزيزة،

أودّ أن أغتنم هذه الفرصة، وأنا أعي أنّي قد أبدو فجًّا بعض الشيء، لألفت نظرك للواقع الذي يبدو لا مناصّ منه، وهو أنّه مضت تسع ثوانٍ كاملة مذ سمعت منك للمرّة الأخيرة.

تسع ثوانٍ أو عشر.

لنقل ليس أكثر من عشر.

إن هذه الحالة تتيح لي فرصة التكهن بأنّ حياة المرء، الآن ومجدّدًا، هنا وهناك، تستمر بشكل جيّد، كما هو الحال بالنسبة للعجول، بعد أن ينضمّ المرء إلى الغالبية العظمى.

على كلّ حال، لقد بللت نفسي مجدّدًا. أنا شبه متأكّد من ذلك.

حاولت أن أحبس نفسي، طبيعياً، لكنّ بعض الحركات تتكشّف لتكون أكثر إنسانيّة من أخرى. تحدث هذه الأمور.

للجميع.. على الدوام.

وهي بالكاد طريقة أخرى للقول إن جسدي قد أخذ على عاتقه أن يذكّر لامتي ما الذي يهمّ حقًّا في كلّ دقيقة من كلّ يوم، وهكذا، رجاءً هيا وخذيني. سريعًا. بوليفيموس يقف على النافذة، يلوّح بمنديله.

أرسلي إشارتنا السرّيّة، أيًّا تكن تلك الإشارة السرّيّة، وسيترك شعره ينسدل لك، إن كان لديه شعر، وإن كان يستطيع أن يتركه ينسدل، لأنه في النهاية، أنا أزقزق إذاً أنا موجود.

فلتسمّها إحدى أبسط الملذّات.

وبالإتيان على ذكر مثل هذه الأمور، عليكِ أن تري العالم كما أراه أنا من عليائي على الصليب. يشبه كثيرًا روما، إنّما مع ربطة عنق وحذاء عالٍ - ما يجعل الأمر صعبًا، إنما ليس مستحيلًا، لدمج كلّ صوت في التاريخ. فلتفكّري على سبيل المثال، بنفس فاغنر القذر. روح الكهل نفسها يلفظها من فمه. على هذا النحو نحيي الخالدين. الأمر الذي يضعني في صميم سؤال وددت أن أطرحه عليك:

هل يحصل أن تتذكّري اسم ذلك المكان؟

تعلمين أي مكان أقصد: المكان الذي تفكّرين به عندما

أسأل: هل يحصل أن تتذكّري اسم ذاك المكان؟ بلدة القطط البيض. لقد تبعت فريدريكوس عبر الشوارع كسرب أشباح متسوّلين.

إني أتكلّم عن القرية الواقعة على كتف البحيرة الخضراء الأردوازيّة، والجبال شاهقة من كل حدب وصوب، لتشكّل دليلًا قاطعًا على أن كلّ فلسفة هي ضرب من ضروب الذاكرة اللاإراديّة، وكلّ سيرة ذاتيّة هي فعل من أفعال التبرير للذات.

سيلز - ماريا.

نعم: هذا ما هو عليه الأمر.

لكن من غاية السرور أن أتناول عشائي كلّ مساء هناك في المطعم المحلّي، محاطًا بأشخاص، لفترة طويلة، إذ لم أكن مجبرًا على حمل نفسي على تكبّد عناء التكلّم مع أيّ منهم. فأفضل سبيل للاستمتاع بهم هو عبر الاستمتاع عن بعد. هذا ما يجيد الآخرون القيام به: أن يجعلوا الفضاء يبدو أكثر امتلاءً. وإلا، بطبيعة الحال، سيختبر كلّ واحد منهم خيبة أمل عظيمة. النقائص اللامحدودة. شتى الأساليب التي تمكّن شخصًا من خذلان شخص آخر.

أودّ القول إن الناس لديهم الهدف نفسه، كما الكلاب من الحيوانات: أن يجعلوا الوحيد يشعر بوحدة أقلّ، عبر الحؤول وبشكل مسبق دون أي تواصل ذا قيمة.

ذلك يعني أن الكلاب موجودة لأولئك الذين يرغبون

بالسيطرة على كائن بشريّ آخر، لكنهم يفتقدون الإرادة للقيام بذلك، لذا يجبَرون على شراء حبّهم وسلطتهم من السوق على شكل وحشٍ قذرٍ متذ لِلٍ ذي نزعة لمضغ سجّاد الفرد وحشر أنفه في أعضائه.

على عكس القطط، وذلك غنيّ عن القول. فالقطط، لنقل ذلك هنا والآن، تعرف جيّدًا ماذا تفعل.

قد تشاركها على الدوام وجودها الصحّيّ الرائع، لكنك لن تكون آمراً عليها قطّ.

أذكر كيف كانت تلحق بي بين المباني الإيطاليّة، وشبك الأسلاك المعدنيّة يزيّن النوافذ، في نزهتي اليوميّة الرشيقة من دونك، ثم ترتدّ عنّي فتتركني وأجهزتي الخاصّة بينما أندفع قدمًا على مسار البحيرة، وعصا المشي بيد، متوجهًا نحو فنجان شاي أخضر لذيذ وقالب حلوى صغير بالكريما، أو قالبين، في ذلك المقهى الصغير في سوليج على بعد كيلومترات، قبل أن أعود سالكًا الدرب نفسه لمواصلة إعادة بناء الكون، وكلّ ساعة يسجّلها رنين أجراس الكنائس.

قد تذكرين أن الهواء المثلج ملؤه أشواك النبات الشبح. أمّا التيار فتدفّق أمام الكوخ، في غرفة صغيرة من الطابق الثاني حيث جلس أخي الأمير يكتب عزلته. كانت دودته الوحيدة.

العبارة التي تشير إلى الأكاليل الأنيقة الجميلة التي تزيّن المباني، هي فن الرسم على الجدران.

هذا يجسّد بالنسبة إليّ المتعة الحقيقيّة الناجمة عن المكوث في الفنادق. لطالما استحوذ عليّ شعور بالغبطة لدى دخولي أحدها. فكلّ سرير مُلكي وليس ملكي، جديد وفي الوقت عينه مألوف، وعند كلّ مكتب ثمّة كتاب جديد ينتظر أن يُكتب.

يمكنك حقًّا أن تطلق العنان لنفسك في مثل هذه الأمكنة، فكلّ غرفة فندق تذكّرك أنه يمكن لعالمك أن يكون مختلفًا.

ومع ذلك، يبقى الباب خيارًا دائمًا، ما يعني أنه يبدو أنّي أكتب لك رسالة وداع.

إذ كما ترين، فإن أكبر خطاياي في الحياة، بحسب ما يتراءى لي الآن، وذراعاي وساقاي غير مرئية في هذا الجمود رغم أفضل الجهود التي تكبّدتها لأحدث العكس، أكبر خطاياي كان قراءة نفسي عبرك، في حين أن المغزى الحقيقي أنه لم يكن أبدًا من أنا داخلك منذ البداية.

كنتِ أحدًا آخر طوال الوقت. كنتِ نفسك، افتراضًا.

لا يسع المرء أن يغفر إلّا كثيرًا. وهكذا لا أعتقد أنه يفترض بي أن أكتب إليك مجدّدًا. لا بدّ لبعض الأمور أن تتوقّف عندما تُسدَّد الديون. حتّى لو اعتقد المرء أنه يعي ما سيحدث، غير أن لحظة وقوع الحدث تبقى غير صالحة للعيش. مهما يكن، كلٌّ يغادر مخصيًّا. لقد وضعت يوسف بن قيافا تحت الأغلال. الموت يخصينا جميعنا في الأيام الأخيرة من الكرنفال العظيم.

هكذا، أخشى ألّا سبيل أمام الله لتفادي أن يكون شخصه. بعض الأشياء حتميّ. ومن موقع مماثل، تتأتى بعض المسؤوليّات. وقد أعطيت، على سبيل المثال، شكلاً لهذا الكاريكاتور. يمكنك أن تنتقديه قدر ما تشائين، وأنا أكون ممتناً لك - من دون أن أعدك باستخدام أيّ من ملاحظاتك.

وأذكّرك، لن أسبّب أيًّا من المتاعب. فالمرء لا يسعه أن يموت إلا في زمن المضارع، إجمالًا، ولا يسعه أن يفعل ذلك إلّا مرّات ومرّات. وهذا ما يدع لنا الشمس البيضاء على الجبال البيضاء.

رجاءً لك حرّية استخدام هذه الرسالة بالقدر الذي لا يجعل سكان بازل يفكّرون بي على نحو أقل شأنًا.

ليس هناك.

هنا.

هيّا.

أطبقي عينيك وإلّا لن تتمكّني من رؤية أي شيء.

حملك الوديع،

ديونيسيوس

تذييل: اللباس غير الرسمي يشكّل القاعدة.

عينان

عندما تفتح عينيك تجد نفسك في جناح مستشفى فارغ مسنود بالوسائد. هو سرير آخر، هي ليلة حارّة أخرى والملاءات مطويّة حتى وسطك والمصباح الزيتيّ يتراقص على المنضدة بجوار سريرك وقد خضعت لعملية جراحيّة. يختلج الحريق في صدرك. لباس بالغ الرقّة يغطّي جرحًا بليغًا هناك واللباس مخضّب بالدماء. تبحث عن حبل، عن جرس، عن وسيلة، تستدعي بها الممرّضة لكن لا أحد غيرك. جدران عارية ولا أسرّة ما خلا سريرك. لا أصوات ما خلا تلك التي يصدرها جسدك، وألم الجرح يروح ويجيء على سطح قشرتك. تنادي تتوقّف تنادي مجدّدًا لا شيء، لا يبدو الأمر جيّدًا. وتقول لنفسك لقد طفح الكيل، في النهاية لقد طفح الكيل فتستعدّ لأرجحة ساقيك فوق جانب سريرك، تنتفض بحثاً عن مساعدة لكن الحريق يشتعل عندما تحاول أن تشدّ عضلاتك، فتجلس منتصبًا وتحمل نفسك على الذهاب بعيدًا لبرهة. تحاول المناداة مرّة أخرى وتحمل نفسك على الذهاب بعيدًا لبرهة، وعندما تعود تقدّر واقع أنه يتعيّن عليك تأجيل ذلك متأملًا اللباس المدمّى مجدّدًا، مشيحًا بنظرك إلى البعيد ناظرًا مجدّدًا والفضول يأبى أن يدعك وشأنك. تلجأ إلى كلّ ما أوتيته من عناية فترفع ذراعك اليمنى

تتلقّى صفعة، حسنًا، تفكّر أنه بوسعك القيام بذلك، يمكنك فعلًا القيام بذلك. ترفع وتزيح. تزيح قليلًا بعد، ثم تحت اللباس الرقيق يتكشّف قفصك الصدريّ. قفصك الصدريّ مكشوف وبين دفق الدماء أمكنك رؤية قلبك ينبض. بشرتك تلاشت ويمكنك أن ترى قلبك ينبض بين دفق الدماء، وتذهب بعيدًا لبرهة. وعندما تعود تستجلي الحركة الثانويّة، اختلاج، اختلاج رطب صغير، خطم لا جلد له، مخالب صغيرة لا جلد لها، شيء يسعى للخروج منك، شيء يسعى للهواء. تلجأ إلى كلّ ما أوتيته من عناية أكبر فترفع ذراعك اليسرى لتقدّم يد العون إلى ذراعك اليمنى، وتزيح اللباس وتصل إلى داخل تجويفك الصدريّ، وضلوعك تنفصل بسهولة وعظام صدرك مكسورة بالمناسبة، فتدفع حول رئتيك اللينتين وترفع قلبك من حجره تحته ذاك الشيء الذي يسعى للخروج يتشنّج. تضع قلبك على بطنك وتجسّه فتضغط على ذاك الشيء الزلق المرتعش بين يديك، فترفعه عاليًا بشرة متمعّجة منزوعة من جرو جنينيّ أعمى، عضلة أرجوانيّة ورديّة، بيض ضفدع مصفَرّ، شبكات أوعية زرق سمينة، هذا ما هو عليه الأمر بالنسبة لرجل أن يلد، فم صغير يفتح ويغلق جاهدًا لتنشّق الهواء، هذا ما هو عليه الأمر وأنت أب الآن. أنت أب وتلك الفكرة ملؤها الفخر والإنجاز والذعر والتوقعات. إنها مستشفى نُفاس هذا حيث أنت، مستشفى نفاس من دون قابلات، ومن دون ممرّضات، ومن دون أطبّاء. لا أحد سواك ووليدك لأنّ الأمر كان دائمًا على هذا النحو، لأنّك تلد بمفردك وتعبر من فتحة إلى فتحة بمفردك. رويدًا رويدًا ينجح سؤال في الوقوف على قدميه في مؤخّرة عقلك، فترفع وليدك إلى الأعلى بيد واحدة وتفتح ساقيه الخلفيّتين بالأخرى، تغضي طرفك فتستكشف عضوًا أرجوانيًّا ورديًّا يتألف من عضوين أرجوانيّين ورديّين، إنّه صبيّ فتاة، فتاة

صبيّ، فبيّ صتاة، وأنت تنضح رفاهيّة. لو أمكن لأختك أن تراك الآن لو أمّك، لو أبوك، لأنّه من تلك اللحظة وصاعدًا سيأتي أحدهم لتناول العشاء كلّ ليلة وراء جبينك. تخفض وليدك إلى صدرك، إلى ما تبقّى من صدرك تربّت على رأسه الباحث عن ثديك وطلائع وخز الرضاعة الأولى قد وصلت لأنك أب فتهمس هيّا، هيّا يا صغيري، وتتمجلس بين وساداتك تبتسم وتغلق عينيك هيّا هيّا فتبدأ الرؤيا.

عن السعادة التلقائيّة

يعلن فريدريك للأحد، اللغة غزل، مستطلعًا صفّ النساء الواقفات لإشباع رغباته أمام بار الخشب الماهوغاني بفساتينهن الحرير المشرَعة وصدورهنّ العريضة المعروضة كأكياس مضاعفة الحجم من الكآبة البيضاء.

لقد طلبت منه السيّدة البدينة التي تدهن شفاهها بأحمر قذر أن يأخذ وقته ويختار، والآن هو مشغول بالاختيار.

إنها كولونيا. إنه شهر فبراير. إنه العام 1865. البارحة، وصل فريدريك الذي بالكاد بلغ عامه الحادي والعشرين، ليغنّي في جوقة الحوالى ستمائة فرد في المهرجان هنا، واليوم أخبره رفاقه الضوضائيون الذين تعرّف إليهم أنّهم سيأخذونه لتناول عشاء متأخّر، لكن أخذوه عوَضًا عن ذلك إلى هذا المنزل المصنوع من الخشب والجصّ في الأسفل على ضفّة النهر.

يقول فريدريك بصوت عالٍ لمنفعته الشخصيّة، اللغة غزل وبعض الأمور لا تداني الرمزيّة البتّة. يساعده السرد على ترتيب فوضى الأمور. كيف أن غرفة الرسم هذه، على سبيل المثال، هي عبارة عن تشظٍّ صامت

للزخرفة الصينيّة الذهبيّة القرمزيّة: من الأقمشة إلى ورق الجدران والأثاث المفرط والأشكال على السجّاد.

كيف أن سديم السيجار الأزرق الرمادي يرصف نفسه طبقات عبر الهواء.

كيف أن الوقوف في هذا المكان يشبه الوقوف داخل محفظة امرأة مستعدّة للخروج: مبالَغ بترتيبها، مكتظة بتفاصيلها، مربكة بحضورها.

تنساق يد فريدريك إلى الأعلى لتساعده على فهم ما يفكّر به، لكن ليس هناك من يلاحظ ذلك، لأن رفاقه الضوضائيين يضحكون ويشربون ويدخّنون مرتدين قمصانهم ليس إلّا. اثنان منهم يصدحان بأغنية ثنائية على البيانو المجلجل في الزاوية عن حانة الجعة. أما النساء على بار الخشب الماهوغاني، فينتظرن فريدريك بلا أي اكتراث كي يتّخذ قراره، بينما يمسكن أثداءهنّ المتراخية براحة أيديهن كتجّار سمك يستعرضون بضاعتهم براحة أيديهم، أو يتفحّصون أظافرهم الحمراء المتشقّقة، أو يحكّنّ ظهر أعناقهم ويحدّقن بالأرض.

يأخذ فريدريك نفسًا عميقًا ويختار.

عطور. جعة. إعلان الجسد المرير. كلّ ضربة فرشاة تحمل معها نفَسًا ولونًا وصوتًا، كل سنتيمتر من الجسم إحساس لا يمكن أن يُنسى.

غالبية النساء طاعنات في السن بالنسبة إليه، متبرّجات بفائض من البودرة والحمرة والماسكارا وظلال العينين. إحداهن ضخمة، ضخمة حتى لكأنها نُفخت بمنفخ درّاجة، وأخرى نحيلة، نحيلة حتى لكأن ردفيها قد سُحقا كزوج تفاح قديم. لقد وضعتهن الجاذبيّة أمام حياة قاسية، فزرعت فراغات في أسنانهنّ، وأغلظت أنوفهن، ولطّخت أيديهن

وسواعدهن لطخات بنّيّة خفيفة. ولو قرص أحدهم البشرة تحت ذقنهن، فستبقى مقروصة.

يقترحن استعراضًا متنافر الألوان أشبه بعرض سيرك.

لكنّ فريدريك لا يسعه أن يقرّر. إلى أن يرى الفتاة التي تبلغ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها ذات تسريحة ذيل الفرس الطويلة المستقيمة الشقراء شقرةً تقارب البياض الناصع: تتلكأ وراء الأخريات.

وهكذا، يدرك أنّ كل شيء سيتوالى بسهولة على هذه الصيغة لأن في الخارج السماء صافية جليديّة، والقمر أسطوانة ذات زرقة بيضاء مرقّطة. كل شيء سيتوالى بسهولة، والفتاة ذات تسريحة ذيل الفرس الطويلة المستقيمة ترتدي عقد راين يلتفّ حول عنقها، وتحاول أن تغلق بتواضع فستانها الذهبيّ القرمزيّ. تنظر إلى يسارها بزرقة عينيها الأثيمة، كما لو تحاول أن تستجدي زرقة النهر الكبير كلّه عبر الجدران.

تكلّمه السيّدة البدينة التي تدهن شفاهها بأحمر قذر بنبرة لعوبة وهي تقف إلى جانبه:

الرجل الشاب يستسيغ إينغريد، أليس كذلك؟ مبروك عليه! يعرف قيمة الأمور عندما يراها إينغريد، عزيزتي، تعالي! خليلك ينتظرك!

إينغريد تجفل. إينغريد تستجمع نفسها.

إينغريد تدفع بنفسها إلى البار بلا أيّ تعبير.

ينظر إليها فريدريك وهي تتمايل، ثم تلتقط نفسها، وفي تلك اللحظة، يدرك أنها عرجاء. دفء سائل يسري في عروقه. تترنّح من غير حتّى أن تقارب عينيه، وقدمها اليسرى مرخيّة، إلى أن تبلغ الستارة التي تصدح

من ورائها موسيقى البيانو الغليظة، ومن الستارة إلى مدخل الباب، لتخبط بقدميها السلالم، وفريدريك يمشي على خطاها.

في الأعلى ممرّ طويل، إنما غير مزيّن، تقوده عبره، وتسريحة ذيل الفرس تتدلّى كرقّاص ساعة على ظهرها. تحصي خمسة أبواب بلا أي همس، ثم تستدير لتفتح السادس وتخطو جانبًا. فيخطو فريدريك خطوة أكبر أمامها ليجد نفسه في ظلمة دامسة مجفلة.

إلّا أنه يجد نفسه واقفًا. ليس في الغرفة في كولونيا، بل وسط منصّة مرتفعة بعض الشيء تشكّل مسرحًا في ردهة الأرشيف الزهريّة، ينظر من وراء وجه أخته.

أوّل ما يقوى على فهمه حول ليزبيث هذه المرّة هو كم تبدو طاعنة في السن وكم تشعر بالوهن. قدماها الحافيتان تهرسان هرسًا، والمفاصل المتورّمة في يديها تؤلمانها. أما الحبّار السائل في رحمها فيختلج. تقف ليزبيث لكنّها تريد أن تستلقي.

ثاني ما يقوى على فهمه هو كم تبدو مفعمة بالنشاط على الرغم من هذه الانتكاسات. فتدور عجلات الحدس فيها مخبرة إيّاها أن قدميها ستطويان تحتها كإوزّة راقدة إذا ما أجبرت على المحافظة على هذه الوضعيّة لثانية واحدة إضافيّة. ومع ذلك، هذا تحديدًا الثمن الذي يفترض بها أن تسدّده لمثل هذه المناسبات العظيمة، وهي لا تنوي تغيير أي أمر. وتقرر، فلتطوِها.

لتطوِها.

ينظر فريدريك إلى الأسفل.

يرتدي فستانًا أسود فضفاضًا تقويرته فرويّة بيضاء واسعة، وينتعل

حذاء عاليًا مدبّبًا أسود. ينظر إلى الأعلى. الردهة تعجّ بالصحافة وكبار القوم. تأخذ أخته نفسًا عميقًا وتفتر شفتاها ما بين الابتسامة والـ آه!، تتقدّم بأداء مسرحيّ لتعرض عصا المشي الخاصة بفريدريك لرجل قصير صغير عابس. شعره مدهن وشارباه لا يناهزان طرف الإبهام. لم يسبق لفردريك أن رآه قطّ.

تأسر الحضور في الردهة.

يسير الرجل القصير الصغير العابس قدمًا كي يستلم رسميًّا الهديّة.

وتنطلق حرب إضاءة وكاميرات.

ويدرك فريدريك تدريجيًّا أنه منتصف شهر أكتوبر. إنه العام 1934.

ما يعني أنه عيد ميلاده. اليوم موجود على شرفه. لكان بلغ التسعين. عوضًا عن ذلك، هو ميت. في الخارج، الطقس عاصف وحادّ. في الداخل، يحكم الرجل القصير الصغير العابس قبضته على عصا المشي الخاصة بفريدريك. لثوانٍ طويلة خلت، يحملها كلاهما عاليًا بينما عدسات الكاميرا تلتقط ذلك. تلتقي عيناهما. في أكثر الفترات التي يمكن تخيّلها إيجازًا، يغمز الرجل القصير الصغير العابس لليزبيث، فتنتهي تلك اللحظة.

وتروح ليزبيث تفكّر، لقد كان عملًا شاقًّا، استغرق أكثر من أربعة عقود، لكنه كان عملًا جيّدًا، عملًا يستحقّ التعب، وها هي الآن، تضع خاتمته. ليزبيث تسلّم الشعلة. هذه هي العبارة تحديدًا. إنها تسلّم الشعلة، وتدرك، بينما تسكن تلك التكّات المجيدة التي تحدثها عقارب الساعة، أن الحياة كانت كثيرة في الحياة.

الشمس الغاضبة تتهاوى عبر الشجر خارج النزل الأساسي في مجمّع جرمانيا الجديدة.

نبضات القلب المتّقدة تلك.

لقد كان عملًا شاقًّا، لكنه كان عملًا جيّدًا، ولن تنفك ليزبيث تتذكّر كم كان أدولف هتلر بعد ظهر ذاك اليوم المتلبّد بالغيوم مزيّنًا، ذكيًّا، ورجلًا نبيلًا. وكم ساورها القلق بهذا الشأن. ومن لن يساوره القلق؟ لم تكن تملك أدنى فكرة عمّا تتوقّعه من الرجل الذي يمتلك ما يكفي من الثقة ليحمل لقب فوهرر، وما يكفي من قوّة الإرادة لينسحب من الفوضى العارمة المسمّاة عصبة الأمم. فكيف يمكن لمثل هذا الشخص من لحم ودم أن يكون ما هو عليه بعد أن كابرت عليه الحياة؟ عندما التقيا وسط ضوضاء رجال الإعلام عند الباب الأمامي بعد الغداء مباشرة، انحنى من وسطه كأمير أمام أميرته. وجدت ليزبيث تلك الحركة مهيبة. بدلته، وهي عبارة عن سترة بلون الحنطة وسروال داكن اللون، بدت أكثر انكماشًا مما ظهرت عليه في صور الصحف. صافح يدها مصافحة صديق.

رائحة هتلر جيّدة أيضًا. لربّما كان يضع عطر الكولونيا، أو لربّما هي رائحة الكريم الذي يستخدمه لتمليس شعره إلى الخلف.

في كلتي الحالتين، هذا ما ستذكره تحديدًا: كيف أن عطر الليمون النظيف غمرها كاضطراب بصريّ بينما تسلّم عليه وتقوده إلى المنزل، صعودًا إلى غرفة فريدريك، تستنشق بفرح، ورجال الصحافة وكبار القوم يتبعون خطواتهما.

لقد تمّ الحفاظ على الغرفة على النحو الذي كانت عليه صبيحة وفاة أخيها: الستائر الداكنة، والجدران الفارغة، والسرير الضيّق، والمنضدة الصغيرة المجاورة للسرير، والكرسي الوحيد. وقف هتلر عند مدخل الباب ويداه مشبوكتان أمامه، ورأسه مطأطأ، بإجلال. ثم عبر الغرفة

متوجهًا إلى السرير ووضع يده على وسادة فريدريك. حافظ على هذه الوضعية لفترة طويلة غير معهودة بينما يتدافع المصوّرون لتوثيقها.

علّق، وعدسات الكاميرا تلاحقه، قائلًا: ثمّة أولئك الذين يعتقدون بأننا ننتظر شتاءً قارسًا. إلا أنّ لي رأيًا مغايرًا.

افترّت شفتا ليزبيث ما بين الابتسامة والـ آه! ثم أطبقتهما مجدّدًا. حاولت أن تفكّر بشيء تقوله. لكن عقلها بقي محكم الفراغ. حاولت أن تفكّر بشيء تقوله مجدّدًا. وانقضت شذرات ثوانٍ.

تذكّرت، بينما تحاول أن تفكّر بشيء تقوله، لوحة له اسمها كنيسة الجبل، رأتها مرة لدى زيارة قامت بها لمتحف برلين: قمّة مستدقّة حمراء مائلة إلى البرتقاليّ على سقف أحمر مائل إلى البرتقاليّ يعلو كنيسة بيضاء؛ جبال خضر باهتة الزرقة تجاري بانحدارها السحب الزرق المائلة إلى الأبيض؛ كوخ من الخشب والجصّ يبرز إلى اليسار. لفتتها بساطة اللوحة وذلك الشعور بالوحدة، ما يؤكّد كم عجزت أكاديمية فيينا عن فهمه، على النحو ذاته الذي عجزت فيه سائر أوروبا عن فهم فريتز.

وبلا أي مقدّمات، رفع هتلر رأسه وسألها بجدّيّة مطلقة:

هل كان أخوك يهوى الكلاب؟ لطالما تساءلت حول ذلك.

راحت ليزبيث تفكّر.

ثم أجابت: أعتقد... أعتقد، إن كان لا بدّ من قول الحقيقة، أنه كان يفضّل عليها القطط. مع أنه معروف أنه لم يحتفظ لنفسه بأي حيوان.

وشرع هتلر يتشاور مع السقف.

أنا شخصيًّا أميل للكلاب.

آه. أجل. حسنًا. بالطبع ثمّة ما يقال على لسان الأجناس.

برز رأس أشقر جميل لأحد مساعدي هتلر من الذكور من بين جموع المصوّرين.

وقال: عذرًا، الجميع حاضر.

فردّ هتلر وهو يقف: يا إلهي. كيف مضى الوقت؟ سيدة فورستر نيتشه، كم سرّني لقاؤك. اسمحي لي...

وقدّم لها ذراعه.

والآن تشعر ليزبيث بأناملها ترتخي حول عصا المشي الخاصة بشقيقها، قبل أن تستسلم.

وتدرك ما يلي: الشعلة تنسحب بعيدًا عنها.

هكذا تبدو الحوادث بعد أن تسقط من التاريخ.

تقف على عتبة الفصل الأخير، وبفرط من الوعي الذاتي، تسقط عينيها، وتحثّ جسدها على التفضّل عليها بانحناءة احترام صغيرة مؤلمة.

أسفل التلال الحادّة المعشوشبة من الأرشيف، ووراء سرداب المقبرة التي تحوي رفات غوته وشيللر، على الجانب الأبعد من ساحة سوق فايمار، تمتدّ الحديقة على طول نهر إلم في سلسلة من المروج المتموّجة، ومسارات الحصى الملتوية، وبقايا الآثار الرومانسية المصطنعة، والأشجار المزهرة.

وفي فرجة واقعة بين ضفافها، تبدأ أنوف كلاب تظهر عبر الأشجار. في البدء واحد، اثنان، ثلاثة. ثم ستة. عشرة.

تستنشق نسيم الربيع.

تبدأ كلاب الدوبرمان تقفز من بين الشجريات وتتجمّع في الملأ، مدمدة، مصدرة أصواتًا رطبة من أفواهها الرطبة، ثم تكتمل المجموعة، وتبدأ رحلتها نحو وسط المدينة.

في مكان ما ضمن تواتر الأحلام، يسمعها فريدريك.

ثم يسمعها على نحو أقلّ.

ثم لا يسمع شيئًا على الإطلاق.

إنه أكثر غيابًا للأصوات كمالًا قد اختبره في حياته على الإطلاق، كذاك الذي يتخيّله وهو واقف بمفرده على امتداد القطب الشماليّ في ليلة يسكنها الصمت المطبق إلى أن يضحى حبس أنفاسك خافتًا أكثر فأكثر، فيفكّر بينما يستلقي في هذا العدم السمعيّ، يفكر أن الأحلام تزداد أحيانًا توحّشًا، لذا عليك أن تستيقظ كي تجد لنفسك لحظةً ترتاح فيها.

إينغريد تجثو بلا كياسة بين قدميه، بينما يجلس هو في زاوية السرير النحيل، ويداه تساعدانه على شرح ما الذي يفكّر فيه.

إنه يفكّر أن ثمّة شمعة وحيدة في هذه الغرفة، وهي تومض على المنضدة بجانب السرير كطائر خفّاش مضطرب.

إنه يفكّر أن التفكير قد يكون أحيانًا معاكسًا للمفيد.

إنه يفكّر كيف حدث مرّة، عندما كان في الثانية عشرة من عمره، أن اجتاحت ليزبيث غرفته وسط الليل وأيقظته وهي تصرخ: تبًّا لك! أكرهك! أكرهك! أكرهك! أكرهك! ثم أغلقت الباب بعنف وراءها وعادت إلى غرفتها، ولم يحدث أن أتى أيّ منهما على ذكر هذه الحادثة مجددًا.

يرتدي فريدريك، الذي بالكاد يبلغ الحادية والعشرين من عمره، بدلة الجوقة من الخصر إلى الأعلى ومن الخصر إلى الأسفل، لا شيء سوى جوارب سود وحذاء أسود قد يسعه الترحيب ببعض الطلاء اللمّاع. وبينما راح يستمع لنفسه يعبّر عن رأيه حول المسألة، أخذ يراقب يده اليمنى تهجر الجانب الأيمن من وجهه لتعبر المسافة الفاصلة بينه وبينها، وتصل لتستكين أعلى رأس إينغريد. فروة رأسها دهنية، دافئة رطبة. سقف حلق فريدريك حمضيّ دبق. يصغي لنفسه يتكلّم، ويتساءل ما الذي يمكنه قوله في مثل هذا الوقت.

المسيحيوّن يرسلون إلى الجحيم كلّ مايقف حجر عثرة في طريقهم، هو ما الذي أمكنه قوله، ويدّعون أنّك ميت.

صوته عذب، بمثابة بَرَكة.

عبر الباب، أسفل الممر، أسفل السلالم، رفاقه الجدد يقرعون قرعًا على البيانو المجلجل. وفي الغرفة المجاورة، تتأوّه امرأة وتقهقه، وتتأوّه وتقهقه. وتكتم أصواتها أصوات ذكوريّة أقل وقعًا وأكثر عمقًا حتى ليخيّل لفريدريك أنه يشعر بها أكثر ممّا يسمعها.

لا رسوم على الجدران المتكلّسة. لا سجّاد على ألواح الأرضيّة. سقط فستان إينغريد مشرعًا مرّتين، ومرّتين طلب منها فريدريك أن ترتديه مجدّدًا وتغلقه، رجاءً.

ترفع رأسها إليها وفمها مملوء بألف كلمة وكلمة.

من هذه الزاوية، تحت هذا الضوء الذي لا يكلّ، يستطيع فريدريك أن يقتفي أثر ندوب الجدري القسريّة الموزّعة على وجنتيها.

وفي زرقة عينيها اللازورديّة، يستطيع أن يستشفّ الحيرة.

يعلن لها برفق، الليلة اسمك ليس اسمك، فلتدّعي أنّك ميتة.

وفجأة يختفي السرير من تحته.

والسقف من فوقه.

فريدريك يسمو عبر الهواء الحارّ.

أفكاره تعدو أمامه كأسماك قرش وراء عينيه.

يشعر بأقلّ من خدر. خواء نعم خواء كلمة تعبّر بشكل أفضل عمّا يشعر به وها هم،

ها هم يأتون إليه من جديد

الكلاب، قطيع الكلاب

يتحرّك صعودًا نحو الشارع الأفعوانيّ

مخالب مزمجرة تصرصر على الحصى

جيفة حيوان صغير غير معروف في أعقابها لكنّ الموضوع أن أيًّا لا يلاحظها أيًّا لا يعيرها أيّ أهميّة لأنّ

لأنّ

احبس أنفاسك   هذا هو   ثانية واحدة
ثانية واحدة

مشهد المدينة معلّق تحت غشاوة الصباح

فايمار تحت الحصار

الجميع نيّام وفايمار تحت الحصار

المشكلة مع المرضى، بحسب ما يسرّ الدكتور المنتفخ هيلدبراندت لنفسه في مكان آخر، بينما يعيد قراءة ملاحظاته، وردفه الأيسر مرفوع يبحث عن دعم على زاوية المكتب العريض الذي يستند إليه، هي أنهم اعتادوا على تصوّر أنفسهم أفرادًا.

أصيلين، يكادون يقولون.

فلتأخذ، على سبيل المثال، الرجل الشاب الذي ينتظر معًا في الجانب الآخر من الباب في المكتب الخارجيّ. أعلن بدرجة معيّنة من الأهميّة الذاتيّة أنه طالب علم فقه اللغة التاريخيّ والمقارن في الجامعة، بينما ذكر عددًا من المراجع السديميّة التي تشير إلى أصل أرستقراطيّ يهدف إلى التأثير على الطبيب كي يقوم بعمل فذّ. غير أن البائس المسكين بدا بعيدًا كل البعد عن الأرستقراطيّة. بل بدا في الواقع تعِسًا: من سوء تغذية، إلى بشرة جافة دنيئة، وعينين وهنتين ضمرتين مكدومتين وراء نظّاراته. كان يشتكي من التهاب دائم في الحلق، ومن التهاب في المفاصل، وأوجاع في الرأس تبلغ في حدّتها ما حمله على الإشارة إليها بالشاطرة الإلهيّة الشيطانيّة.

الشاطرة الإلهيّة الشيطانيّة.

أحبّ الدكتور هيلدبراندت تلك العبارة حتّى لأراد تدوينها.

وانتقل من ردفه الأيسر الكبير إلى ردفه الأيمن الكبير فما كان من مكتبه إلّا أن انتقد ذاك القرار.

إنها لايبزيغ. إنه شهر سبتمبر. إنه العام 1867. المشكلة مع المرضى، بحسب ما يسرّ الدكتور المنتفخ هيلدبراندت لنفسه، هي كيف يفشلون في فهم أنهم ليسوا أكثر ولا أقلّ من مجموع مختلَف المصائب التي تحلّ

على الأجناس عبر الزمان. فلنأخذ مثال رجلنا الشاب هنا. كان للطبيب فكرة واضحة نسبيًّا حول تشخيصه حتى قبل أن يطلب من الزميل أن ينزع حذاءه وجواربه حتى يتمكّن من فحص أسفل قدميه. نظر إليه طالب علم فقه اللغة التاريخيّ والمقارن كما لو كان هو، الطالب، أرفع من مثل هكذا استعراض. لكن ها هي بطبيعة الحال: بقع طفح جلدي بنيّة مائلة إلى الحمرة على باطن قدميه. غدده اللمفاويّة ملتهبة أيضًا.

الرسالة لا لبس فيها: دم فاسد لديه ما يقوله له. يصادف الدكتور هيلدبراندت مثل هذه الحالات كلّ أسبوع أو أسبوعين. أينما تنظر، تسمع الدم الفاسد يتكلّم.

إنه حكم الطبيعة الذي يقول بوضع حدّ خجول للملامح المنهكة لذوي المال.

يدفع مكتبه دفعة متباطئة. يتنحنح قليلًا كي يصفّي ذهنه. يضع حافظته على المكتب. يمرّر يدًا في شعره الرماديّ ويسوّي ربطة عنقه.

عندما تكون الرسالة دمًا فاسدًا، فمن الأفضل أن تتكتّم حول الموضوع. وإذا لم يكن ثمة ما يمكن القيام به، عندئذٍ ليس ثمة ما يمكن القيام به. لهذا الرجل الشاب مقدار عشرين عامًا أمامه قبل أن تسوء الأمور، وعشرة أعوام أخرى بعدها قبل أن تصل الرسالة البيولوجيّة كاملة. لماذا إثارة قلقه بالتوقّعات الآن؟ فكما لو أنك تسير في الشارع متّجهًا نحو غريب تجهله، تنقر على كتفه، وتعلن له: عذرًا سيّدي، لكن يومًا ما ستموت. لا أعرف بطبيعة الحال متى، لكنك ستموت. اعتقدت أنك تودّ أن تعرف ذلك.

معلومات كهذه ليست بالخبر العاجل. معلومات كهذه هي حشو وإطناب.

الدكتور هيلدبراندت المنتفخ يسير الهوينا في الغرفة ويفتح الباب المؤدّي إلى المكتب الخارجيّ على مصراعيه، وقد تفجّرت ابتسامة مصطنعة على ملامحه.

وإذا به يعلن بصوت ملؤه النشاط للبائس المسكين الواقف أمامه:

أستاذ نيسكي، لا بد أنّك طالب ممتاز. أتدري كيف أستطيع أن أعرف ذلك؟

نيتشه يا دكتور. اسمي نيتشه.

أستطيع أن أعرف ذلك. لأنك استنفدت نفسك بوضوح وأجهدتها بدراستك. وهل تعرف ما الوقت الآن؟ لقد حان الوقت لكي تأخذ بنصيحتي. اصغِ إلى طبيبك الجديد. خفّف الوتيرة. لمجرّد أسبوع واحد أو أسبوعين بطَبيعة الحال. لمجرّد أسبوع أو أسبوعين. ليس ثمّة ما يدعو للعجلة. ثمّة متّسع من الوقت كي تستعيد طاقتك. هذا كلّ شيء. نم جيّدًا. استمتع بالطعام اللذيذ الذي تقدّمه لنا مدينتنا الجميلة. تناول اللحوم الغنيّة. احتسِ النبيذ الأحمر. دلّل نفسك. وستشعر بأنّك رجل جديد قبل حتى أن تدرك ذلك.

يدفع فريدريك بنظاراته البيضاويّة ذات الحواف السلكيّة، وقد تملّكته المفاجأة، واعتراه الشوق لمن يشجّعه.

هل تقول إن ليس بي ما يثير القلق؟

أنا أقول إن ليس بك شيء، قليل من الراحة والاسترخاء يجديان لك نفعًا سيد نيتزكي. أسدِ لي خدمة، هل لك أن تفعل؟ دخّن سيجارًا فاخرًا على شرَفي الليلة. تناول كأسًا من البراندي قبل أن تخلد إلى النوم. هل تقوم بذلك من أجلي؟

هل هذا يعني أنّي لست عليلًا؟ أشعر أن، أشعر أن.. لكنّك تقول لي إني لست عليلًا؟

يسدّ الدكتور هيلدبراندت المنتفخ المدخل الذي يفصل مكتبه الخارجي عن مكتبه الداخلي بحضوره الملحوظ المبهج.. ويبتسم بحبور.

وبينما يفكّر في محاولته عدم التفكير، يمدّد فريدريك بعناية جسد إينغريد النحيل وقد انبطحت على السرير الضيّق المسوّى كيفما كان.

يبسط فستانها على ظهرها ويمدّد ساقيها، وقد حرص على عدم ثني الساق التالفة. يلفّ تسريحة ذيل الفرس فوق رأسها كعلامة تعجّب شقراء. على زاوية الفرشة يجلس فريدريك متصلّبًا بالنصف الأعلى من بدلة الجوقة والجوارب السود والحذاء الأسود، يستمتع كيف يزور الضوء الخافت الجزع بشرتها بُقَعًا بُقَعًا ويغادرها.

كم يسهل أن يزيل نفسه عن خارطة الحياة. قبل يومين، كان طالبًا. قبل ثلاث ساعات، كان مطرباً. وها هو الآن هكذا، هنا، بعيدًا عن كل شيء.

هو هذا، هنا، يحصي عدد الرسومات على الجدار وعدد السجّاد على الأرض، ليصل إلى مجموع عدم. ينتفض، ويصل إلى النافذة، يفتح الستائر المهترئة التي لا تحكم الإقفال. يلمس اللوح الزجاجيّ بأطراف أصابعه. فيخطر بباله: إنّي أترك أثرًا. هناك، في الأسفل، الشارع المقفر الذي يضيئه نور قمر الليل الأزرق، وفي المقابل، صفّ من المباني المؤلّفة من طابقين لا يسع فريدريك أن يحدّد لونها تحت خيوط ذاك الضوء الفضّي الصارخ الغريب.

يفتح الستائر بقدر ما أمكنه ذلك، وإذ يشعر كما لو أنّه دخل لتوّه حلمًا، يعود إلى السرير. لم تحرّك إينغريد ساكنًا. حافظت على لا حراكها حتى لتهيّأ له أنها قد تكون أقلعت عن التنفّس.

هذه الغرفة تبعث رائحة كريهة هي مزيج من دخان الخشب والقطران والكتّان العفن والصابون.

يراقب فريدريك يده اليسرى تهجر الجانب الأيسر من وجهه بينما يفكّر ولا يفكّر، لتعبر المسافة الفاصلة بينه وبينها قبل أن تستكين بين فخذيها الفتيّين الأبيضين الناعمين. جيدها وكتفاها في كامل استرخاء. يحشر إبهامًا داخلها. هي مبتلّة من الداخل. يسمع نفسه يتكلّم كوالد طفل مشوّش.

فيقول: في ألمانيا، لطالما كنّا حادثاً، وأنت تستلقين على بطنك لأنّك لو منحت الناس الحريّة التي يرغبون بها فغريزتهم الأولى تقضي بتقليد واحدهم الآخر ولا تريني وجهك.

وبيده الأخرى، يتناول معصم إينغريد الأيسر بكلّ رفق ويقوده إلى ظهرها على فستانها المبسوط تحت كتفها.

لقد دخل نوع الحلم الذي تعي فيه أنك تحلم، ويمكنك تغيير كلّ ما تريده بالطريقة التي تريدها.

ليس ثمّة من يشاهد. الأمر بهذه السهولة.

يقول، يرتدون الملابس نفسها، ويأملون الآمال نفسها، ويسألون الكثير لكن يعطون القليل. إنه النشيد النهائي لكلّ مشروع صداقة.

يتناول معصم إينغريد الأيمن بكلّ رفق ويقوده إلى ظهرها على فستانها المبسوط تحت كتفها ليثبته متقاطعًا على معصمها الأيسر.

فتشكل ذراعاها حرف w. يمسك بمعصميها على هذا النحو بيد واحدة. تحافظ إينغريد على لا حراكها.

يراجع فريدريك عمله.

يتناول معصمها الأيمن ويخفضه، ثم يرفعه ويديره، ليضعه على ظهر رأسها، فتلتوي أصابعها قليلًا في الفضاء.

يستخرج إبهامه الأيسر من بين ساقيها، يتقدّم، يبحث عن فمها، ويحشره بين شفتيها. إنها مبتلّة من الداخل. قواطعها مسنّنة. لسانها شريط من كبد دافئ. كلّ ما فيها متثاقل.

يقول لها: لأنك تستلقين على بطنك، لأنّ كلينا خطيئة في ألمانيا، لأن بولس لطالما كان رسول الانتقام، لا ينتمي المؤمن إلى نفسه أبدًا. لقد قلت لك ذلك سابقًا وسأقوله مجدّدًا وجعلتني أصغي إلى نفسي. الآن تستلقين على بطنك. لا ينتمي المؤمن إلى نفسه أبدًا، وبالتالي سيستنزف دائمًا من قبل الآخرين. هذا ما نشير إليه بالتفاني. أحيانًا يكون مؤلمًا وأحيانًا أخرى كمن يدخل حلمًا كالحلم الذي دخلناه الليلة. سنُستنزف من قبله ولا تريني وجهك.

يستخرج فريدريك إبهامه من فمها ويمرّره على وجنتها، نزولًا إلى عنقها، فإلى أزرارها الكبيرة التي تخفي وراءها فقراتها. ثمّ يزلقه في الفرجة بين ردفيها الفتيّين الشامخين، ويتفحّص، ويدخلها بضغط ثابت متواصل، فيجدها لزجة من الداخل. وراء عاصرتها تفتح رخاوة ساخنة وليس ثمّة أحد يشاهد.

يعدّ إلى ثلاثين. ويعدّ إلى ثلاثين مجدّدًا. يرفع نفسه ليجثو على ركبتيه.

وبكل حنان يبعد ساقيها أكثر فأكثر، محترسًا ألّا يثني تلك التالفة، وبينما يواصل الكلام، ينزل رويدًا رويدًا إلى يقظة إينغريد المفاجئة.

في مكان آخر، مترفّعًا عبر الظلمات، يعي فريدريك أن قلبه قد يكون توقّف، فيفترض أن ساعات المرء الأخيرة قد تدوم للأبد. يبدو وكأنّ ما افتكره دائمًا على أنه الداخل هو قيد التحوّل إلى ما افتكره دائمًا على أنه الخارج.

لأنّ الجسد يزداد مع الوقت ماذا سخاءً

السخاء هو هي الكلمة لما يزداده الجسد تحوّلًا

سوائل عامّة

سمّه تسرّبًا،

ارتشاح ذاتي في الينبوع

الصحيح

كيانك الباطني يعبّر عن نفسه بكلّ قناعة

هراء وسفاهة

سفاهة وهراء

وأتساءل أيّ خير في فم ينطق تفكيراً

إن كانت هذه هي الأفكار.

ما رأيك

تفكّر أنه بعد مضيّ أربعين عامًا يصبح وجه المرء إنجازًا وبعد مضيّ خمسين يصبح تحذيرًا وفي ساعات الأمير الأخيرة فيض بسيط
لأنّ لأنّ

هل هذا ما عليه الأمر ثم هل نغادر أخيرًا

شفتاها الممتلئتان الممتلئتان وفستانها الحريريّ المسحوب والمثنيّ إلى مكانه. تجلس إينغريد محتشمة على حافة السرير، تحدّق بألواح الأرضيّة، ماسحة فمها لا إراديًّا بظهر يدها، بينما فريدريك ثابت في مكانه، ينجز تزرير سرواله.

لا يسعه أن ينفكّ يحدّق بها، لا يسعه أن ينفك يحيا مجدّدًا في مخيّلته الحوادث التي جرت بينهما. لا يسعه أن ينفكّ يؤمن كم هو حافل هذا الكون، كم هو محموم بالإمكانيّات.

بعد أن انتهى من تزرير سرواله، تقدّم منها، ووضع راحته على فروة رأس إينغريد. واصلت تحديقها بألواح الأرضيّة. ثم أسقطت يدها اليمنى على حرجها، حيث تستريح يدها اليسرى. واستعدّت لما يمكن أن يأتي لاحقًا. انحنى فريدريك من وسطه، ومرّر أصابعه في شعرها يسرّحه لها وهمس في أذنها بكلّ طيبة:

الفيلسوف شخص يستطيع أن يطلق العنان لفقدان ذاكرته متى يشاء. وهذا ما نسمّيه الشفقة. علينا دومًا أن نغادر في التوقيت المناسب وشكرًا على هديّتك.

يطبع قبلة خاطفة على جبينها الدهنيّ الرطب. ثم يستقيم في وقفته ويملّس الجهة الأماميّة من بدلة الجوقة.

يستدير، يتوجّه إلى الباب، ويخطو إلى الممرّ وذقنه شامخة إلى الأعلى، ويدرك مذعورًا أنه لم يعد يقوى على التقاط أنفاسه.

لأنه يرى لُو تمتطي جوادًا وتذهب بعيدًا في المرج، والمساحات الخضر الخصبة معلّقة تحت سماء ضبابيّة كئيبة.

من وجهة نظره، إنها منطاد هواء ساخن ينزلق على علوّ منخفض.

أيًا يكن الجهد الذي يبذله، فإنّه يفشل في اللّحاق بها، وينزلق وراء وجهها لهنيهات معدودة، قبل أن تعدو بعيدًا مرّة أخرى، فيتلاشى شكلها الظليل في الهواء، قبل أن تتهاوى في العراء، فتتلاشى فتتهاوى.

إنه وادي الراين. إنه العام 1912. العام الماضي، تعرّفت لُو على سيغموند فرويد في أمسية في فيينّا. والآن، هي تعدّ مقالة في رأسها لدوريّته، إيماغو، وتحاول أن تتذكّر شيئًا. قريبًا تنقشع الغشاوة وتتذكّره. وإنه شهر أبريل.

نعم، إنها تحاول أن تتذكّر إن قبّلها فريدريك بالفعل.

تحاول، لكن مضى على ذلك وقت طويل طويل. كانا يقفان على درب في الغابة، نعم، أو أنه كان ريلكي، كلا، كان فريدريك. تذكر تلك الأخت الرهيبة التي هي أخته. كان يسمّيها لامَته.

لو تحاول، لكن لا يسعها أن تعيد تلك الحادثة إلى ذاكرتها بأقل قدر ممكن من الوضوح.

أحبّته، وهذا غنيّ عن القول. أحبّته، لكن لم تحبّه قطّ هكذا. أحبّته كما قد تحبّ أستاذًا عظيمًا غيّر حياتك بشكل جذريّ عندما كنتَ في ريعان شبابك، لكنك كبرت وابتعدت ولم تعد تعيره الكثير من التفكير. هكذا أحبَّته.

هل قبّلها حقًّا، أو قبّلها تقريبًا، أو بدا وكأنّه يستطيع أن يقبّلها حقًّا، لكنّه أدرك أنّه لا يمكن لها أن تجاريه في مثل هذه الرغبة السخيفة.

لا شكّ في أن الذكرى دفينة فيها.

الذكرى دفينة فيها، وجلّ ما عليها فعله هو التركيز كي تحدّد موطنها. العزيز سيغموند لا ينفك يردّد لها ذلك. فيقول، الحياة المدروسة هي حياة تدور حول الانضباط. الحياة المدروسة هي حياة تدور حول قدرة العقل على تحويل الظاهرة إلى أشعّة سينيّة.

إلّا أن واقع الحقيقة هو أن لُو عاجزة عن إيجاد الذكرى الدفينة فيها مهما حاولت أن تبحث عنها وهكذا

وهكذا

هكذا، راحت تنفض عنها ذلك الحنق النائي، وتقرّب ركبتيها إلى ظهر جوادها تشجّعه على الارتقاء من الهرولة إلى الخبب.

فريدريك يتخلّف عن اللحاق بها.

آخر فكرة عنها يعيشها تدور حول آفاق تناول الفطور المقدَّم لها. ستعود لُو إلى الكوخ حيث تقضي العطلة مع زوجها. ستنضم إليه إلى المائدة في الحديقة وتخبره عن جولتها، والتقدّم الذي أحرزته في مقالتها. وسيستمع إليها كما لو كان مهتمًّا. وتعتقد لُو أنها لن تختار أكثر من الجبن والخبز وكأس نبيذ أبيض، كلّا، شامبانيا، كلّا، نبيذ أبيض، وستقضي ما تبقّى من الصبيحة تدوّن خواطرها. أما الأصيل فلا يزال بعيدًا كي تفكّر به.

والآن ها هي تضع المزيد من المسافة بينهما.

تتحرّك بسرعة فائقة.

يحاول فريدريك أن يلحق بها، إلا أن طيفها أضحى بحجم بجعة أضحت بحجم طير. ولُو تغوص في ركام أبيض رماديّ. وهي هناك، وهي لم تعد هناك، ثم هي ليست في أيّ مكان.

ويشرع فريدريك يفكّر بينما يرتقي عبر الظلمة الحارّة، هذا هو الأسوأ: عندما تقع الأصوات كلّها في صمت مطبق

عندما تجهد لسماعها

لكن عوضًا عن ذلك لا تسمع صوتًا

أنت تجهد وكان حبًّا ذات يوم لك كيف ينتقل الهواء   والجسد يتّخذ أي وضعية يريدها الآن إلّا تلك التي يمكنها الحفاظ عليه لا يد واحدة موضوعة علينا

هذا هو الأسوأ

لطالما توقّعت المزيد بشكل أو بآخر

كيف استدارت على الدرب

أود القول إننا في سياق تأمّل الأمور

كيف استدارت إليك

تحت خيوط الشمس الخضراء المصفرّة

فمك رخو مقابل الـ

يبدو أن اليوم لا يسعه أن يقوم بما هو أكثر لنا

فلتلتقط   كلا   كيف يبدو الشعور   كيف تنتقل السحب

خواطر أخرى إضافيّة

جيّد   هذا جيّد   أبعد قليلًا

كيف يتبدّل اليوم فوقك   نعم   كيف وقفت هناك

تنظرين إلى الأعلى

سرب بالونات صفر وزرق وحمراء

تنجرف   ها هي تنجرف

خدوش المخالب البرّيّة على الرصيف أينما كان

ألسنة تلعق الهواء

نباح يشقّ صدر الموسم

أجساد ثقيلة. أجسادًا ثقيلة تهدر في سباق فوق الجدران

عبر الأسياج

من الأزقّة التي تكتظّ بالأشباح

عبر الجسور

عبر أنفاق الزيزفون الجميلة

وكلاب الدوبرمان ترمي بنفسها في سراديب رأسي

نعم جيّد   نعم   أخيرًا بتنا نصل إلى مكا

القسم الرابع

العالم قد تمجّد
وكلّ السماوات تطفح بهجة

العصر

تتمدّد فرنشيسكا بغير لياقة في سريرها غير المرتّب، وقد غرقت في بحر من الوسائد، ترفع ركبتيها وتفتح ساقيها، وتجهد في معاناة الألم الذي يحلّ بها نتيجة انتفاخها المذهل.

على وجهها الذي تلطّخ زهريًّا وتصبّب عرقًا، نظرة تقول \اغربي عن وجهي.

شعرها المتشابك يتدلى من على كتفيها خيوطًا مائلة حادّة. وقد رُفع قميص الأمومة الأخضر الداكن إلى إبطيها. يداها رئتان حمراوان تتنفّسان فوق بطنها.

إنها مدينة روكن. إنه العام 1844. إنه منتصف شهر أكتوبر، وشمس الخريف الواهنة تتدلى وراء سديم عالٍ كقطرة ليمون نديّة خارج النافذة؛ وحدها الستائر مرفوعة، فالغرفة قاتمة ومغلقة.

تتمدّد فرنشيسكا بغير لياقة، تستشيط غضبًا، وتحاول أن تركّز على نفسها. أمّا قابلتها، وهي امرأة قاسية الملامح يجلس صدرها الشاسع بغرابة على وركيها النحيلين وساقيها المتقزّمتين، فتقوم بخطوة إضافيّة باتجاهها حاملة قطعة قماش رطبة وتصل إليها. لقد جعل الألم المضني،

فرنشيسكا تنسى اسم المرأة. ومع ذلك، ما زالت تحتفظ بالقوة لتدير عينيها باتجاهها بنظرة تقول اغربي عن وجهي. إن كانت الحياة تُبعَث على هذا النحو، لا تتكلّمي، إن كان هذا جزءًا ممّا لم يقله الله، فدعيني وشأني.

وهكذا تفعل القابلة.

تنسحب إلى كرسيّ بالقرب من النافذة المرفوعة الستائر وتجلس يقظة، من غير أن تلامس أصابع قدميها الأرض.

بدأت أولى طلائع الطلق في وقت متأخر من الليلة الماضية. كانت فرنشيسكا تخيط في كرسيّها الهزاز وهي تجلس في غرفة المعيشة قبالة زوجها الذي يقرأ على الكنبة، وإذا بصراخها يعلو غير مصدّقة.

لقد مضى على زواجها، وهي في الثامنة عشرة من عمرها، نحو الاثني عشر شهرًا، وهذا مهين. إنه مؤلم كسكّين نحت يحفر ألمًا. جسدها يبعث روائح معدنيّة رهيبة. وليست فرنشيسكا خائفة بقدر ما هي غاضبة ممّا يحصل لها. تحاول أن تركّز على نفسها. تحاول أن تكون في الجانب الآخر من الستائر في الحديقة تحت تلك الشمس الخريفيّة المستضعَفة المستسلمة، لربّما بين ما تبقى من ورودها، تجول بين أشجار الصفصاف الفرويّة المظلّلة حول أحواض السمك.

تعرف أنّه عليها القيام بذلك. تعرف أنّه عليها القيام به بمفردها. هكذا تصبح النساء أكثر قوّة. النساء تصبح أكثر قوّة عبر العيش في مكان آخر يشكّل هذا البعد ولا يشكّل هذا البعد. وتاليًا، لم تعد فرنشيسكا هنا. عوضًا عن ذلك، ها هي تتجوّل عبر شوارع البلدة إلى جانب القسّ في طريقهما إلى الكنيسة يوم أحد صيفيّ اكتسب زرقة وإشراقة لازورديّتين.

وقد أدركت، بينما يتنزّهان ويومئان بذقنيهما معًا وهما يمرّان أمام أفراد أبرشيّتهما، أنّ علاقتهما تدور حول اللّمس من غير اللّمس.

وها هي تستسلم للحركة، وقد رضيت عمَّ آلت إليه الأمور، فتدير برأسها قليلًا إلى الأعلى، نحو الحرارة الممتعة. تشعر فرنشيسكا أنّها بخير. تشعر بأنّها على تماسّ مع البلدة من حولها والحقول المحيطة بالبلدة.

تشكّ في أنها تتحوّل إلى أشعّة الشمس بحدّ ذاتها إلى أن يركلها شيء في صميم أحشائها، فتصرخ مجدّدًا، والألم المضني قد حوّل غرفة النوم إلى ضوء بلون الزعفران.

لاحقًا، بعد أن يسمح لها جسدها بالتفكير، بعد أن يمرّ الزمان مرّة أخرى، أصبحت فرنشيسكا أمًّا.

تفتح عينيها من دون أن ترفع رأسها عن الوسادة، والقسّ واقف أمام سريرها. كتفاه ينطقان راحة ومتعة، وبشرته اكتسبت لونًا رماديًا مضاعفًا عمَّ كانت عليه الليلة السابقة، أما شعره فمنفوش أشعث. لم يغمض له جفن، ووسط حالة ترنّحها، تقدّر له فرنشيسكا ذلك.

ينهمك في الكلام، فيرنّم صلاة صغيرة متواضعة، ونبرته تنضح فخرًا، وبينما تربّت القابلة القاسية على جبين فرنشيسكا بقماشة رطبة، تلاحظ فرنشيسكا أنه بينما ذهبت، سوّى أحدهم ثوب الولادة عليها، وغطّاها بالملاءات، وفتح الستائر. وها هي تصبح واعية لشيء دافئ ونشط بين ذراعيها.

تركّز على تحريك رأسها. عضلات رقبتها وظهرها خدرة. تركّز وتنجح تدريجيًا في تعديل ثقلها.

وببالغ الجهد، تنظر إلى الأسفل، فترى أنها أمّ.

لقد خرج طفل فرنشيسكا الرضيع بلا أيّ صوت، بحسب ما تشرح القابلة بنبرة خافتة مبجّلة ويدها تربّت على جبين فرنشيسكا بقماشة رطبة. لم يسبق لها أن رأت شيئًا مماثلًا. لقد خرج من دون أيّ صوت، وعيناه الزرقاوان الفضّيّتان ترمقان الكون نظرة استطلاعيّة.

وتقول القابلة، انظري إليه. لقد أمضى أشهرًا يكوّن فيها أفكاره الخاصّة. يمكنك أن تتيقّني من هذه الأمور.

في الخارج عربة تقعقع. أحدهم يحيّي السائس بدعابة. فيردّ السائس التحيّة بدعابة أخرى. عينا الطفل الرضيع الزرقاوان الفضّيّتان تلاحقان الضجيج باهتمام هادئ لا نافذة له.

عند أسفل السرير، يختم القسّ صلاته معلنًا أنه قبل تسع وأربعين عامًا من اليوم، الملك الحاكم لبروسيا، فريدريك فيلهلم الرابع[1]، قد ولد. وهو قائد جيّد، ورجل جيّد، وبروتستانتي جيّد. ابنهما سيحمل اسمه. أخذت فرنشيسكا تراقب طفلها الرضيع يراقب العالم للمرّة الأولى، من غير أن تكوّن أدنى فكرة عن ذلك. قبل ثمانية عشر عامًا، على بعد أميال قليلة من هذه البقعة، حملتها أمّها كما تحمل الآن طفلها. ويثيرها أن تكتشف، وهي تحتضن طفلها بين ذراعيها، أنّها تحتضن أجيالًا كاملة.

---

(1) فريدريك فيلهلم الرابع 1795 - 1861 الابن الأكبر وخليفة فريدرش فيلهلم الثالث ملك بروسيا، حكم ملكاً لبروسيا بين عامي 1840 - 1861كما لُقّب بـ«الرومانسي على العرش»، اشتهر بالعديد من المباني التي شيدها في برلين وبوتسدام، وكذلك لرعايته إنهاء كاتدرائية كولونيا القوطية.

يسود السكون عبر الغرفة. فتعي فرنشيسكا بكثير من الرضى أن الجميع يراقب ابنها. يقوم فريدريك بحركات مصّ صغيرة بشفتيه من دون أن يصدر أيّ صوت.

فتردّ القابلة قائلة، انظري إلى فريتز الصغير. إنّه يطبع قبلة على جبين المستقبل.

مجدّدًا.

الفهرس

قبلات نيتشه

لانس أولسن

حفر أولسن عميقًا في الباطن المتصدّع لعقل الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه..

في السرد الافتتاحي يَعدُّ نيتشه ساعاته الأخيرة المتبقية محاطًا بحب ورعاية ممرضته وأخته، بالتناوب مع فصول معنونة بأسماء أجزاء من الجسم البشري، فنقرأ فيها ما يشبه تسجيلا لأحلام من ذاكرة نيتشه، كُتبت بأسلوب تيار الوعي. وهناك أيضًا جزء سرديّ أكثر تماسكًا نجده في تفاصيل حياة نيتشه: عمله وسفره إلى إيطاليا حيث وقع في حب لـُو سالوميه، وسنوات تدريسه في تورين ونجاحه الأدبي الكبير في (مولد التراجيديا) وصداقته مع فاغنر قبل أن تنهار، وأخيرا شبابه في ناومبرغ ومولده كابن لأسقف أبرشية..

يسرد لنا أولسن برقّة عالية ثيمات نيتشه وأفكاره بحيث تكون كل جملة بمثابة قُبلة، ونستطيع القول إن أولسن كاتب جريء ومحترف قدَّم لنا عملًا أدبيًا يرقى إلى مستوى الموضوع الذي تناوله.

Publishers Weekly

لا يقدم لنا أولسن سيرة لحياة نيتشه، بل هي المحطات الأساسية في حياة ذلك الفيلسوف الإشكالي الذي ترك أثرًا عميقا في الفلسفة من بعده. بمطرقة نيتشوية يفكك أولسن حياة نيتشه، فيبدأ من ساعاته الأخيرة، ويروح يستعيد ما حفر عميقا في حياة ذلك الفيلسوف.

في سرده، لا يستخدم أولسن اللغة كصانعة للمعنى، بل يفتح النص ساعيًا إلى اللحاق بالمعنى النيتشوي المتمرّد على السياقات السردية التقليدية.

تصميم الغلاف نجاح طاهر


ISBN 978-9953-582-86-3

